بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الخامس والعشرون

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي وعميد كلية الشريعة في جامعة دمشق

الجزء الخامس والعشرون

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

اختصاص علم الساعة بالله تعالى وانتهاء أسطورة الشرك فيها

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨)﴾

الإعراب :

﴿آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ ما : نافية علّقت الفعل ﴿آذَنَّاكَ﴾ أي أعلمناك عن العمل. وكذلك :

﴿وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ ما : علقت الفعل ﴿ظَنُّوا﴾ عن العمل. وكأنه إذا وقع النفي بعد الظن جرى مجرى القسم ، فيكون حكمه حكم القسم.

البلاغة :

﴿تَحْمِلُ تَضَعُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى الله وحده يرجع علم الساعة ، متى تكون ، لا يعلمها إلّا هو ، والساعة : يوم القيامة. ﴿مِنْ ثَمَراتٍ﴾ جمع لاختلاف الأنواع ، وقرئ : من ثمرة. ﴿أَكْمامِها﴾ أوعيتها ، جمع كمّ. بكسر الكاف : وهو وعاء الثمرة ، وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، وما في قوله : ﴿وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ﴾ نافية ، ومن : مزيدة للاستغراق ، أي لا تخرج ثمرة إلا بعلمه تعالى. ﴿وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ ما أيضا : نافية ، أي إلا مقرونا بعلمه. ﴿أَيْنَ شُرَكائِي؟﴾ بزعمكم. ﴿آذَنَّاكَ﴾ أعلمناك وأخبرناك. ﴿ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي من أحد يشهد لهم بالشركة إذا تبرأنا منهم لما عاينا الحال ، فيكون السؤال عنهم للتوبيخ.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ غاب عنهم فلا ينفعهم أو لا يرونه. ﴿يَدْعُونَ﴾ يعبدون. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾

في الدنيا من الأصنام. ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا. ﴿ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب من العذاب ، وما نافية علقت الفعل. ﴿ظَنُّوا﴾ عن العمل ، وجملة النفي سدّت مسد المفعولين.

المناسبة :

بعد تهديد الكفار بأن جزاء كل أحد يصل إليه يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ أوضح الله تعالى بأن علم هذا اليوم مختص به سبحانه ، فلا يعلمه إلا هو ، كما لا يعلم الإنسان بأمور أخرى. ثم ذكر انتهاء أسطورة الشرك في ذلك اليوم ، إذ يتيقن الناس أن الله واحد لا شريك له ، وتتبدد كل الآمال بأن الأصنام والأنداد تنفعهم.

التفسير والبيان :

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إن علم يوم القيامة مرده إلى الله ، لا إلى غيره ، وهذا جواب سؤال ، فكأن سائلا قال : ومتى يكون ذلك اليوم؟

ونحو الآية : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها ، فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها ، إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٤٢ ـ ٤٤] وقوله سبحانه : ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ، لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٨٧] وقوله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٤].

ولذا أجاب النبي ﷺ جبريل عليه السلام في حديث البخاري ومسلم عن عمر بقوله حينما سأله عن الساعة : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

ثم ذكر تعالى أنه مختص أيضا بغيب المستقبل ، فقال :

﴿وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها ، وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي ويعلم سبحانه كل ثمرة تخرج من وعائها ، ووقت ظهورها تماما ، ويعلم كل

ما تحمله الحامل وما تضعه ، وزمن الحمل والوضع بدقة ، فإليه يردّ علم الساعة ، كما يرد إليه علم هذه الأمور.

ونظير مقدمة الآية : ﴿وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها﴾ [الأنعام ٦ / ٥٩] ونظير القسم الثاني : ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى ، وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ ، وَما تَزْدادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ. عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾ [الرعد ١٣ / ٨ ـ ٩] وقوله سبحانه : ﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ، وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ ، إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر ٣٥ / ١١].

ثم يبين الله تعالى انتهاء أسطورة الشرك ، فيقول للرد على المشركين الذين دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد والتبرؤ من عبادة الأصنام والأوثان في بدء السورة.

﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي؟ قالُوا : آذَنَّاكَ ، ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم ينادي الله سبحانه المشركين في يوم القيامة متسائلا على سبيل التهكم والتوبيخ : أين شركائي الذين كنتم تزعمون من الأصنام وغيرها ، فادعوهم الآن فليشفعوا لكم ، أو يدفعوا عنكم العذاب؟ فيجيبون : لقد أعلمناك أو أسمعناك أن ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا. ونفي الشهادة يراد به التبرؤ من الشركاء ، كما قال تعالى عنهم : ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٣].

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي ذهبت عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، من الأصنام وغيرها ، فلم تنفعهم ، وتيقنوا وعلموا ألا مهرب لهم ولا ملجأ من عذاب الله كقوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً﴾ [الكهف ١٨ / ٥٣].

وهذا وعيد وتهديد للمشركين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ استأثر الله تعالى بعلم الغيب مطلقا علما قطعيا يقينيا جازما ، فهو وحده العالم بوقت يوم القيامة ، وبزمان خروج الثمرة من أوعيتها أي تحول الزهرة إلى ثمرة ومعرفة نوعها ، وبلحظة حمل الأنثى ووضعها ، ونوع الحمل وخصائصه وصفاته.

أما علم المنجمين فهو علم محدود جدا ، ومن الحدس والتخمين والظن ، لا من باب العلم واليقين ، فإن العلم الذي هو الجزم واليقين مختص بالله تعالى ، وعلم هؤلاء قد يصادف الواقع ، والغالب أنه لا يتفق مع الواقع. وكذلك علم الأطباء بنوع الحمل أو تاريخ الوضع هو علم ظني ، وليس في دقة علم الله ، وليس شاملا شمول علم الله ، فالله هو المنفرد بعلم خصائص الحمل والمولود.

٢ ـ انتهاء أسطورة الشرك والتعلق بشفاعة الأصنام والأوثان في يوم القيامة ، ففي هذا اليوم يعلن المشركون أن الله واحد لا شريك له ، وأنّه لا أمل بنفع الشركاء وشفاعتهم ، وألا محيد ولا مهرب ولا فرار من عذاب النار.

لقد بدؤوا بنفي الشرك لما عاينوا القيامة ، وتبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم ، ثم أدركوا ألا نفع منها ، ثم تيقنوا وعلموا أنهم واقعون حتما في عذاب النار دون إمكان الفرار أو الهرب.

وهذا منسجم مع الموضوع الأساسي للسورة وهو إثبات التوحيد ، ونبذ عبادة الأصنام ، والإقرار بيوم البعث ، فقد دعا النبي ﷺ إلى ذلك كله ، كما جاء في بدء السورة : ﴿**قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ**﴾ ولكن المشركين أعرضوا عن دعوته في الدنيا ، وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ...

تبدل أحوال الإنسان وتغير أطواره

﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (٥١)﴾

الإعراب :

﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ دُعاءِ الْخَيْرِ﴾ : مضاف ومضاف إليه ، والتقدير: لا يسأم الإنسان من دعائه الله بالخير ، فحذف الفاعل والمفعول به الأول ، والياء من المفعول الثاني ، وأضاف المصدر إلى المفعول الثاني. اللام في ولئن الأولى ، ولئن الثانية ، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَ﴾ ، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ لام القسم.

البلاغة :

﴿الْخَيْرِ﴾ و ﴿الشَّرُّ﴾ بينهما طباق.

﴿وَنَأى بِجانِبِهِ﴾ مجاز عن النفس.

﴿عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارة ، استعار الغلظ لشدة العذاب.

﴿فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ استعارة ، شبه الدعاء بماله عرض متسع ، للإشعار بكثرته واستمراره.

المفردات اللغوية :

﴿لا يَسْأَمُ﴾ لا يملّ ولا يفتر ﴿مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ﴾ طلب السعة في النعمة من المال والصحة وغيرهما ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضيق من فقر وشدة ومرض ونحوها ﴿فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ من فضل الله ورحمته. واليأس : انقطاع الرجاء من حصول الخير ، والقنوط : ظهور أثر اليأس على الإنسان من الذل والانكسار ، والقنوط : من اتصف بالقنوط ، وهو كثير اليأس من روح الله.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ﴾ آتيناه ، واللام : لام القسم ﴿رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ سعة بعد شدة ، والرحمة هنا : سعة العيش والصحة ، والضراء ضيق العيش والمرض ونحوهما ﴿هذا لِي﴾ بعملي أي هذا ما أستحقه لما لي من العمل والجهد الحسنى الجنة والكرامة ﴿فَلَنُنَبِّئَنَ﴾ لنخبرن ﴿غَلِيظٍ﴾ شديد لا يمكنهم التخلص منه.

﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ﴾ جنس الإنسان ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَأى بِجانِبِهِ﴾ تكبر وانحرف وتباعد ، والجانب : مجاز عن النفس كالجنب في قوله تعالى : ﴿فِي جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٥٦]. ﴿فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير مستمر ، وهو أبلغ من الطويل ، إذ الطول قد يشمل الشيء الدقيق.

سبب النزول :

هذه الآيات نزلت في كفار ، قيل : في الوليد بن المغيرة ، وقيل : في عتبة بن ربيعة ، وكثير من المسلمين وغيرهم يتصفون بوصف أولها من دعاء الخير.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى تبدل أحوال الكفار بين الدنيا والآخرة ، الذين كانوا في الدنيا مصرّين على إثبات الشركاء والأضداد لله ، ثم تبرؤوا عن تلك الشركاء في الآخرة ، أردفه ببيان أحوال الإنسان في جميع الأوقات ، وتغير أطواره ومناهجه ، فإن جاءه خير تعاظم ، وإن تعرض لبلاء ومحنة تصاغر وذبل ، وهذا دليل الطيش ، والحرص على جمع المال ، والجهل ، وضعف الإيمان.

التفسير والبيان :

﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ أي لا يملّ الإنسان من دعاء ربه بالخير ، كالمال والصحة والسلطان والرفعة ونحوها ، وإن أصابه الشر من بلاء وشدة أو فقر أو مرض ، كان شديد اليأس من

روح الله ، بالغ القنوط من رحمة الله ، حتى يظن أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير ، أو يظن عدم زوال ما به من المكروه.

والآية تصوّر طبع الإنسان ، وإن ظهر ذلك كثيرا في الكافر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ [يوسف ١٢ / ٨٧] وقد جعل بعض المفسرين الآية خاصة بالكافر ، وقال : هذه صفة الكافر ، بدليل الآية المتقدمة : ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ ...﴾. والظاهر إرادة الجنس ، فكثير من المسلمين يصدر منهم هذا التغير والتبدل ، كما تقدم بيانه.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ، ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ ، إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ : ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود ١١ / ٩ ـ ١١].

ثم ذكر الله تعالى خصالا ثلاثا أقبح مما سبق ، فقال :

١ ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ : هذا لِي﴾ أي ولئن آتيناه خيرا بتفريج كربه من بعد شدة أصابته ، كغنى بعد فقر ، وصحة أو عافية بعد مرض ، وجاه بعد ذل ، ليقولن : هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي وجهدي وخبرتي ، متناسبا فضل الله وإحسانه ، جاهلا أن الله يبتلي عباده بالخير والشر ، ليتبين له الشاكر من الجاحد ، والصابر من الجزع. وهذا دليل على أن ذلك اليائس القانط لو عاودته النعمة ، لعاد إلى الجحود والكفر.

٢ ـ ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستقوم ، كما يخبرنا به الأنبياء ، فلا رجعة ولا حساب ولا عقاب على ذنب في الدنيا. ولأجل أنه رزق نعمة يبطر ويفخر ويكفر ، كما قال تعالى : ﴿كَلَّا ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ [العلق ٩٦ / ٦ ـ ٧].

والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين أو المنافقين المظهرين الإسلام المبطنين الكفر.

٣ . ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ أي ولئن كان ثمّ معاد على فرض صدق الأنبياء بما أخبروا به من حصول البعث والنشور ، فليحسنن إلى ربي كما أحسن إلي في هذه الدار ، والحسنى الكرامة والجنة. واللام فيها للتأكيد. والآية تدل على تيقن الكافر بوصول الثواب إليه من وجوه خمسة : الأول . كلمة إن تفيد التأكيد ، الثاني . تقديم كلمة لي يفيد التأكيد ، الثالث . قوله ﴿عِنْدَهُ﴾ يدل على أن الخيرات حاضرة مهيأة عنده ، الرابع . لام ﴿لَلْحُسْنى﴾ للتأكيد ، الخامس . ﴿لَلْحُسْنى﴾ تفيد الكمال في الحسنى.

والمعنى : لقد ظن أنه استحق خير الآخرة بما أوتيه من خير الدنيا ، وتمنى على الله عَزَّوَجَلَّ ، مع إساءته العمل وعدم اليقين ، وهذا غالب على الكافر.

فأجيب بمفاجأة نقيض ما يظن ، فقال الله تعالى مهددا من كان هذا اعتقاده : ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ أي فلنخبرن هؤلاء يوم القيامة بما عملوا من المعاصي ، ولنجازينهم بعذاب شديد كثير لا يمكنهم التخلص منه وهو عذاب جهنم.

ثم أكد الله تعالى تردد الإنسان فعلا كتردده قولا في آية ﴿لا يَسْأَمُ﴾ فقال : ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ ، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي وإذا رزقنا الإنسان . من حيث هو إنسان . رزقا حسنا ، وأمددناه بنعمة من النعم كالصحة والولد والمال ، أعرض عن الشكر والطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عَزَّوَجَلَّ ، وإذا تبدل الحال وأصيب بشر ، أي بلاء وجهد أو فقر أو مرض ، أطال السؤال والدعاء ، والتضرع إلى الله والاستغاثة به أن يكشف ما به من شدة.

وهذا دليل الانتهازية وحب المصلحة أو المنفعة ، إذ يتعرف الإنسان على الله وقت الشدة ، وينساه حال الرخاء ، ويستغيث به عند النقمة ، ويتركه عند النعمة ، وهذا يشبه تماما حال المشركين ، وهو صنيع الكافرين والمترددين في الإسلام.

ونظير الآية قوله سبحانه : ﴿**وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ ، دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ ، مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [يونس ١٠ / ١٢] وقوله عزّ وجلّ : ﴿**فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ، ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزّمر ٣٩ / ٤٩].

فقه الحياة أو الأحكام :

لقد وصف الله الإنسان بأوصاف تبين حقيقته وطبعه ، وهي :

١ ـ الطمع واليأس : فلا يمل الإنسان من طلب الخير والزيادة ، والخير هنا : المال والصحة والسلطان والعز ، وهذا دليل على حبه المال والدنيا والمادة ، وإذا أصيب بشرّ كالفقر والمرض ، يئس من روح الله ، وقنط من رحمته ، وهذا برهان على عدم الإيمان بالله والكفر به ، فاليأس والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد.

٢ ـ فساد الاعتقاد والقول : إذا عادت النعمة والعزة لليائس القنوط ، أتى بالأباطيل الموقعة في الكفر والبعد عن الله ، وهي ثلاثة أنواع :

الأول ـ ادعاؤه أحقية النعمة ، وأنها أتته بجهده وعمله ، لا بفضل الله وإحسانه.

الثاني ـ إنكاره الساعة أي يوم القيامة والبعث والنشور.

الثالث . تمني الأماني بلا عمل ، فيحسب أن له الجنة والكرامة مع سوء وضعه.

٣ . استحقاق العذاب : أقسم الله قسما غليظا لا حنث فيه أنه سيجزي الكافرين بما عملوا من المعاصي ، وأنه سيذيقهم العذاب الشديد.

٤ . سوء الأفعال : ترى الإنسان حال النعمة يترفع عن الانقياد إلى الحق ، ويتكبر على أنبياء الله ، وإذا أصيب بمكروه ، أكثر في الدعاء ، وهذا يدل على أن الكافر يعرف ربه في البلاء ، ولا يعرفه في الرخاء.

ضرورة التأمل في الآيات والأنفس :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)﴾

الإعراب :

﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ من : استفهامية في موضع رفع بالابتداء ، و ﴿أَضَلُّ﴾ : الخبر ، والجملة منهما سدّت مسدّ مفعولي ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾. وقرئ «أريتم» بحذف الهمزة الثانية للتخفيف.

﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ : في موضع رفع فاعل ﴿يَتَبَيَّنَ﴾. وهاء ﴿أَنَّهُ﴾ إما لله تعالى ، أو للقرآن ، أن للنبي ﷺ. والظاهر الثاني.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ﴾ الباء زائدة ولا تزاد في الفاعل إلّا مع كفى ، ومفعول ﴿يَكْفِ﴾ محذوف تقديره : أو لم يكفك ربّك. و ﴿أَنَّهُ﴾ إما في موضع جر على البدل من ربك على اللفظ ، أو في موضع رفع على البدل من ربك على الموضع ، أو في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، أي لأنه على كل شيء شهيد.

البلاغة :

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ فيها مجازان : مجاز استعمال رأى بمعنى أبصر في الإخبار ، لأن الرؤية طريق للعلم بالشيء ، والعلم به طريق إلى الإخبار عنه ، فاستعملت صيغة طلب الرؤية في طلب الإخبار بجامع مطلق الطلب. ومجاز استعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار.

المفردات اللغوية :

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كانَ﴾ القرآن ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ من غير نظر واتباع دليل ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي لا أحد أضل منكم أي أكثر ضلالا ممن هو في خلاف كبير بعيد عن الحق. وقد أوقع هذه الجملة : ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ﴾ موقع (منكم) لبيان حالهم ، وتوضيح مزيد ضلالهم. والمعنى : إذا كفرتم بالقرآن فليس هناك في الدنيا أكثر ضلالا منكم يا قريش بسبب مخالفتكم الشديدة المغرقة في البعد عن الحق.

﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ﴾ سنطلعهم على عظمة آياتنا وصدقها في أقطار السماء والأرض ، وسيتبين لهم في المستقبل واقع ما أخبرناهم بهم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية ، وما يحققه المسلمون من فتوحات في أرجاء الدنيا على وجه خارق للعادة. و ﴿الْآفاقِ﴾ نواحي الأرض والسموات ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من إبداع الصنع وعظمة التركيب وما حل بأهل مكة ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ حتى يظهر لهم أن القرآن هو الحق الثابت المنزّل من الله المشتمل على نظام الدنيا الأصلح ، ومعرفة حقائق الآخرة من البعث والحساب والعقاب ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أولم تحصل الكفاية بربك ، أو أو لم يكفهم في أنه حق وفي صدقك أن ربك على كل شيء شهيد ، أي لا يغيب عنه شيء ما. والمعنى : إن هذا الموعود به من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه ، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل من المطّلع المهيمن على كل شيء ، حاضره وغائبه ، فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عند الله. وقوله : ﴿شَهِيدٌ﴾ أي شاهد على كل ما يفعله الخلق.

﴿مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي من البعث بعد الموت ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ أي إنه تعالى عالم بكل الأشياء مجملها وتفصيلها ، وعالم بمقدارها ، فيجازيهم بكفرهم.

المناسبة :

بعد بيان وعيد المشركين ، على الشرك ، ورجوعهم عنه في يوم القيامة ، وإظهار تبدل أحوال الإنسان ، بالتعاظم عند القوة ، والتصاغر والذل عند الضعف ، أوجب الله تعالى التأمل والتفكر في آيات الله وفي الأنفس ، ليعلموا أن القرآن حق منزّل من عند الله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : أخبروني عن حالكم ما ذا أنتم فاعلون ، إن كان هذا القرآن من عند الله حقا ، ثم كذبتم به ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه ، أفلا تكونون أعداء للحق والصواب؟ بل لا أحد أضلّ منكم لشدة عداوتكم ، وإمعانكم في الكفر والعناد ومجانبة الحق ومخالفته.

ثم دعاهم إلى التأمل والتفكر في الآيات والأنفس ، فقال :

﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ﴾ أي سنظهر لهم دلالات صدق القرآن ، وعلامات كونه من عند الله في أقطار السموات والأرض المشتملة على خلق الشمس والقمر والنجوم ، وتعاقب الليل والنهار ، وأحداث الكون الرهيبة من الأعاصير والبراكين والصواعق ، وعظمة الجبال والبحار ، وإبداع صنع النباتات والأشجار ، وما يحدث في الأرض من فتوحات كبري على أيدي المسلمين في أرجاء الأرض المحيطة بمكة والجزيرة العربية. وهذا الإخبار عن الغيب معجزة.

وسنظهر صدق القرآن وأنه منزل من عند الله أيضا في خلق أنفس البشر ، وما فيها من إبداع الصنعة ، وعظمة التركيب : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾

[الذاريات ٥١ / ٢١] ، وفي مصائر الناس وتبدل أحوال أهل مكة العتاة من سادة متكبرين إلى أذلة صاغرين.

كل ذلك ليعرفوا من هذه الوقائع والأحداث والخلائق ويتبينوا بجلاء أن القرآن ومنزله ومن أنزل عليه حق وصدق لا شك فيه.

وإذا لم ينظروا ويتأملوا ، فتكفي شهادة الله بأن القرآن حق ، فقال تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي كفى بالله شاهدا على أفعال عباده وأقوالهم ، من الكفار وغيرهم ، وكفى به شاهدا على أن القرآن منزل من عنده.

ثم أوضح الله تعالى سبب عنادهم وإصرارهم على كفرهم ، فقال :

﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ ، أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾. ألا أيها المخاطب ، إن كفار قريش وأمثالهم في شك من البعث والحساب والثواب والعقاب ، ألا أيها الإنسان ، إن الله قد أحاط علمه بجميع المعلومات ، وأحاطت قدرته بجميع المقدورات ، فهو محيط بكل شيء علما وقدرة ، والمخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته ، وفي مرصد علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمة ، وسيجازي الكفار وغيرهم على أعمالهم ، فما لهم يشكون في البعث والنشور ، وقد علموا أن الله خلقهم أول مرة؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ بما أن القرآن نزل بلغة العرب ، وهم أدرى الناس به وبصحته ، فلا أحد أضل منهم في الإعراض عنه ، لفرط الشقاق والعداوة.

٢ ـ أقام الله تعالى أدلة وعلامات كثيرة على وحدانيته وقدرته ، منها آيات الآفاق والأنفس ، وآيات الآفاق : هي الآيات الفلكية والكوكبية ، وآيات الليل والنهار ، وآيات الأضواء والظلمات ، وآيات عالم العناصر الأربعة (الماء والتراب والهواء والنار) وكذا فتح البلاد المحيطة بمكة.

وآيات الأنفس : كيفية تكون الأجنة في ظلمات الأرحام ، وتخلق الأعضاء العجيبة ، والتركيبات والخواص الغريبة ، وكذا فتح مقر الشرك مكة.

فإبداع الكون سمائه وأرضه ، وإبداع خلق الإنسان وما يطرأ على البلاد من تغيرات الفتوح والممالك والسلاطين ، وعلى الناس من تبدل من عزة إلى ذلة وبالعكس ، دليل على وجود الله المتصرف في مخلوقاته ، المهيمن على عباده ، المدبر لكل شيء يحدث في الوجود.

٣ ـ كفى بالله شاهدا على أنه خلق الدلائل على الأشياء ، وعلى أفعال وأقوال عباده ، وكفى به شاهدا على أن القرآن من عند الله ، كما قال تعالى : ﴿**قُلْ : أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً؟ قُلِ : اللهُ**﴾ [الأنعام ٦ / ١٩] وقال سبحانه : ﴿**لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ [النساء ٤ / ١٦٦].

والمقصود : ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وغيرها من سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة؟!

٤ ـ إن مشركي مكة وأمثالهم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة ، ولكن الله تعالى عالم بكل شيء ، فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم ، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

والخلاصة : أن سبب الكفر والشرك هو إنكار يوم القيامة ، وحجب الأنظار عن التأمل في آيات الكون والأنفس ، ولكن الزمن كفيل ببيان صدق الآيات ، وأن الكفار مخطئون فيما اعتقدوا.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

مكيّة ، وهي ثلاث وخمسون آية.

تسميّتها :

سميت (سورة الشورى) لوصف المؤمنين فيها بالتشاور في أمورهم : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ [٣٨] ولأن الشورى في الإسلام قاعدة النظام السياسي والاجتماعي بل والخاص في الحياة ، لما لها من مكانة ، وأهمية بالغة في تحقيق المصلحة والغاية الناجحة ، ولأن الاستبداد يؤدي دائما إلى أوخم العواقب :

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به* على الدوام ورأي الفرد يشقيها [١]

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها فيما يلي :

١ ـ وصف الكتاب العزيز ، وتأكيد نزول الوحي به على قلب النبي ﷺ ، وإثبات الساعة (يوم القيامة).

٢ ـ مناقشة عقائد الكفار وتهديدهم ووعيدهم ، وإثبات وجود الله ووحدانيته وحكمته وقدرته بالأدلة الكونية المشاهدة ، وبالمخلوقات الأرضية الصناعية وغيرها.

---

(١) للشاعر المرحوم حافظ إبراهيم.

٣ ـ ترغيب المؤمنين بالاستقامة المؤدية إلى الجنة ونعيمها ، وتحذير الكافرين من الانحراف أو الإعراض عن هداية الله المؤدي إلى النار وأهوالها.

٤ ـ تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه ومطاعنهم.

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية مختص بالعقيدة القائمة على الإيمان بوحدانية الله ، وصحة الرسالة النبوية ، والتصديق بالبعث والجزاء ، ومحورها الأساسي الكلام عن ظاهرة الوحي.

لذا ابتدأت بالحديث عن الوحي الذي أنزله الله على جميع الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته إلى الناس.

ثم عرضت لما لله من هيبة وجلال تكاد السموات تتفطر منهما ، وأن الملائكة تستغرق في تسبيحه وتمجيده ، وأنه الرقيب على أعمال المشركين ، ثم انتقلت إلى بيان كون القرآن عربيا ، وأن الإيمان بالله اختياري لا قسري.

ثم أبانت أسباب الاختلاف في الأمة المسلمة وطريق علاجها بتحكيم كتاب الله ، وأوضحت ضرورة اختلاف الشرائع الإلهية الموحى بها في الجزئيات حسبما يتفق مع مصلحة البشر ، مع اتفاقها في الأصول الاعتقادية والإصلاحية والعبادات ، ثم نددت بالمختلفين في الأديان وجعلت خلافهم بغيا وعدوانا وظلما ، فالدين واحد في أصله ، ورسالات الأنبياء تكمل بعضها بعضا ، وبينها قدر مشترك هو الإسلام ، أي الانقياد والخضوع لله عزّ وجلّ : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ...﴾ الآية [١٣].

ثم فنّدت حجة المنكرين لرسالة النبي محمد ﷺ بعد أن تبين صدقها وصحتها ، وهددت باقتراب الساعة التي يستعجل بها المشركون ويشفق منها

المؤمنون ، وقرنت التفنيد والتهديد بتهويل العذاب الشديد المنتظر يوم القيامة ، وبوصف نعيم الجنان وروضاتها لتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

وتحدثت عن مبدأين ضروريّي المعرفة لكل إنسان في الدنيا : وهما أن الرزق بيد الله ينزله بحسب المصلحة ، وأن العامل للدنيا وحدها يحرم خير الآخرة ، والعامل للآخرة يمنح خير الدنيا معها.

ثم أقامت الأدلة على وجود الله من خلق السموات والأرض وما فيهما والتصرف بهما والقدرة عليهما ، وإجراء السفن في البحار ، فكل ذلك أثر صنع الله.

وأعقبت ذلك بالإشادة بمن يعمل للآخرة ، ويجتنب الفواحش ، ويعفو عند المقدرة ، ويستحب لربه ، ويقيم الصلاة ، ويستشير أهل الخبرة والمعرفة ، وينتصر من أهل البغي والعدوان ، ويؤثّر العفو والصفح والصلح ، ويقتصر على الجزاء بالمثل ، ويصبر في المحنة.

وأردفت ذلك ببيان أهوال النار وخسارة أهلها ، وفقدانها النصر ، وتمنيهم العودة إلى الدنيا حين رؤية العذاب ، وهم أذلة صاغرون. وناسب هذا دعوة الناس جميعا إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد لحكمه وشرعه قبل المفاجأة بيوم القيامة الذي لا شك فيه ولا مرد له : ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ ...﴾ [٤٧].

والاستجابة تكون تلقائية اختيارية لا قهر فيها ، وما على الرسول إلا البلاغ.

ثم ختمت السورة أولا بتأكيد كون ملك السموات والأرض لله ، يهب الأولاد أو لا يهب بحسب المشيئة ، وثانيا ببيان أقسام الوحي ، وعظمة القرآن خاتم

الكتب السماوية ، والذي هو نور الله الهادي إلى صراط مستقيم ، ليتناسق الختام مع مطلق السورة بالحديث عن هذا الكتاب العزيز : ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ [٥٢].

إنزال الوحي وعظمة الله ورقابته أحوال المشركين

﴿حم (١) عسق (٢) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦)﴾

الإعراب :

﴿كَذلِكَ يُوحِي ... اللهُ كَذلِكَ﴾ : الكاف بمعنى المثل ، و ﴿كَذلِكَ﴾ مفعول مطلق ل ﴿يُوحِي﴾ و ﴿اللهُ﴾ : فاعل ﴿يُوحِي﴾. ومن قرأ «يوحى» كان لفظ الجلالة ﴿اللهُ﴾ إما مرفوع بفعل مقدر دل عليه «يوحى» كرفع كلمة ﴿رِجالٌ﴾ في قراءة من يقرأ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ رِجالٌ﴾ [النور ٢٤ / ٣٦ ـ ٣٧] بفعل مقدر ، أي يسبحه رجال ، وإما مرفوع بالابتداء ، ويكون ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ خبرين عن الله تعالى ، ويجوز جعلهما وصفين ، و ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ﴾ الخبر ، وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هو الله.

﴿أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ توالي المؤكدات وهي ألا ، وإن ، وضمير الفصل.

البلاغة :

﴿أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ توالي المؤكدات وهي : ألا ، وإن ، وضمير الفصل.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .. الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .. بِوَكِيلٍ﴾ صيغ مبالغة ، وسجع لطيف.

﴿كَذلِكَ يُوحِي﴾ استعمل الفعل المضارع في حقيقته بالنسبة لما ينزل من القرآن ، وفي مجازه بالنسبة لما أنزل من الكتب السابقة وما أنزل من القرآن. وهذا تشبيه للمشبه ، والمشبه به هذه السورة.

المفردات اللغوية :

﴿حم عسق﴾ تقرأ هكذا بأسمائها : حا ، ميم ، عين ، سين ، قاف بإدغام السين في القاف ، وقد انفردت هذه السورة بآيتين من الحروف ، لعلهما اسمان للسورة. وهذه الحروف المقطعة كما تقدم للتنبيه على إعجاز القرآن ، ولفت النظر إلى ما تشتمل عليه السورة من عظائم الأمور ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء إلى الأنبياء السابقين من الكتب الإلهية ﴿يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء إلى الأنبياء السابقين من الكتب الإلهية يوحي الله إليك أيها الرسول ، كما أوحي إلى من قبلك الأنبياء. وإنما ذكر الإيحاء بلفظ المضارع : ﴿يُوحِي﴾ لحكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي ، وكون إيحاء مثله عادة الله. ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي القوي الغالب في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه ، وهما صفتان.

﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المتعالي فوق خلقه ﴿الْعَظِيمُ﴾ المتفرد بالكبرياء والعظمة ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن والفطور : الشقوق ، وقرئ «ينفطرن» وقرئ «يتفطّرنّ». ﴿مِنْ فَوْقِهِنَ﴾ أي تكاد السموات يتشققن من هيبة وعظمة الله وجلاله ، الذي هو فوقهن بالألوهية والقدرة ، أو يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية بسبب وجود العرش والكرسي وصفوف الملائكة ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة يلازمون ويداومون خضوعا لعظمة الله على عبادته وتنزيهه عما لا يليق به ، وتحميده وشكره على نعمه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي للمؤمنين فهي عموم يراد به الخصوص ، بدليل آية أخرى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المؤمن ٤٠ / ٧] وحكايته عنهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [المؤمن ٤٠ / ٧] ﴿أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لأوليائه المؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾ شركاء وأندادا وهم الأصنام ﴿حَفِيظٌ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، محص لها ، فيجازيهم عليها ﴿وَما أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بموكل بهم تحصل المطلوب منهم وهو هدايتهم ، فما عليك إلا البلاغ فقط.

التفسير والبيان :

﴿حم ، عسق﴾ هذه الحروف الهجائية السبعة المفصولة بمقطعين أو آيتين مما اختصت به هذه السورة ، والمعروف ألا يفصل بين هذه الحروف ، مثل

﴿كهيعص﴾ أول مريم و ﴿المر﴾ أول الرعد ، بدئ بها للدلالة على تكوين القرآن من أجزاء أمثال هذه الحروف التي تتركب منها لغة العرب بقصد الإعجاز والتنبيه إلى خطورة ما فيها من أمور.

﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مثل ذلك الإحياء الذي أوحي إلى سائر الأنبياء من كتب الله المنزلة ، يوحي إليك أيها الرسول في هذه السورة ، من الدعوة إلى التوحيد وإثبات النبوة ، والإيمان بالبعث أو اليوم الآخر والثواب والعقاب ، والعمل بفضائل الأخلاق ، والبعد عن رذائلها ، وإسعاد الفرد والمجتمع ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى﴾ [الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩] وهو إشارة إلى ما تضمنته السورة من إقرار مبدأ التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، فليس الهدف من إنزال جميع الكتب الإلهية إلا الإيمان بهذه الأمور الثلاثة.

والذي يوحي إليك هو الله ، العزيز في ملكه ، الغالب بقهره ، الحكيم في صنعه ، يضع الأمور في موضعها الصحيح.

والمقصود بالآية تقرير المماثلة في دعوات الأنبياء إلى التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، والترغيب في التوجه إلى الآخرة.

ومن أوصاف الموحي أيضا ما قاله تعالى :

﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي له جميع ما في السموات والأرض ملكا وخلقا وعبيدا ، فهي مملوكة له ، مخلوقة منه ، متصرف فيها كما يشاء إيجادا وإعداما ، وهو المتعالي فوق خلقه ، صاحب الكبرياء والعظمة ، ليس كمثله شيء ، فليس المراد العلو في الجهة والمكان ، ولا عظمة الجثة وكبر الجسم ، لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفا من الأجزاء والأبعاض ، وذلك ينافي قوله : ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١١٢ / ١].

والمقصود بالآية الدلالة على كمال قدرة الله ، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته.

﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ﴾ أي تقارب السموات يتشققن من عظمة وجلال وهيبة من هو فوقها بالألوهية والقهر والقدرة ، وهذا هو الظاهر ، والأدق أن يقال : من الجهة الفوقانية التي هن فيها.

ويحتمل أن المراد : يتفطرن لكثرة ما عليهن من الملائكة ، كما في حديث أحمد والترمذي : «أطّت السماء ، وحقّ لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راكع أو ساجد». وقيل : إن المراد : كدن يتفطرن من قول المشركين : اتخذ الله ولدا ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾[1] ، ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً﴾ [مريم ١٩ / ٨٨ ـ ٩١].

﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة يداومون على تنزيه الله عما لا يليق به ولا يجوز عليه ، قارنين التسبيح بالتحميد وشكر النعم التي لا تحصى ، كقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٠].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي ويطلبون المغفرة لعباد الله المؤمنين ، ثم أورد الله تعالى ما يكون طمعا في إيمان الكافر وتوبة الفاسق ، فذكر أنه سبحانه كثير المغفرة والرحمة ، وفيه إيماء إلى قبول استغفار الملائكة ، لضم الرحمة إلى المغفرة ، وإشارة إلى أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة لله تعالى. قال بعض العلماء : هيّب وعظّم جل وعز في الابتداء ، وألطف وبشّر في الانتهاء [2].

---

(١) إدّا : أي منكرا فظيعا.

(٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ٥.

ونظير الآية : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ [المؤمن ٤٠ / ٧].

ثم حذر الله تعالى من الشرك قائلا :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي إن المشركين الذين اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله ، الله هو الرقيب على أحوالهم وأعمالهم ، يحفظها ويحصيها عليهم ليجازيهم بها ، وما أنت أيها الرسول بموكل إليك هدايتهم ومؤاخذتهم بذنوبهم ، ولست مكلفا بحملهم وقسرهم على الإيمان ، وإنما عليك البلاغ فحسب.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ هناك مماثلة تامة في أصول العقيدة والأخلاق والفضائل بين رسالات الأنبياء ، فالموحى به إليهم واحد يدور حول إثبات التوحيد والنبوة والمعاد.

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة تبيان أنواع الوحي ، أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يأتيني الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها : فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ﷺ ليتفصّد عرقا.

٢ ـ لله ملك السموات والأرض ومن فيهما ، فهو كامل القدرة ، نافذ التصرف في جميع مخلوقاته ، وقد اشتملت الآيات على ثمان صفات لله تعالى وهي :

العزيز ، الحكيم ، مالك السموات والأرض ومن فيهما ، العلي ، العظيم ، الغفور ، الرحيم ، الحفيظ.

٣ ـ تكاد السموات يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن.

٤ ـ تلازم الملائكة التسبيح (أي تنزيه الله عما لا يجوز في وصفه وما لا يليق بجلاله) والتحميد ، خضوعا لما يرون من عظمة الله ، ويستغفرون للمؤمنين من الذنوب والخطايا ، والله سبحانه له المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة.

٥ ـ الله هو الذي يحفظ أعمال المشركين الذين اتخذوا أصناما من غير الله يعبدونها ، ليجازيهم بها ، وليس النبي ﷺ بموكل على أحد في هدايته وقسره على الإيمان ، وإنما الإيمان أمر اختياري ، والرسول مجرد مبلّغ ناصح ، وليس في قدرته أن يحملهم على الإيمان.

مقاصد الوحي الإلهي

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)﴾

الإعراب :

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ الكاف في ﴿كَذلِكَ﴾ مفعول به ، و ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ : حال منه.

﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ذلِكُمُ﴾ : في موضع رفع مبتدأ ، و ﴿اللهِ﴾: عطف بيان ، و ﴿رَبِّي﴾ : صفة لله ، وخبر المبتدأ : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

و ﴿فاطِرُ السَّماواتِ ...﴾ مرفوع إما خبر بعد خبر ، أو صفة ، أو بدل ، أو خبر مبتدأ محذوف أي : هو فاطر السموات والأرض ، أي مبدعهما.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الكاف : إما زائدة ، أي ليس مثله شيء ، أو غير زائدة والمراد بالمثل الذات ، يقال : مثلي لا يفعل هذا ، أي أنا لا أفعل هذا.

البلاغة :

﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى﴾ مجاز مرسل ، أي لتنذر أهل مكة. وكما حذف كلمة «أهل» حذف المنذر به وهو العذاب ، أي لتنذر أهل مكة العذاب ، وهذا يقال له (احتباك) وهو حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر.

﴿الْجَنَّةِ﴾ و ﴿السَّعِيرِ﴾ ، ﴿يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَكَذلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء ، فالإشارة إلى مصدر يوحي أو إلى معنى الآية المتقدمة ﴿لِتُنْذِرَ﴾ تخوف به ﴿أُمَّ الْقُرى﴾ أي أهل أم القرى وهي مكة ، كأنها أصل للقرى التي حولها ، وقد ثبت علميا أنها فعلا في مركز قطب الدائرة الأرضية ﴿وَمَنْ حَوْلَها﴾ من العرب وسائر الناس ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة الذي تجتمع فيه الخلائق ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه وهو جملة اعتراضية ﴿فَرِيقٌ﴾ منهم أي جماعة ﴿فِي الْجَنَّةِ ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي النار المستعرة ، أي بعد جمعهم في الموقف يفرقون فريقين.

﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾ على دين واحد إما مهتدين أو ضالين ﴿وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي بالهداية والتوفيق إلى الطاعة ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ أي لا يدعمهم

ولي يتولى أمورهم ، ولا نصير يدفع عنهم العذاب. وتغيير الجملة من فعلية إلى اسمية ، للمبالغة في الوعيد.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذوا ، أي أن ﴿أَمِ﴾ منقطعة بمعنى «بل» للانتقال من كلام إلى كلام أو من معنى إلى معنى ، والهمزة : استفهامية يراد بها الإنكار ، أي ليس المتخذون أولياء ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي الأصنام ونحوها و ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ نصراء أعوان ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي المعين الناصر للمؤمنين ، وهذا جواب شرط محذوف مثل : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولي بالحق ، لاولي سواه ﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقا بالولاية.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما اختلفتم أنتم والكفار في أمر من أمور الدين أو الدنيا ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ أي حكمه مردود إلى الله يوم القيامة ، يفصل بينكم بالإثابة والمعاقبة ، أو مفوض إلى الله يميز الحق من المبطل بالنصر في الدنيا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوضت في مجامع الأمور ، ورد كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في المشكلات وفي كفاية شرهم.

﴿فَاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما لا على مثال سبق ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْواجاً﴾ نساء ﴿وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجا ، واقتصر على الأنعام للتغليب على سائر الحيوانات ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يكثركم ، يقال : ذرأ الله الخلق : كثرهم ، و ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير وهو جعل الأزواج للناس والأنعام ، وضمير ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ راجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه العقلاء.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الكاف زائدة ، أي ليس مثله شيء في ذاته وصفاته ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يسمع ويبصر ، أو يقال ويفعل.

﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ﴾ مفاتيح خزائنها من المطر والنبات وغيرهما ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ يوسعه لمن يريد امتحانا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يريد ابتلاء.

المناسبة :

بعد بيان كون الله هو الرقيب على أحوال المشركين وأعمالهم ، ذكر الله تعالى توجيهات لنبيه والمؤمنين ، وهي إنزال القران بلغة العرب ليفهمه أهل مكة ومن حولها ، وقسمة الناس في الآخرة فريقين : فريق في الجنة وفريق في السعير ، وجعل الإيمان اختياريا غير قسري ولا جبري ، ورد المختلف فيه إلى الله ،

والاستدلال على قدرته بخلق السموات والأرض ، وتصرفه فيهما وانفراده بملك خزائنهما ، وخلق الأزواج ذكورا وإناثا من الناس والأنعام وغيرها.

التفسير والبيان :

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾ أي ومثل ذلك الإيحاء إلى الأنبياء السابقين بلغات أقوامهم ، أوحينا إليك قرآنا عربيا ، لتخوف به من عذاب الله وشؤون الدنيا والآخرة أهل مكة (أم القرى) ومن حولها من العرب وسائر الناس ، لأن رسالتك عامة للبشرية قاطبة ، كما قال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ، بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٨]. وإنما خص أهل مكة ومن حولها ، فلأنهم المخاطبون بالرسالة أولا ليكونوا حملتها إلى الناس جميعا.

وأما تأييد الآية في تنوع الرسالات على وفق لغات الأقوام والأمم ، فهو قوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤].

﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي وتنذر به أيضا يوم القيامة الذي تجتمع الخلائق فيه ، وتقترن الأرواح بالأجساد ، والذي لا شك في وقوعه ، ثم إنهم بعد الجمع والحساب يفرّقون فريقين : فريق يدخل الجنة لإيمانه بالله ورسوله وكتابه ، والإحسان عمله في الدنيا ، وفريق آخر يزجّ به في نار جهنم المسعرة على أهلها ، لكفرهم بالله ورسوله وقرآنه.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ، ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ﴾ [التغابن ٦٤ / ٩] أي يغبن في الكافر بتركه الإيمان ، والمؤمن بتقصيره في الإحسان وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ، ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ

النَّاسُ ، وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ، وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ، يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود ١١ / ١٠٣ ـ ١٠٥].

ثم أبان الله تعالى مبدأ حرية الإيمان لتسلية رسوله عما يقاسي من كفر قومه ، فقال :

﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ أي لو أراد الله لجعل الناس جميعا أهل دين واحد ، إما على هدى ، وإما على ضلالة ، ولكن اختلفوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية ، وبمقتضى العلم الأزلي بما يختاره الإنسان ، فيكون إما مؤمنا وإما كافرا ، والله تعالى حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ، فمن علم منه اختيار الهدى والدين الحق وهو الإسلام ، هداه ووفقه إليه ، فيدخله بذلك في جنته ، ومن علم منه اختيار الضلال والكفر ، أضلّه ، فيدخله بذلك في السعير ، وهؤلاء هم الظالمون الكافرون المشركون الذين ليس لهم ولي يدفع عنهم العذاب ، ولا نصير ينصرهم يوم الحساب والعقاب.

وهذه الآية تقرير للآية السابقة : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي ليس في قدرته حملهم على الإيمان ، وإنما القادر على ذلك هو الله تعالى.

والآية أيضا تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يكابده ويعانيه من كفر قومه وإعراضهم عن دعوته ، وكأنه تعالى يقول له : لا تأس ولا تحزن على عدم إيمانهم ، فالهداية والضلالة تابعتان للمشيئة الإلهية ، فمن سبقت له السعادة فهو السعيد ، ومن سبقت له الشقاوة فهو الشقي. ويكون موضوع الآية مثل آية : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [الكهف ١٨ / ٦].

لهذا أمر الله نبيه بعدم الاهتمام بهم بسبب وثنيتهم وشركهم ، فقال :

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ ، وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بل اتخذ هؤلاء الكافرون آلهة يعبدونها من دون الله ، من الأصنام والأوثان ، زاعمين أنهم أعوان لهم ونصراء ، فإن أرادوا وليا ناصرا بحق ، فالله هو الولي الحقيق بأن يتخذوه معينا وناصرا ، لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، فإنه الخالق الرازق الضار النافع الناصر لمن أراد ، وهو القادر على إحياء الموتى ، وهو قدير بالغ القدرة على كل شيء مقدور.

أما الأصنام وكل من عدا الله فلا تملك في الحقيقة نفعا ولا ضرا ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً ، لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٣].

ثم بعد هذا النبذ للكفار ، نهى الله تعالى عن منازعتهم في الدين ، فقال :

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ، فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ أي مهما اختلفتم في شيء من جميع أمور الدين والدنيا ، فإن حكمه ومرجعه إلى الله ، فهو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ في الدنيا ، وسوف يفصل فيه يوم القيامة بحكمه ، فيظهر المحق من المبطل. والمقصود أن المؤمنين ممنوعون من الشروع مع الكفار في الخصومات والمنازعات ، كما منع الرسول ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان قهرا.

والآية مثل قوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء ٤ / ٥٩].

ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم :

﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي ذلكم الحاكم بهذا الحكم هو الله ربي ، عليه وحده اعتمدت في جميع أموري ، لا على غيره ، وفوضته في كل شؤوني ، وأرجع إليه تائبا من الذنوب ، لا إلى غيره.

وهذا تعريف لهم بمصدر الخير الحقيقي ودفع الضرر ، لا أصنامهم الجمادات.

وأسباب ذلك قدرته الخارقة ، فقال تعالى :

١ . ﴿فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما من العدم ، لا على مثال سبق ، فهو الجدير بالعبادة.

٢ . ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً ، وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي أوجد وخلق لكم من جنسكم نساء لتسكنوا إليها ، ويحدث التكاثر والتوالد ، ويستمر بقاء النوع الإنساني ، وخلق أيضا للأنعام من جنسها إناثا ، حتى تتكاثر موارد المعيشة لبني الإنسان. أو خلق من الأنعام أصنافا من الذكور والإناث ، لذا قال : ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يبثكم ويكثركم به أي بجعل الأزواج سبيلا للتكاثر. وقوله : ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا التدبير ، وهو جعل الأزواج من الناس والأنعام ، فكأن هذا الجعل منبع التكاثر ومصدره.

٣ . ٤ . ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي ليس مثل الله شيء في ذاته وصفاته وحكمته وقدرته وعلمه ، ومن حكمته التكاثر بالتزاوج ، وهو السميع لكل الأصوات ، البصير بالأمور ، يسمع ويبصر الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، ظاهرها وخفيها. وهذه الآية حجة في نفي كونه تعالى جسما مركبا من الأعضاء والأجزاء ، وحاصلا في المكان والجهة ، إذ لو كان جسما لكان مماثلا لسائر الأجسام.

والآية أيضا حجة في نفي المثل لله تعالى.

أما قوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى﴾ [الروم ٣٠ / ٢٧] ، فلا يعني إثبات المثل ، لأن المراد بالمثل : هو الذي يكون مساويا للشيء في تمام الحقيقة والماهية ، والمثل : هو الذي يكون مساويا للشيء في بعض الصفات الخارجة عن

الماهية ، وإن كان مخالفا في الماهية [١].

٥ . ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي له سبحانه خزائن السموات والأرض أو مفاتيحهما ، يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه ، ويضيقه على من يشاء ، وإنه تعالى عليم بكل شيء يحدث في الوجود ، من إغناء وإفقار ، وآثار ذلك على النفس والمجتمع ، لا يريد بذلك إلا إجراء الحكمة والمصلحة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الحقائق التالية :

١ ـ القرآن الكريم كما هو واضح عربي مبين ، أوحى الله به إلى نبيه ﷺ.

٢ ـ غاية القرآن الإنذار والتبشير ، إنذار الكفار بالنار ، وتبشير المؤمنين بالجنة. ويشمل الإنذار أيضا مخاوف وأهوال يوم القيامة الذي لا شكّ في وقوعه ، فهو كائن لا محالة ، ولكن بعلم الله ، وما أقرب حدوث القيامة إن نشبت حرب ذريّة عالمية ، فالذّرة كفيلة بالقضاء على الأخضر واليابس.

٣ ـ الناس يوم القيامة فريقان : فريق الجنة ، وفريق النار ، ولا ثالث لهما.

٤ ـ إن مكة المكرمة هي أم القرى وعاصمة المدن ، وأشرف سائر البلاد ، وهي كما أثبت العلماء الحديثون في مركز قطب الدائرة للكرة الأرضية ، وكانت أحبّ البلاد إلى قلب النّبي ﷺ. أخرج الإمام أحمد والتّرمذي والنّسائي وابن ماجه عن عبد الله بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ وهو واقف

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٥٣.

بالحزورة في سوق مكة ـ : «والله إنك لخير أرض الله ، وأحبّ أرض الله إلى الله ، ولو لا أني أخرجت منك ما خرجت».

٥ ـ الله قادر على جعل الناس على دين واحد وملّة واحدة ، أهل ضلالة أو أهل هدى ، ولكن يدعهم وشأنهم في اختيار أي المنهجين شاؤوا ، فأهل الهداية في الجنة ، وأهل الضلالة في النار ، وليس لهم ناصر ولا معين يدفع عنهم العذاب.

٦ ـ لقد استحبّ المشركون الكفر على الهدى ، واتّخذوا الأصنام معبودات وآلهة لهم من دون الله ، ولكنهم خابوا وخسروا وأخطئوا ، فالله هو المعبود بحقّ ، لأنّه الناصر الولي الذي لا ولي سواه ، وهو القادر على البعث ، والقادر على كلّ شيء ، وغيره عاجز لا يقدر على شيء ، وليس محمد ﷺ عليهم رقيبا ولا حافظا ولا مكلفا بأن يحملهم على الإيمان شاؤوا أم أبوا.

٧ ـ لا داعي للاختلاف والتنازع بين أهل الأديان ، لأن ذلك يورث العداوة ، ويزرع الأحقاد ، ويجعل الحكم إلى السلاح ، وما على المؤمنين إلا أن يقولوا لمن خالفهم من أهل الكتاب والمشركين : الحكم إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدّين هو الإسلام لا غيره ، والشرائع إنما تتلقّى من بيان الله ، ومرجع الحكم وإزالة الخلاف : القرآن والسّنة.

وقد أمر النّبي ﷺ أن يقول لقومه : ذلكم الله الذي يحيي الموتى ، ويحكم بين المختلفين هو ربّي ، عليه اعتمدت ، وإليه أرجع ، لا إلى غيره من المعبودات الأخرى.

٨ ـ احتجّ نفاة القياس بالآية : ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ**﴾ أي إلى النص من قرآن أو سنّة. والجواب : المراد من الآية : الرّدّ إلى بيان الله ، سواء كان البيان بالنّص أو بالقياس ، والقياس في معنى المنصوص عليه.

٩ ـ استدلّ الله تعالى على قدرته الفائقة بأنه خالق السموات والأرض من العدم ، وخالق الزوجين الذكر والأنثى من الناس والأنعام ، وأنه ليس مثله شيء في ذاته وصفاته من عظمته وكبريائه وقدرته وملكوته ، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشبّه به ، وهو الذي يملك مفاتيح السموات والأرض ويملك الخزائن ، وهو الرّازق الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، وهو بكلّ شيء عليم. وفي الجملة : هو الموصوف بكل كمال ، المنزّه عن كل نقصان ، الخالق لكل المخلوقات ، المتصرّف في هذا الكون كله.

والمقصود من إيراد هذه الصفات بيان أن الأصنام لا تتصف بشيء منها ، فلا تكون أهلا للعبادة.

وحدة الأديان في أصولها

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ منصوب على البدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ أو مرفوع على الاستئناف ، كأنه جواب سؤال تقديره : وما ذلك المشروع؟ أو مجرور على البدل من هاء ﴿بِهِ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ أوضح وبيّن وسنّ الشريعة. ﴿ما وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ أي ما أمر به نوحا. ونوح : أول أنبياء الشريعة ، واستعمل ﴿وَصَّى﴾ بمعنى (أمر) للاعتناء بشأن المأمور به وتأكيده ،

أي شرع لكم من الدّين دين نوح ومحمد ومن بينهما عليهم السلام من أرباب الشرع ، وهو الأصل المشترك فيما بينهم ، المفسّر بقوله : ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي حافظوا عليه ، والدّين : هو التوحيد والإيمان بما يجب تصديقه ، والطاعة في أحكام الله أي توحيد الله وطاعته ، وهو الإسلام بالمعنى العام. ﴿وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل ، أما فروع الشرع فيمكن أن تختلف ، كما قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ [المائدة ٥ / ٤٨].

﴿كَبُرَ﴾ عظم وشقّ عليهم. ﴿ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ يصطفي ويختار ، وضمير إليه عائد على ما تدعوهم إليه ، أو على الدّين. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق. ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ يقبل ويرجع إلى طاعته.

﴿وَما تَفَرَّقُوا﴾ أي أهل الأديان في الدّين ، بأن وحّد بعض ، وكفر بعض. ﴿الْعِلْمُ﴾ اليقين بالتوحيد أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها. ﴿بَغْياً﴾ أي ظلما وتجاوزا للحدّ من الكافرين. ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإمهال وتأخير الجزاء. ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بتعذيب الكافرين المبطلين في الدنيا ، حين افترقوا. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين كانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ لفي حيرة من أمرهم وكتابهم الذي لم يؤمنوا بحقيقته. ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق موقع في الرّيبة ، شديد الرّيب والشكّ.

المناسبة :

بعد أن عظّم الله تعالى وحيه إلى نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ ...﴾ وبعد أن عدّد تعالى نعمه على الناس ، فصّل أمر الوحي ، وذكر نعمته العامة وهو ما شرع لهم من العقيدة المتفق عليها من توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وبكتبه وباليوم الآخر والجزاء فيه ، وذكر أن المشركين يشقّ عليهم دعوتهم إلى التوحيد وترك الأوثان ، وأنهم ما اختلفوا إلا بعد قيام الحجة عليهم ، وهم متأثرون ببواعث البغي والعدوان والحسد ، وأنه لو لا القضاء الإلهي السابق بإمهالهم وتأخير عذابهم ، لعجلت لهم العقوبة في الدنيا.

التفسير والبيان :

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي بيّن وأوضح لكم من الدّين أيها المسلمون ما أمر به وشرع لنوح أول الرّسل بعد آدم عليهم السلام من التوحيد وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرّسل وتوافقت عليها الكتب ، وما أوحى به إلى النبي محمد ﷺ خاتم النّبيين من القرآن وشرائع الإسلام ونبذ الشرك ، وما أمر به إبراهيم وموسى وعيسى مما تطابقت عليه الشرائع ، أن حافظوا على الدّين (وهو توحيد الله والإيمان به ، وطاعة رسله وقبول شرائعه) ولا تختلفوا في هذه الأصول التشريعية ، فإن هذه الأصول لا ينبغي ولا يصح الخلاف في مثلها.

والخلاصة : شرعنا لكم في هذه الشريعة ما اتفقت عليه الشرائع والأديان كلها في أصول العقيدة من الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر والملائكة ، وأصول العبادة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ، قال مجاهد : «لم يبعث الله نبيّا قط إلّا وصّاه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإقرار لله بالطاعة ، فذلك دينه الذي شرع لهم». وكذا أصول الأخلاق وأسس الفضائل كالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الزنى والسرقة والاعتداء على الأموال والنفوس. ووصّى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة. ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وأساس الدين الذي جاءت به الرّسل كلّهم : هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥]. وجاء في الحديث الثابت الذي أخرجه

أحمد والشيخان وأبو داود عن أبي هريرة : «الأنبياء أولاد علات [١] ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» أي أن القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له. أما اختلاف الأديان في الشعائر الفرعية وأنواع العبادات وتفاصيلها ومناهجها المختلفة من شريعة إلى أخرى ، فهذا لا شيء فيه ، وإنما اقتضاه التّطور ومراعاة الحاجات والمصالح ، كما قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ [المائدة ٥ / ٤٨].

وهذه الآية انتظمت ذكر الرّسل الخمسة أولي العزم : وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصّلاة والسّلام. وإنّما خصّهم بالذّكر ، لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظم وشقّ على المشركين دعوتهم إلى توحيد الإله ورفض الأصنام والأوثان ، وأنكروا واشتدّ عليهم : أن لا إله إلا الله وحده ، وأبى الله إلا أن ينصرها.

﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي إن الله يختار لتوحيده والدّخول في دينه من يشاء من عباده ، ويوفّق لدينه وعبادته من يرجع إلى طاعته ويقبل إلى عبادته. وهذا يبيّن فضل الله على عبادة المؤمنين أنه هداهم لدينه ، بعد أنّ أمرهم بالتّمسك بالدّين القديم الذي أجمع عليه الرّسل.

وسبب التّفرق في الدّين بالرغم من وحدته ، هو ما قال تعالى :

﴿وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ أي ما تفرّق أتباع الأديان في اتّباع الحقّ إلّا بعد قيام الحجة عليهم ، وبعد ما علموا أن الفرقة ضلالة ، وما حملهم على ذلك إلا العناد والمشاقة والبغي بينهم بطلب الرّياسة ، وشدّة الحمية ، والحفاظ على مراكز النّفوذ والمكاسب المادية.

---

(١) بنو العلّات : هم الإخوة والأخوات لأب.

﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولو لا القضاء السابق من ربّك بتأخير العقوبة والحساب إلى يوم المعاد ، لعجّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعا ، بسبب ما اقترفوا من آثام عظام.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن لجيل المتأخّر من أهل الكتاب الذين توارثوا التوراة والإنجيل عمن سبقهم لفي شكّ من كتابهم ودينهم وإيمانهم ، وهو شكّ مقلق موقع في الرّيب بشدة ، لأنّهم لم يتّبعوا الحق ، وإنّما قلّدوا رؤساء الدّين المتأخرين الذين صوّروا لهم الدّين بصورة مغايرة لحقيقته الأولى ، واتّبعوا الآباء والأسلاف بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرة من أمرهم ، ولذلك لم يؤمنوا برسالة خاتم الأنبياء ، وأصبحوا مكذّبين القرآن ومحمدا ﷺ الذي صدّق كتابهم في أصله الأوّل.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن الرّسالات السماوية متحدة في أصولها ، وإن اختلفت في فروعها.

٢ ـ شرع الله لأمة الإسلام ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، من توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وباليوم الآخر ، وغيرها من أصول العقيدة والعبادة والأخلاق.

أما أحكام الشرائع التي هي متبدلة متغيرة بحسب أحوال الأمم ومصالح الأقوام ، فهي مختلفة متفاوتة ، وهذا أمر حسن يتناسب مع الأحوال والبيئات والظروف ، فالمشرع كامل العلم والحكمة ، والإسلام دين قديم أجمع عليه الرّسل ، والشرائع قسمان : منها ما لا نسخ فيه ، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان ، كحسن الصدق والعدل والإحسان ، وقبح الكذب والظلم والإيذاء ، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان. والشرع حريص على القسم الأول باعتباره الجوهر أكثر من حرصه على القسم الثاني.

٣ ـ إن الأديان قائمة على توحيد الله ، فلا تلتقي مع الشرك والمشركين ، وإنما ترفض الشرك والوثنية ، وتقبّح عقائد المشركين ، لذا كان يشقّ على المشركين سماع كلمة التوحيد . شهادة أن لا إله إلا الله.

٤ ـ يستخلص الله لدينه من رجع إليه ، ويهدي إليه من وجد فيه الخير.

٥ ـ لم تتفرّق الأمم في أديانها إلا بعد علمهم بالحقّ والحقيقة ، وآثروا الفرقة والاختلاف على الوحدة والجماعة للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا ، فما على المسلمين إلا أن يحذروا الفرقة والتّشتت ويحرصوا على الجماعة والوحدة ، وينبذوا الخلافات والعصبيات المذهبية الضّارة.

٦ ـ اقتضت الحكمة الإلهية تأخير العذاب إلى يوم القيامة ، وتأخير الفصل بين المختلفين إلى يوم المعاد والحساب.

٧ ـ إن الذين توارثوا التوراة والإنجيل لفي شكّ من كتبهم ومما أوصى به الأنبياء.

الأمر بالدعوة والاستقامة على المتفق عليه ودحض حجة المجادلين فيه

﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللهُ

﴿لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)﴾

الإعراب :

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ .. حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ الَّذِينَ﴾ : مبتدأ ، و ﴿حُجَّتُهُمْ﴾: مبتدأ ثان ، و ﴿داحِضَةٌ﴾ : خبره ، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول.

﴿أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ﴾ متعلق ب ﴿أَنْزَلَ﴾.

﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ذكّر ﴿قَرِيبٌ﴾ من أربعة وجوه : ذكّره على النّسب ، أي ذات قرب ، مثل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٦] أي ذات قرب ، أو لأن التقدير : لعل وقت الساعة قريب ، أو حملا على المعنى ، لأن الساعة بمعنى البعث ، أو للفرق بينه وبين قرابة النسب. وقال الكسائي : ﴿قَرِيبٌ﴾ نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنى ولفظ واحد.

و ﴿لَعَلَ﴾ علق فعل ﴿يُدْرِيكَ﴾ عن العمل ، وسدّ ما بعده مسدّ المفعولين.

البلاغة :

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها﴾ بينهما طباق السلب.

المفردات اللغوية :

﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾ اللام في موضع إلى ، أي فلذلك الائتلاف والاتّفاق على الملّة الحنيفية ادع الناس يا محمد ، واستقم عليه وداوم واثبت. ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾ في تركه. ﴿آمَنْتُ﴾ صدقت. ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم والقضاء دون حيف ولا ميل لجانب : ﴿اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ ، لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ فيجازي كلّا بعمله. ﴿لا حُجَّةَ﴾ لا احتجاج ولا خصومة ، إذ الحق قد ظهر. ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا﴾ يوم القيامة لفصل القضاء. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع.

﴿يُحَاجُّونَ فِي اللهِ﴾ يخاصمون في دينه. ﴿اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ استجاب الناس لدينه ، ودخلوا فيه لظهور حجته ومعجزاته. ﴿داحِضَةٌ﴾ زائفة باطلة. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ بمعاندتهم. ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ﴾ القرآن أو جنس الكتاب. ﴿وَالْمِيزانَ﴾ العدل والمساواة بين الناس. ﴿وَما يُدْرِيكَ﴾ يعلمك. ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ لعل إتيانها قريب. ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها﴾ يتساءلون استهزاء : متى تأتي؟ وظنّا منهم أنها غير آتية. ﴿مُشْفِقُونَ مِنْها﴾ خائفون منها مع العناية والاهتمام ، والفعل (أشفق) إذا عدّي بمن كما هنا فالخوف أظهر ، وإذا عدّي

بعلى ، مثل : أشفقت على اليتيم ، فالعناية أظهر. ﴿الْحَقُّ﴾ الأمر المحقق الكائن حتما. ﴿يُمارُونَ﴾ يجادلون. ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق ، فإن البعث أشبه الغيبيات إلى المحسوس ، فمن لم يهتد إليه لتوافر الدواعي على الاعتقاد به ، فهو أبعد عن الاهتداء إلى غيره.

﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ﴾ يتلطّف بهم جميعا ، سواء البرّ منهم والفاجر ، حيث رزقهم ولم يهلكهم بمعاصيهم. ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ﴾ من يريد ، كما يشاء ويريد. ﴿الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة. ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

سبب النزول :

نزول الآية (١٦):

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ ..﴾ : أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين. قد دخل الناس في دين الله أفواجا ، فاخرجوا من بين أظهرنا ، فعلام تقيمون بين أظهرنا؟ فنزلت : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية قال : هم اليهود والنصارى قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبيّنا قبل نبيّكم ، ونحن خير منكم.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى وحدة الدّين في أصوله الأولى ، أمر نبيّه بالدعوة إلى الاتفاق على الملّة الحنيفيّة ، والاستقامة عليها والثبات على أحكامها ، وأنهى المحاجّة والمخصومة بين المؤمنين والمشركين لوضوح الحجّة ، ثم ذكر أن الذين يخاصمون في الدّين بعد الاستجابة إليه ، حجّتهم زائفة باطلة ، وأردفه استعجال المشركين استهزاء وإنكارا بيوم القيامة ، وإيمان المؤمنين به حتما واستعدادهم له ، وأن المماراة والشكّ فيه ضلال واضح ، لكثرة الأدلّة على وقوعه.

التفسير والبيان :

اشتملت الآية الأولى : ﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ ..﴾ على عشرة أوامر ونواه ، كلّ منها مستقل بذاته ، ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنّها أيضا عشرة موضوعات. والأمر بهذه الأوامر والنهي عن هذه النواهي ، وإن وجه إلى النّبي ﷺ ، فهي له ولأمته.

١ ـ ٢ : ﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ أي ادع أيها الرسول إلى ذلك الأمر المتفق عليه ، واثبت وداوم واستمر على عبادة الله وتبليغ الرسالة ، كما أمرت من ربّك ، فيكون قوله : ﴿فَلِذلِكَ﴾ أي إلى ذلك ، وتكون اللام بمعنى إلى ، كقوله تعالى : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾ [الزلزلة ٩٩ / ٥].

ويصحّ أن يكون المراد باللام التعليل ، أي فلأجل ذلك التّفرق والشّك المذكورين ، ولأجل تلك الاختلافات المتشعبة في الدين ، ادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملّة الحنيفية القديمة ، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله ، فتكون اللام على بابها للتعليل ، والمعنى : فمن أجل ذلك المتقدّم ذكره فادع واستقم.

أو فلأجل ما شرعه الله من الدّين الواحد ، فادع إلى الله وإلى توحيده ، واستقم على ما دعوت إليه ، واستمر على تبليغ الرسالة كما أمرت بذلك.

٣ ـ ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أيها الرسول أهواء المشركين فيما اختلقوه وافتروه من عبادة الأوثان ، ولا تتبع أيضا أهواء الذين أورثوا الكتاب فيما وقعوا فيه من شكوك وحيرة وتحريف وتبديل.

٤ ـ ﴿وَقُلْ : آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ﴾ أي وقل أيها الرسول : صدّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله ، من

التوراة والإنجيل والزّبور وصحف إبراهيم وموسى ، لا نفرّق بين أحد منهم ، فلست من الذين آمنوا ببعض الكتب ، وكفروا ببعض ، وهذا تعريض بأهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين حصل منهم ذلك.

٥ . ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي وأمرني الله بأن أعدل بينكم في الحكم والقضاء إذا ترافعتم إلي ، ولا أحيف عليكم بزيادة أو نقص.

٦ . ﴿اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ﴾ أي الله هو المعبود بحقّ ، لا إله غيره ، فنحن نقرّ بذلك اختيارا ، فهو إلهنا وإلهكم ، وخالقنا وخالقكم.

٧ . ﴿لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ أي إن ثواب أعمالنا وعقابها خاص بنا ، ولكم ثواب أعمالكم وعقابها ، فهو خاص بكم ، ونحن برآء منكم ومن أعمالكم ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا ، وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٥] ، وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٤١].

٨ . ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا خصومة بيننا وبينكم ولا احتجاج ، لأن الحقّ قد ظهر ووضح كالشمس.

٩ . ١٠ : ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا في المحشر يوم القيامة ، فيقضي بيننا بالحق في خلافتنا ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٦]. وإليه وحده سبحانه المرجع والمآب يوم الحساب والقيامة ، فيجازي كل نفس بما كسبت. قيل : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش ، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ، ويزوجه شيبة بابنته.

ثم بيّن الله تعالى بطلان حجة المجادلين في دين الله ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ ، حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ أي والذين يخاصمون في دين الله من بعد ما استجاب الناس له ، ودخلوا فيه ، حجّتهم باطلة عند ربّهم ، أي لا ثبات لها ، كالشيء الذي يزلّ عن موضعه ، وعليهم غضب عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل ، ولهم عذاب شديد يوم القيامة. وسميت دعاويهم الزائفة وأباطيلهم حجّة ودليلا ، مجاراة لهم على زعمهم.

قال مجاهد : وهؤلاء قوم توهّموا أن الجاهلية تعود ، فجادلوا الذين استجابوا للإسلام ، لعلهم يردّونهم إلى الجاهلية.

وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ، ومحاجّتهم قولهم : نبيّنا قبل نبيّكم ، وكتابنا قبل كتابكم. والظاهر هذا الرأي ، روي أن اليهود قالوا للمؤمنين : ألستم تقولون : إن الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف؟ فنبوّة موسى وحقيّة التوراة معلومة بالاتّفاق ، ونبوّة محمد ليست متّفقا عليها ، فوجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى ، فدحض تعالى هذه الحجة ، لأن الإيمان بموسى عليه السلام إنما وجب لظهور المعجزات على يديه ، للدلالة على صدقه ، وقد ظهرت المعجزات على يدي محمد ﷺ ، فوجب الإقرار بنبوّته.

ثم ردّ تعالى عليهم بقوله :

﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ﴾ أي لقد أنزل الله جميع الكتب المنزلة على الرّسل إنزالا مشتملا على الحقّ مقترنا به ، وعلى أنواع الدلائل والبيّنات ، وأنزل الميزان في كتبه المنزلة ، أي العدل والتسوية والإنصاف ، ليحكم به بين البشر ، وسمي العدل ميزانا ، لأن الميزان آلة الإنصاف والتّسوية بين الناس

في بيعهم وشرائهم ، كقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ ، وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ ، لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٢٥].

وبعد تقرير هذه الدلائل خوّف الله تعالى المنكرين بعذاب القيامة ، فقال :

﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي وما يعلمك أيها الرسول والمخاطب أن مجيء الساعة عسى أن يكون قريبا حصوله. وفي هذا ترغيب باتباع شرع الله ، وترهيب من القيامة ، وطلب الاستعداد لها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها﴾ أي يتعجّل بقدوم الساعة الذين لا يصدّقون بها ، قائلين استهزاء وإنكارا وتكذيبا وعنادا : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي والمؤمنون خائفون وجلون من وقوعها ، ويعلمون أنها كائنة لا محالة ، فهم عاملون من أجلها ، مستعدون لها ، كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٦٠].

ثبت في حديث متواتر أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصورت جهوري ، وهو في بعض أسفاره ، فناداه ، فقال : يا محمد ، فقال له نحوا من صوته : «هاؤم» ، فقال له : متى الساعة؟ فقال له : «ويحك إنها كائنة ، فما أعددت لها؟» فقال : حبّ الله ورسوله ، فقال ﷺ : «أنت مع من أحببت» أو «المرء مع من أحب».

﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ألا أيها السامع ، إن الذين يجادلون في وجود القيامة ، ويخاصمون فيها مخاصمة شكّ وريبة ، لفي جهل بيّن. وانحراف شديد عن الحقّ ، ولو تفكّروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداء

قادر على الإعادة ، ومن خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٧].

﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ ، يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي إن الله تعالى كثير اللطف بعباده ، بالغ الرأفة بهم ، فيوصل إليهم أعظم المنافع ومنها إنزال الكتاب المقترن بالحقّ ، ويدفع عنهم أعظم المضار والبلايا ومنها تأخير العذاب عن الخلق ، كما في الآيات المتقدمة ، ومن ألطافه ومنافعه أنه يرزق جميع عباده ، البرّ منهم والفاجر ، يرزق من يشاء منهم كيف يشاء ، فيوسع على هذا ، ويضيق على هذا ، وهو العظيم القوة ، الباهر القدرة ، الذي يغلب كل شيء ، ولا يغلبه شيء ، فلا يعجزه شيء.

ونحو الآية في الإمداد بالأرزاق قوله تعالى : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها ، كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [هود ١١ / ٦] ، ونظائر أخرى كثيرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

١ ـ النّبي ﷺ ومن بعده كل مؤمن مأمور بالدعوة إلى ذلك الدين الذي شرعه الله للأنبياء ووصّاهم به ، وإلى القرآن المتضمن تلك الشرائع ، وهو مأمور أيضا بالاستقامة والثبات على تبليغ الرسالة والعمل بها ، ومنهي عن اتّباع الأهواء والحظوظ النفسية وعدم الاهتمام بخلاف من خالف.

وهو مأمور كذلك بالعدل في الأحكام كما أمر الله ، وبإعلان أن الله ربّ الناس جميعا ، لا ربّ المسلمين وحدهم ، ولا ربّ فئات أخرى وحدها ، وأن كل

واحد مخصوص بعمل نفسه ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، فلنا ديننا ولكم دينكم ، ولا خصومة بيننا وبينكم ، لأن البراهين قد ظهرت ، والحجج قد قامت ، فلم يبق إلا العناد ، وبعد العناد لا حجّة ولا جدال.

والله سيجمع جميع الخلائق إليه يوم القيامة ، وإليه المرجع ، فهو يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ويجازي كلّا بما كان عليه.

٢ ـ إن المشركين واليهود والنصارى الذين يجادلون في دين الله ، بعد انتشاره في الآفاق أو المشارق والمغارب ، حجتهم باطلة زائفة لاثبات لها ، وعليهم غضب من الله في الدنيا ، ولهم عذاب شديد دائم في الآخرة.

٣ ـ إن الله تعالى هو منزّل القرآن وسائر الكتب المنزلة مقترنة بالحق والصدق ، ومنزل في كتبه العدل ، وسمي العدل ميزانا ، لأن الميزان ـ كما تقدم ـ آلة الإنصاف والعدل.

٤ ـ وردت في القرآن آيات كثيرة للترغيب والترهيب تدلّ على قرب يوم القيامة وتحقق وقوعها حتما لا محالة.

٥ ـ إن شاء الكفار دائما ومعهم الملاحدة والماديون والطبيعيون ينكرون وقوع القيامة استهزاء وكفرا وعنادا وتكذيبا بها ، ظنّا منهم أنها غير آتية ، أو إيهاما للضّعفة أنها لا تكون.

وعقيدة المؤمن : الإيمان الجازم بمجيء القيامة ، فهي الحقّ الذي لا شكّ فيه ، وهم دائما يعملون لها ويستعدون من أجلها ، خوفا من أهوالها ، وحساب الله الشديد فيها.

وإن الذين يشكون ويخاصمون في قيام الساعة لفي ضلال بعيد عن الحق

والفكر الصحيح ، إذ لو تفكّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ، ثم من نطفة ، إلى أن صاروا رجالا ، قادر على أن يبعثهم.

٦ ـ إن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده ، ينعم عليهم جميعا ، ويرزق المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر كيف يشاء ، ويحرم من يشاء ، وهو البالغ القوة ، القاهر الذي لا يغلب.

حتمية الجزاء للمؤمنين والظالمين

وقبول التوبة

﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (٢٦)﴾

الإعراب :

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ إِنَ﴾ بالكسر : على الابتداء ، ويقرأ بالفتح بالعطف على كلمة ﴿الْفَصْلِ﴾ وتقديره : ولو لا كلمة الفصل وأن الظالمين.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ ...﴾ حال من الظالمين ، لأن ﴿تَرَى﴾ من رؤية العين ، لا من رؤية القلب.

﴿ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ﴾ بحذف الباء والهاء ، أي : ذلك الذي يبشر الله به عباده ، ثم حذف الباء والهاء تخفيفا. و ﴿ذلِكَ﴾ بمبتدإ ، وخبره اسم موصول ، والعائد عليه محذوف ، أي يبشر الله به عباده كما ذكره.

﴿قُلْ : لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ ... الْمَوَدَّةَ﴾ : منصوب على الاستثناء من غير الجنس.

﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ ... يَمْحُ﴾ : ليس معطوفا على ﴿يَخْتِمْ﴾ المجزوم ، وإنما هو مستأنف مرفوع ، وإنما حذفت الواو منه ، كما حذفت في ﴿سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾ [العلق ٩٦ / ١٨] و ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ﴾ [الإسراء ١٧ / ١١] وإن كان في موضع رفع ، لأن محو الله الباطل واجب ، وليس معلقا بشرط.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ﴾ : منصوب على أنه مفعول به ، أي ويجيب الله الذين آمنوا ، أو على تقدير حذف حرف الجر ، أي ويستجيب للذين آمنوا ، فحذفت اللام ، فاتصل الفعل به. وقال أبو حيان : والظاهر أن ﴿الَّذِينَ﴾ فاعل يستجيب الذي هو بمعنى يجيب.

البلاغة :

﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه العمل للآخرة بالزارع يزرع الزرع ليجني منه الثمرة. وبين الآخرة والدنيا طباق.

﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية :

﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ﴾ بعمله. ﴿حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي ثوابها ، والأصل في الحرث : إلقاء البذر في الأرض ، وقد يطلق على الثمر ، شبه ثمرة العمل ونتيجته بثمرة المزروع ، وهذا يتضمن تشبيه الأعمال بالبذور. ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ نضاعف له الحسنة إلى عشر أمثالها وأكثر. ﴿حَرْثَ

﴿الدُّنْيا﴾ لذاتها وطيباتها. ﴿نُؤْتِهِ مِنْها﴾ بلا مضاعفة ما قسم له ، أي نعطه شيئا منها على ما قسمنا له. ﴿وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ من حظ.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ﴾ أي بل لكفار مكة وأمثالهم شركاء في الكفر ، وهم الشياطين ، وأم : أي بل ألهم شركاء؟ والهمزة للتقرير والتقريع ، فهو استفهام تقرير وتوبيخ. ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ شرع الشركاء بالتزيين للكفار. ﴿مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ أي من النظام الفاسد كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فقط. ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء ليوم القيامة. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين بتعذيب الأوائل في الدنيا. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين. ﴿لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في يوم القيامة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ في الدنيا من السيئات أن يجازوا عليها. ﴿وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ﴾ أي والجزاء واقع بهم يوم القيامة ، لا محالة. ﴿فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ﴾ في أطيب بقاعها وأنزهها. ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي إن ما يشتهونه ثابت عند ربهم. ﴿ذلِكَ﴾ جزاء المؤمنين. ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ هو الفضل الإلهي العظيم الذي يصغر أمامه أي فضل في الدنيا.

﴿ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ ..﴾ ذلك الثواب الذي يبشرهم الله به ، فحذف الجارّ ، ثم العائد ، والبشارة : الإخبار بحصول ما يسرّ في المستقبل. ﴿لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ لا أطلب على التبليغ أو البشارة نفعا منكم وخصصه العرف بالنفع المالي. ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ استثناء منقطع ، أي لكن أسألكم أن تودّوا قرابتي منكم ، فإن له في كل بطن من قريش قرابة ، أو لكن أسألكم المودّة حال كونها في القربى ، أي إلا المودة ثابتة في ذوي القربى أو في حق القرابة ، روي بسند ضعيف أنها لما نزلت قيل : يا رسول الله ، من قرابتك هؤلاء؟ قال : علي وفاطمة وابناهما. فالقربى هنا : قرابة الرحم ، كأنه قال : اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة.

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ يكتسب طاعة ، سيما حب آل الرسول. ﴿نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً﴾ نضاعف له الثواب في الحسنة. ﴿غَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ كثير الشكر للقليل ولمن أطاع بإيفاء الثواب والتفضل عليه بالزيادة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي بل أيقولون. ﴿افْتَرى﴾ ادعى محمد النبوة أو القرآن. ﴿يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ﴾ يطبع عليه بالخاتم حتى تجترئ على الافتراء ، والمراد استبعاد الافتراء على مثله ، فإنما الذي يجترئ عليه ما كان مختوما على قلبه جاهلا بربه ، أو المراد : يربط عليه بالصبر ، فلا يشق عليك أذاهم بهذا القول وغيره. ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ﴾ يزيله ، وهو استئناف لنفي الافتراء عما يقوله النبي. ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَ﴾ يثبته. ﴿بِكَلِماتِهِ﴾ هي حججه وبراهينه. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب.

﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ يثيب عليها وهو تعريض لهم بالتوبة. ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء. ﴿وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ فيجازي عن يقين وحكمة.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٣):

﴿قُلْ : لا أَسْئَلُكُمْ ..﴾ قال قتادة : قال المشركون : لعلّ محمدا فيما يتعاطاه يطلب أجرا ، فنزلت هذه الآية ، ليحثهم على مودّته ومودّة أقربائه. قال الثعلبي : وهذا أشبه بالآية ، لأن السورة مكية.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى كونه لطيفا بعباده ، كثير الإحسان إليهم ، رغّب في فعل الخير ، والاحتراز عن القبائح بالعمل للآخرة ، وأوضح قانون العمل للآخرة والدنيا ، ثم أردفه ببيان سبب الضلالة عند المشركين ، واستحقاقهم العذاب العاجل على الشرك بالله وإنكار البعث ، لو لا تأخيره في الحكم الأزلي السابق إلى الآخرة ، وإخبارهم بوقوع عذاب الآخرة ، وحصول الثواب في رياض الجنة للمؤمنين.

ثم عظّم تعالى حال الثواب ، وأمر رسوله بأن يخبر قومه بأنه لا يطلب منهم على تبليغ الرسالة نفعا عاجلا ، وإنما يطلب منهم صلة الرحم والقرابة التي هي شأن قريش ، وهذا دليل النبوة. ثم رد عليهم قولهم بأن القرآن مفترى : بأنه لا يفتري الكذب على الله إلا من كان مختوما على قلبه ، فلو كان محمد مفتريا لكشف الله باطله. ثم رغبهم في التوبة ، ووعد تعالى بإجابة دعاء المؤمنين الصالحين ، وأوعد الكافرين بشديد العقاب.

التفسير والبيان :

﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة ، نقويه ونغنيه ، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها ، إلى سبع مائة ضعف ، إلى ما شاء الله.

﴿وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ، وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي ومن كان سعيه للحصول على شيء من شؤون الدنيا ، وطلب لذائذها وطيباتها ، وإهمال شؤون الآخرة ، نعطه ما قضت به مشيئتنا ، وقسمناه له في قضائنا ، ولكن ليس له في الآخرة حظ ، لأنه لم يعمل للآخرة ، فلا نصيب له فيها.

وهذه الآية بإطلاقها مقيدة بآية الإسراء : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً. وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ ، وَسَعى لَها سَعْيَها ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٨ ـ ١٩].

أخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه وغيرهما عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «بشّر هذه الأمة بالسّناء والرفعة ، والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب».

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «تلا رسول الله ﷺ : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ الآية ، ثم قال : يقول الله : ابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسدّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسدّ فقرك».

ولما ذكر تعالى ما شرع للناس ، وهو ﴿ما وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ الآية ، أخذ ينكر ما شرع غيره وهو سبب ضلال المشركين ، فقال :

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ أي بل إن المشركين لهم أعوان من الشياطين شرعوا ما لم يشرعه الله ، فلم يتبعوا ما شرع الله لك يا محمد من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، كتحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ونحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي اخترعوها في الجاهلية ، من التحليل والتحريم والعبادات والأموال. فالشركاء : هم شياطين الجن والإنس ، وضمير ﴿شَرَعُوا﴾ عائد على الشركاء ، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ عائد على الكفار المعاصرين للرسول.

ثبت في الصحيح لدى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «رأيت عمرو بن لحيّ بن قمعة يجرّ قصبه . أي أمعاءه . في النار» لأنه أول من سيب السوائب ، وسنّ للعرب عبادة الأصنام ، وكان أحد ملوك خزاعة ، لذا قال تعالى :

﴿وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولو لا الحكم والقضاء السابق من الله تعالى بتأخير العذاب في هذه الأمة إلى يوم القيامة ، لقضي بين المؤمنين والمشركين ، وعجلت العقوبة في الدنيا لأئمة الشرك ، وإن للظالمين العذاب المؤلم الشديد الموجع في جهنم ، وبئس المصير.

وتأخير العذاب بموجب قوله تعالى : ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٦].

ثم ذكر تعالى أحوال الجزاء الأخروي لكل من الظالمين والمؤمنين ، فقال :

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ، وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ﴾ أي ترى رأي العين أو تبصر الكفار (لمقابلته بالمؤمنين) خائفين وجلين يوم القيامة مما عملوا من

السيئات في الدنيا ، وجزاء ما كسبوا واقع بهم نازل عليهم لا محالة ، سواء خافوا أو لم يخافوا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ ، لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي والذين صدقوا بالله ورسوله ، وأطاعوا ربهم فيما أمر به ونهى عنه ، هم في رياضى الجنة وأطيبها وأنزهها ، ولهم ما يشتهون عند ربهم من أصناف النعم وأنواع الملذات ، ذلك الجزاء الممنوح لهم الذي لا يوصف ولا تعرف حقيقته هو الفضل الذي يفوق كل فضل في الدنيا ، وهو النعمة التامة الشاملة. وقوله : ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ العندية عندية المكانة والتشريف ، لا عندية المكان.

ثم أخبر تعالى عن حتمية وقوع هذا الجزاء ، فقال :

﴿ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ أي إن هذا الجزاء في روضات الجنات والنعيم الشامل حاصل لهم ، كائن لا محالة ببشارة الله تعالى لهم به ، وتلك البشارة لهؤلاء الجامعين بين الإيمان والعمل بما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه. فقوله ﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى ما أعد لهم من الكرامة.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يظهر ترفعه وسموه عن أعراض الدنيا ومنافعها ، فقال:

﴿قُلْ : لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ أي قل أيها الرسول لقومك : لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا ولا مكافأة ولا نفعا ماديا ، ولكن أطلب تقدير صلة الرحم والقرابة التي بيني وبينكم ، وإكرام آل بيتي وقرابتي ، فتكفّوا شركم عني ، وتذروني أبلّغ رسالات ربي. فقوله : ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ استثناء منقطع ، لأن المودة ليست أجرا.

أخرج أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال لهم رسول الله ﷺ : «لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم ، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم» والحق العمل في هذا برواية البخاري «إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة».

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أيضا أن النبي ﷺ قال : «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرا إلا أن توادوا الله تعالى ، وأن تقرّبوا إليه بطاعته». وهذا قول للحسن البصري ، وهو تفسير ثان للمودة في القربى ، أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى. والظاهر لدى جماعة هو التفسير الأول ، وأن مودة قرابته داخلة في الآية ، والتقدير : إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها ، قال أبو حيان : وهو حسن ، وفيه تكثير.

قال عكرمة : وكانت قريش تصل أرحامها ، فلما بعث النبي ﷺ قطعته ، فقال : «صلوني كما كنتم تفعلون».

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم : «إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض» وفسرت العترة في رواية الترمذي عن جابر فقال ﷺ : «عترتي أهل بيتي».

ثم رغّبهم الله تعالى في الإحسان والإيمان ، فقال :

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ، نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي ومن يعمل حسنة ، نزد له فيها حسنا ، أي أجرا وثوابا ، إن الله يغفر الكثير من السيئات ، ويكثّر القليل من الحسنات ، ويضاعف ويشكر المحسن. ونحو الآية قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء ٤ / ٤٠].

ثم وبخهم على افترائهم على الرسول ، فقال :

﴿أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أي بل أيقولون : افترى محمد على الله كذبا بدعوى النبوة ونزول القرآن عليه ، وهذا أقبح من الشرك الذي جعلوه شرعا لهم ، أي أنه تعالى أضرب عن الكلام المتقدم من غير إبطال ، ثم استفهم استفهام إنكار وتوبيخ على هذه المقالة ، فمثله لا ينسب إليه الكذب على الله ، مع اعترافكم له قبل ذلك بالصدق والأمانة.

ثم أكد ذلك فرد الله عليهم مستبعدا الافتراء من مثل محمد الرسول ، فقال :

﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أي لو افتريت على الله كذبا ، لطبع على قلبك إن شاء ، وسلبك ما آتاك من القرآن ، فلا يجرأ على مثل هذا إلا من كان مثلهم قد ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم ، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا يجرأ على ذلك ، وهذا هو الرسول ﷺ ، فإنه لم يفتر على الله كذبا ، فأيده الله.

وهذا كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٤٤ ـ ٤٧].

وقال أبو السعود : والآية استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنه ﷺ لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعا ، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرف من حروفه [١].

ثم أكد الله تعالى ذلك بإبطال الباطل وإحقاق الحق ، فالله سبحانه وتعالى لا يدع الباطل يستمر ، فلو كان ما أتى به النبي ﷺ باطلا لمحاه ، كما جرت به عادته في المفترين ، وإنما يثبّت الحق ، أي الإسلام ، فيبينه بما أنزل من القرآن ،

---

(١) تفسير أبي السعود : ٥ / ٣٤.

وبما أيّد به نبيه من المعجزات والحجج والبراهين ، إنه تعالى واسع العلم بما في قلوب العباد.

ثم فتح تعالى أمامهم باب الأمل والتوبة ، فقال :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ أي إن الله عَزَّوَجَلَّ يقبل في المستقبل من عباده المذنبين توبتهم عما عملوا من المعاصي ، ويعفو عن السيئات في الماضي ، ويعلم الذي تفعلونه من خير أو شر ، فيجازي كلا بما يستحق من الثواب والعقاب.

ونحو الآية : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء ٤ / ١١٠] وثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لله تعالى أشدّ فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة ، فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك ، إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح».

وأكد قبول التوبة بقبول الدعاء ، فقال تعالى :

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ويستجيب الله للذين آمنوا ، وأطاعوا ربهم ، ويعطيهم ما طلبوه منه ، ويزيدهم على ما طلبوه منه ، أو على ما يستحقونه من الثواب ، تفضلا منه ونعمة.

أو يجيب الله الذين آمنوا إذا دعوه ، أو يجيب الذين آمنوا لربهم ، مثل ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال ٨ / ٢٤] فيكون المراد بقوله :

ويستجيب أي يجيب ، قال الزجاج : استجاب وأجاب بمعنى واحد [١].

وبعد أن وعد المؤمنين بالثواب أو عد الكافرين بالعذاب ، فقال :

﴿وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وللكافرين الذين لم يؤمنوا بالله رسوله يوم القيامة عذاب مؤلم موجع.

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات الكريمات ما يأتي :

١ ـ إن مبدأ الإسلام هو العمل للدنيا والآخرة معا ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ [القصص ٢٨ / ٧٧]. وقال عبد الله بن عمر : «واحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». والحرث : العمل والكسب.

٢ ـ فضّل الله تعالى من أراد الآخرة على من أراد الدنيا في الآية من وجوه ستة هي :

الأول ـ أنه قدم تعالى مريد حرث الآخرة في الذّكر على مريد حرث الدنيا.

الثاني ـ أنه قال في مريد حرث الآخرة : ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ وقال في مريد حرث الدنيا : ﴿نُؤْتِهِ مِنْها﴾ وكلمة «من» للتبعيض ، أي نعطيه بعض ما يطلبه ، ولا نؤتيه كله.

---

(١) تبين بهذا أن قوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ .. الَّذِينَ إما فاعل مرفوع تقديره : ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليه ، وإمّا مفعول محله النصب ، والفاعل مضمر وهو الله ، وتقديره : ويستجيب الله للمؤمنين ، إلا أنه حذف اللام ، كما حذف في قوله : ﴿وَإِذا كالُوهُمْ﴾ [المطففين ٨٣ / ٣] والثاني أولى كما ذكر الرازي.

الثالث ـ أنه تعالى سكت عن طالب حرث الآخرة ، ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا ، أما طالب حرث الدنيا ، فإنه تعالى بيّن أنه لا يعطيه شيئا من نصيب الآخرة على التنصيص ، وهذا يعني أن الآخرة أصل والدنيا تبع ، وواجد الأصل يكون واجدا للتبع بقدر الحاجة.

الرابع ـ أنه تعالى بيّن أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه ، وأما طالب الدنيا فيعطى بعض مطلوبه من الدنيا ، ويحرم من نصيب الآخرة.

الخامس ـ إن الآخرة نسيئة ، والدنيا نقد ، والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد ، لأن الناس يقولون : النقد خير من النسيئة ، فبين تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا ، فالأولى متجهة للزيادة والنمو ، والثانية آيلة إلى النقصان.

السادس ـ الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا تحتاج إلى حرث وعمل وتعب ، وصرف المتاعب إلى ما يؤدي إلى التزايد والبقاء أولى من صرفها إلى ما يؤدي إلى النقصان والانقضاء والفناء [١].

٣ ـ استنبط ابن العربي من هذه الآية : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أن الوضوء تبردا الذي هو من حرث الدنيا ، لا يجزئ عن فريضة الوضوء الذي هو من حرث الآخرة ، خلافا لأبي حنيفة ﷺ تعالى [٢].

٤ ـ إن شرع الله الدائم هو ما أنزله على أولي العزم من الرسل ، والله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدين المشركون به؟

٥ ـ من رحمة الله بالمشركين تأخير العذاب عنهم إلى القيامة ، ليعطوا فرصة

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٦٢.

(٢) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٥٥.

كاملة في أيام العمر كله للإقلاع عن الشرك والكفر ، والدخول في ساحة الإيمان والرضا الإلهي. فإن ماتوا مشركين فلهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع.

٦ ـ يبصر الناس الكافرين الظالمين خائفين في يوم القيامة من جراء ما كسبوا ، والجزاء حتما نازل بهم. والمراد بالظالمين هاهنا الكافرون ، بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر.

أما المؤمنون الطائعون لربهم فهم في روضات الجنان ، ولهم ما يشتهون من النعيم والثواب الجزيل ، وذلك هو الفضل الذي لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى حقيقته ، لأن الله إذا وصف الفضل بأنه ﴿الْكَبِيرُ﴾ فمن ذا الذي يقدر قدره. قال الرازي : وفي الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة ، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات ، وهي البقاع الشريعة من الجنة.

٧ ـ يبشر الله عباده المؤمنين بالثواب العظيم حثا لهم على الطاعة ، وليتعجلوا السرور ، ويزدادوا منه. ولكن هذا الجزاء والبشارة ، إنّما هو على الإيمان والأعمال الصالحات.

٨ ـ عظّم الله تعالى ثواب المؤمنين من وجوه أربعة هي :

الأول ـ أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات ، وترتيب هذا الجزاء من الله صاحب السلطان الأعظم دليل على أن ذلك الجزاء قد بلغ النهاية التي لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى.

الثاني ـ أنه تعالى قال : ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يدخل في باب غير المتناهي.

الثالث ـ أنه تعالى قال : ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وإذا كان هذا من الله الأكبر كان في غاية الكبر.

الرابع ـ أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم ، فقال : ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ﴾ وذلك يدل على غاية العظمة.

٩ ـ إن النبي ﷺ لم يطلب من قومه أي منفعة مادية على تبليغ الرسالة ، وهذا دليل على صدقه وإخلاصه ، والحد الأدنى الذي طالب به هو مراعاة قرابته من قريش. قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ أوسط الناس في قريش ، فليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده ، فقال الله له : ﴿قُلْ : لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ أي لكن أذكركم قرابتي منكم.

وقد صرح أكثر الأنبياء ، بنفي طلب الأجر على تبليغ الرسالة ، فقال نوح عليه السلام : ﴿وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٠٩] وكذا قال هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام [(١)].

١٠ ـ إن قوله تعالى : ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ يشمل قرابة النبي ﷺ من قريش ، وآل بيته الأقارب ، وهم كما جاء في بعض الأحاديث : علي وفاطمة والحسن والحسين ، فمراعاة قرابته وحبهم واحترامهم واجب بالنص القرآني المذكور ، لذا شرع الدعاء لهم في خاتمة التشهد في الصلاة ، وهو منصب عظيم ، وهو قوله ﷺ : «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وارحم محمدا وآل محمد» وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل ، مما يدل على أن حب آل محمد واجب.

ذكر الزمخشري حديثا طويلا في حب آل البيت جاء فيه : «من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد ، مات مؤمنا مستكمل الإيمان .. ألا ومن مات على بعض آل محمد ، جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله» [(٢)].

---

(١) الشعراء : ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠

(٢) الكشاف : ٣ / ٨٢

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

يا راكبـــا قـــف بالمحصّـــب مـــن مـــنى واهتـــف بســـاكن خيفهـــا والنـــاهض

ســـحرا إذا فـــاض الحجـــيج إلى مـــنى فيضـــا كملـــتطم الفـــرات الفـــائض

إن كـــان رفضـــا حـــبّ آل محمـــد فليشـــهد الـــثقلان أني رافضـــي

١١ ـ من يكتسب حسنة أو خصلة من خصال الخير ، ومنها مودة القربى تأكيدا للآية السابقة ، ضاعف الله له الحسنة بعشر فصاعدا ، ومن فضله ورحمته تعالى أنه غفور للذنوب ، شكور للحسنات. والشكور في حق الله مجاز ، والمعنى : إنه تعالى يحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم وفي زيادة الأفضال عليهم.

١٢ ـ أنكر القرآن الكريم على المشركين قولهم : إن هذا ليس وحيا من الله تعالى ، وكان قوله سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ متعلقا بالمذكور ، أول السورة ، ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ ...﴾. وكان إنكاره في هذه الآية متكررا ، فوبخهم أولا بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ..﴾ وثانيا بقوله : ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ﴾ قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن ، فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وثالثا بقوله : ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾ أي بما أنزله من القرآن ، ورابعا بقوله : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو نص عام ، أي بما في قلوب العباد.

١٣ ـ فتح الله تعالى باب الأمل والرجاء والتوبة لعباده جميعا ليتداركوا أمرهم ، فيؤمنوا ويطيعوا ربهم ، فذكر أنه يقبل التوبة في المستقبل عن عباده ، ويعفو عن سيئات الماضي ، ويعلم ما يفعل الناس من الخير والشر ، فيثيب على الحسنات ، ويعاقب على السيئات.

روى جابر أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله ﷺ ، وقال : اللهم إني

أستغفرك وأتوب إليك ، وكبّر ، فلما فرغ من صلاته قال له علي عليه السلام : يا هذا ، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين ، فتوبتك تحتاج إلى توبة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة؟ فقال :

اسم يقع على ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندم ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة ، كما ربّيتها في المعصية ، وإذاقة النفس ومرارة الطاعة ، كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

١٤ ـ أكد الله تعالى قبول التوبة بأنه يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه ، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه أو استحقوه.

١٥ ـ جرت عادته تعالى على إقران الوعد بالوعيد ، لذا ذكر بعد وعد المؤمنين بالثواب ، وعيد الكافرين بالعذاب الشديد.

من مظاهر حكمة الله في خلقه وآياته على قدرته

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى

ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾

الإعراب :

﴿وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ فِيهِما﴾ : أي في أحدهما ، فحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٢] أي من أحدهما ، فحذف المضاف.

﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ .. فَبِما﴾ : الفاء في جواب الشرط ، وقرئ بغير فاء ، وحذفت إما لأن ﴿ما﴾ بمعنى الذي ، فحذفت كما تحذف مع الذي ، أو أن ﴿ما﴾ الشرطية لا تعمل في الفعل شيئا ، لأنه فعل ماض ، فحذفت الفاء ، وهذا أولى من الأول ، لأنها أعم في كل مصيبة ، فكان المعنى أقوى.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا ... وَيَعْلَمَ يُوبِقْهُنَ﴾ : مجزوم بالعطف على قوله تعالى: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ المعطوف على جواب الشرط. و ﴿يَعْلَمَ﴾ : بتقدير «أن» بعد الفاء ، ونصب الفعل بها ، لأنه غير معطوف على ما قبله ، ويقرأ بالرفع : «ويعلم» على الاستئناف. وجملة ﴿ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ سدت مسد مفعولي ﴿يَعْلَمَ﴾ لأن النفي يعلق الفعل عن العمل.

﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ .. فَما﴾ : موصولة تضمنت معنى الشرط ، لأن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا ، فجازت الفاء في جوابها.

البلاغة :

﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ : عطف عام على خاص ، فالغيث خاص ، والرحمة عام.

﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾ : تشبيه مرسل مجمل ، حذف منه وجه الشبه ، أي كالجبال في الضخامة والعظم.

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿بَسَطَ﴾ وسع ﴿لِعِبادِهِ﴾ لجميعهم ﴿لَبَغَوْا﴾ جميعهم أي طغوا وتجاوزوا الحد ، والبغي : الظلم ومجاوزة الحد ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير معين ﴿ما يَشاءُ﴾ ما اقتضته مشيئته ﴿إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي إنه يعلم خفايا أمرهم وجلايا حالهم.

﴿الْغَيْثَ﴾ المطر الذي يغيث من الجدب ﴿قَنَطُوا﴾ يئسوا من نزوله ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ يعم رحمته كل شيء من السهل والجبل والنبات والإنسان والحيوان ﴿الْوَلِيُّ﴾ المتولي عباده بالإحسان ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد على نعمه.

﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهي بذاتها وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم ﴿وَما بَثَّ فِيهِما﴾ نشر وفرّق ، وهو معطوف على السموات أو على كلمة ﴿خَلْقُ﴾ أي وخلق ما بث ﴿دابَّةٍ﴾ كل ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم ﴿جَمْعِهِمْ﴾ للحشر والحساب ، وفي الضمير : تغليب العاقل على غيره ﴿إِذا يَشاءُ﴾ في أي وقت يشاء ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكن منه. وإذا : تدخل على الماضي وعلى المضارع.

﴿مُصِيبَةٍ﴾ بلية وشدة ﴿فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فبسبب معاصيكم ، وعبر بالأيدي ، لأن أكثر الأفعال تزاول بها ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب ، فلا يعاقب عليه ، وهو تعالى أكرم من أن يثنّي الجزاء في الآخرة. أما ما يصيب غير المذنبين فلرفع درجاتهم وتعريضهم للأجر العظيم في الآخرة.

﴿وَما أَنْتُمْ﴾ أيها البشر ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ فائتين الله هربا في الأرض ، أي بجاعلين الله تعالى عاجزا بالهرب منه ﴿دُونِ اللهِ﴾ غيره ﴿وَلِيٍّ﴾ يحرسكم ﴿نَصِيرٍ﴾ يدفع عذاب الله عنكم الجواري السفن الجارية ، جمع جارية : وهي السفينة التي تجري على الماء : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ﴾ [الحاقة ٦٩ / ١١] ﴿كَالْأَعْلامِ﴾ كالجبال في العظم ، جمع علم : وهو الجبل.

﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ يجعلها ساكنة لا تتحرك ، وقرئ «الرياح». ﴿رَواكِدَ﴾ ثوابت سواكن ﴿صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر ﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر ، وهما صفتان للمؤمن الكامل ، لأن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر ، والمؤمن يصبر في الشدة ، ويشكر في الرخاء ﴿يُوبِقْهُنَ﴾ يهلكهن أو يغرقهن بإرسال الريح العاصفة المغرقة والمراد : إهلاك أهلها ، لقوله : ﴿بِما كَسَبُوا﴾

اقترفوا من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي يتجاوز عن الكثيرين وينجيهم من الهلاك بالعفو عنهم.

﴿وَيَعْلَمَ﴾ عطف على علة مقدرة ، مثل ليغرقهم وينتقم منهم ويعلم ﴿مَحِيصٍ﴾ مهرب من العذاب ، وجملة النفي ﴿ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ سدت مسد مفعولي ﴿يَعْلَمَ﴾ والنفي يعلّق الفعل عن العمل ، كما تقدم.

﴿فَما أُوتِيتُمْ﴾ أيها الناس المؤمنون وغيرهم ، وآتاه الشيء : أعطاه إياه ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمتعة الدنيا ﴿فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ أي فهو مجرد متاع مؤقت تتمتعون به فيها ، ثم يزول. والمتاع : ما ينتفع به ويتمتع من أثاث وغيره ﴿وَما عِنْدَ اللهِ﴾ من الثواب الأخروي ﴿خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ لخلوص نفعه ودوامه ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم بعد اتخاذ الأسباب.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٧):

﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ : أخرج الحاكم وصححه عن علي قال : نزلت هذه الآية في أصحاب الصّفّة : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ ، لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك أنهم قالوا : لو أن لنا ، فتمنوا الدنيا والغنى. وقال خبّاب بن الأرتّ : فينا نزلت هذه الآية ـ أي في أهل الصفّة ـ وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ، فتمنيناها.

نزول الآية (٣٦):

﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ : عن علي رضي الله عنه : تصدّق أبو بكر رضي الله عنه بماله كله ، فلامه جمع ، فنزلت. جاء في الحديث : أنه أنفق ثمانين ألفا.

المناسبة :

﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ : عن علي رضي الله عنه : تصدّق أبو بكر رضي الله عنه بماله كله ، فلامه جمع ، فنزلت. جاء في الحديث : أنه أنفق ثمانين ألفا.

المناسبة :

بعد أن قال الله تعالى في الآية السابقة : إنه يجيب دعاء المؤمنين ، ذكر هنا أنه لا يعطيهم من الأرزاق إلا بقدر وحكمة ، حسبما يعلم من مصلحتهم ، وإلا

فإنهم يبغون ويقدمون على المعاصي. ولو احتاجوا أمدهم بالرزق ، لأنه المتولي أمورهم بإحسانه ، المستحق الحمد على نعمه.

ثم أقام الله تعالى الأدلة على ألوهيته بخلق السموات والأرض وما فيهما ، ثم جمعهم للحساب في الآخرة. ثم أوضح أن المصائب والأحوال المكروهة كالآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق والفقر ونحوها تكون عقوبات على الذنوب لمن يرتكبها ، أو من باب الامتحان في التكليف ، لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء.

ثم ذكر تعالى دليلا آخر على ألوهيته وهو إجراء السفن العظيمة على وجه البحر ، وتأثير الرياح فيها إما بالتسيير وإما بالإغراق.

والخلاصة : بعد أن ذكر الله تعالى أنواعا من دلائل وحدانيته ، ذكر بعدها العالم الأكبر وهو السموات والأرض ، ثم العالم الأصغر ، وهو الحيوان ، ثم أتبعه بذكر المعاد وذكر السفن الجارية في البحر ، لما فيها من عظيم دلائل القدرة.

التفسير والبيان :

﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ أي لو وسع الله على عباده رزقهم ، وأعطاهم فوق حاجتهم من الرزق ، لحملهم ذلك على البغي والطغيان ، وعصوا في الأرض ، وبطروا النعمة ، وتكبروا ، وطلبوا ما ليس لهم طلبه مثل قارون وفرعون ، ولكنه تعالى ينزل من الرزق لعباده بتقدير معين ، على حسب مشيئته ، وما تقتضيه حكمته البالغة ، ويختار لهم مما فيه صلاحهم ، فيغني من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر ، إنه بعباده خبير بأحوالهم ، بصير بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه ، كما جاء في الحديث القدسي عن انس : «إن من

عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

قال قتادة : كان يقال : خير العيش ما لا يهليك ولا يطغيك.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو احتاج الناس إلى الخير أمدهم به ، فقال :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي وهو سبحانه الذي ينزل المطر من بعد إياس الناس في وقت حاجتهم وفقرهم إليه ، والمطر أنفع أنواع الرزق ، وأكثرها فائدة ونفعا ، ويعم الوجود كله برحمته ، ويفيض على أهل ذلك القطر أو الناحية فيضه ، وهو المتولي لأمور عباده بالإحسان إليهم ، وجلب النفع لهم ، ودفع الشر عنهم ، وهو المستحق للحمد منهم على إنعامه.

ونظير الآية في إنزال المطر بعد اليأس قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم ٣٠ / ٤٩].

قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب ﷺ : يا أمير المؤمنين ، قحط المطر ، وقنط الناس ، فقال عمر : مطرتم ، ثم قرأ الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

ثم ذكر تعالى الأدلة على ألوهيته ، فقال :

﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ﴾ أي ومن دلائل عظمته وقدرته وسلطانه : خلق السموات والأرض على هذا النحو البديع ، وخلق ما نشر وفرق فيهما ، أي في السموات والأرض مما يدب ويتحرك ، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم

وطباعهم. وربما يكون في الكواكب الأخرى أحياء ، فتدل الآية عليهم.

وقيل : أراد ما بث في الأرض دون السماء ، لأن المراد من ﴿فِيهِما﴾ في أحدهما ، كما جاء في آية أخرى : ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ﴾ [لقمان ٣١ / ١٠].

﴿وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾ وهو على جمع سائر الخلائق من السموات والأرض في صعيد واحد ، وحشرهم يوم القيامة ، إذا أراد ، قادر كل القدرة ، ثم يحكم بينهم بحكمه العدل الحق.

والمقصود بالآية أنه تعالى خلق الكائنات الحية متفرقة ، لا لعجز ، ولكن لمصلحة ، فلهذا قال : ﴿وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ﴾[1]﴿قَدِيرٌ﴾ يعني الجمع للحشر والمحاسبة ، وإنما قال : ﴿عَلى جَمْعِهِمْ﴾ ولم يقل : على جمعها ، لأن المقصود من هذا الجمع المحاسبة ، فكأنه تعالى قال : وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير.

ثم ذكر تعالى أسباب الذنوب والآثام ، فقال :

﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي ما أصابكم أيها الناس من المصائب (وهي الأحوال المكروهة) كالآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق والزلازل ونحوها ، فإنما هي بسبب سيئات اقترفتموها ، ومعاص اقتحمتموها ، فهي عقوبات الذنوب وكفاراتها ، ويعفو الله عن كثير من معاصي العباد ، فلا يعاقب عليها ، وقد يكون المصاب لغير ذنب ، وإنما لزيادة الأجر ورفع الدرجة.

ونظير مقدمة الآية قوله تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ

---

(١) إذا كما بينا تدخل على المضارع ، كما تدخل على الماضي ، قال تعالى : وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى [الليل ٩٢ / ١] ومنه إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ.

﴿طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء ٤ / ١٦٠] وقوله تعالى : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء ٤ / ١٢٣]. ونظير آخر الآية : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٥]. وورد في الحديث الصحيح عن الشيخين والموطأ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة : «والذي نفسي بيده ، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن إلا كفّر الله عنه بها من خطاياه ، حتى الشوكة يشاكها» وأخرج الإمام أحمد عن عائشة ﵂ قالت : قال رسول الله ﷺ : «إذا كثرت ذنوب العبد ، ولم يكن له ما يكفرها ، ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفّرها».

ولما نزلت هذه الآية ، قال رسول الله ﷺ : «والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ، ولا اختلاج عرق ، ولا عثرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر». وفي حديث آخر : «ما ينزل العقاب إلا بذنب ، ولا يرتفع إلا بتوبة». وروى الواحدي في البسيط : «ما عفا الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة ، وما عاقب عليه في الدنيا ، فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه في الآخرة».

﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ أي ما أنتم أيها المذنبون الكافرون بمعجزين الله حيثما كنتم ، ولا بفائتين عليه هربا في الأرض ، بل ما قضاه عليهم من المصائب ، واقع عليهم ، نازل بهم ، وليس لكم من غير الله ولي يتولى أموركم ، فيمنع عنكم ما قضاه الله ، ولا نصير ينصركم من عذاب الله.

ثم ذكر الله تعالى آيات أخرى دالة على قدرته وعظمته ، فقال :

﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾ أي ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه إجراء السفن السائرة في البحر كالجبال.

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ، فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ﴾ أي إن يرد الله

إيقاف السفن التي تجري ، يجعل الرياح ساكنة ، فتصبح السفن ثوابت سواكن على ظهر البحر ، واقفة على وجه الماء لا تتحرك.

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في أمر السفن المذكور وجريها في البحر لدلالة عظيمة على قدرته تعالى ، لكثير الصبر على الشدائد والبلايا وعلى طاعة الله ، كثير الشكر على النعماء. وهذه جملة معترضة.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي وإن يشأ يهلكهنّ بالغرق بما كسبوا من الذنوب ، ويعف عن كثير من ذنوبهم ، أو عن كثير منهم ، فينجيهم من الغرق ، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم ، لأهلك كل من ركب البحر.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي لينتقم منهم ويعلم حينئذ الذين ينازعون في آيات الله مكذبين بها أنه لا مفر ولا مهرب ولا ملجأ من عذاب الله ، فإنهم مقهورون بقدرة الله وسلطانه.

وبعد بيان أدلة التوحيد حذر الله تعالى من الاغترار بالدنيا ، فقال :

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إن كل ما أعطيتم من الغنى والسعة في الرزق والجاه والسلطان ، فإنما هو متاع قليل في الدنيا يتمتع به في زمن قصير ، ثم سرعان ما ينقضي ويذهب ، لأن الدنيا فانية زائلة لا محالة ، ويلاحظ أن الذي يمنع من قبول دلائل التوحيد إنما هو الرغبة في الدنيا ومطامعها بسبب الرياسة وطلب الجاه ، لذا حذر تعالى من الاغترار بالدنيا ، ورغّب في الآخرة ، فقال :

﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي وما عند الله من ثواب الطاعات وجزاء الجنات خير من متاع الدنيا ، وأبقى وأدوم ، لأنه لا ينقطع ، ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة ، فلا تقدموا الفاني على الباقي. وهو خير

وأبقى للذين صدّقوا بالله ورسوله ، وعلى ربهم يعتمدون في كل شؤونهم ، ويفوضون إليه أمورهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن الإمداد بالرزق يخضع لحكمة الله ومشيئته ، فيعطي بقدر الحاجة ، وعلى وفق المصلحة ، فلو بسط الله الرزق لعباده ، لوقعوا في المعاصي ، وبغى بعضهم على بعض ، لأن الغنى مبطرة مأشرة ، وكفى بقارون وفرعون عبرة ، ولذا قال تعالى : ﴿**إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**﴾ [العلق ٩٦ / ٦ ـ ٧] وقال ﷺ : «أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها».

٢ ـ قال المالكية : أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح ، وإن لم يجب على الله الاستصلاح ، فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه ، قاده ذلك إلى الفساد ، فيزوي عنه الدنيا ، مصلحة له. فليس ضيق الرزق هوانا ، ولا سعة الرزق فضيلة ، وقد أعطى أقواما مع علمه أنهم يستعملونه في الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل ، لكانوا أقرب إلى الصلاح ، والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته ، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى.

٣ ـ يتولى الله أمور عباده بالإحسان والإنعام ، فلو احتاجوا أغناهم بقدر الحاجة ، وأنزل عليهم المطر الذي يكون سببا لوفرة الخيرات والغلال والثمار ، وعمهم بالرحمة ، وهو سبحانه الولي المتولي شؤون عباده وناصر أوليائه المؤمنين ، والمحمود على كل لسان.

٤ ـ من دلائل وجود الله ووحدانيته وقدرته : خلق السموات والأرض

وما فيهما من المخلوقات التي لا يعلم حصرها إلا الله تعالى ، وأنه قادر على جمعهم للحشر والحساب يوم القيامة.

ويرى بعض العلماء استدلالا بقوله تعالى : ﴿وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ﴾ أنه لا يستبعد وجود مخلوقات في الكواكب والعوالم العلوية غير الملائكة ، كما تدل الدلائل الفلكية . وربما اكتشاف سفن الفضاء الحديثة . على وجود حياة في كوكب المرّيخ. وليس في هذا دلالة قطعية ، لأن في تفسير الآية وجها آخر كما تقدم.

٥ . المصائب في الغالب تكون بسبب الذنوب والمعاصي ، فهي عقوبات على السيئات ، وقد تكون للابتلاء كما قال ﷺ فيما رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه عن سعد : «أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل» والقصد من الابتلاء رفع الدرجات ، لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب والآثام ، ويكون حصول المصيبة من باب الامتحان في التكليف ، لا من باب العقوبة ، كما في حق الأنبياء والأولياء.

والعقوبة عن الذنب في الدنيا كفارة له في الآخرة ، وهذا في حق المؤمنين ، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة إلى الآخرة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن آية : ﴿وَما أَصابَكُمْ ...﴾ : هذه الآية أرجى آية في كتاب الله عزوجل . وإذا كان يكفّر عني بالمصائب ، ويعفو عن كثير ، فما يبقى بعد كفارته وعفوه؟!

٦ . إن قدرة الله عامة شاملة لكل شيء ، ومهيمنة على كل شيء ، فلن يستطيع الكفار والمشركون أن يعجزوه أو يفوتوه هربا من سلطانه ، ولن يجدوا لهم في الآخرة وليا يتولى أمورهم ، ويتعهد مصالحهم ، ولا نصيرا يدفع عنهم عذاب الله وانتقامه ، فهم في الدنيا والآخرة في قبضة القدرة الإلهية.

٧ ـ من آيات الله تعالى أيضا على قدرته ، ونعمته على العباد ، هذه السفن السائرة في عرض البحر على سطح الماء عند هبوب الرياح ، أو ما حل محلها من الطاقة الدافعة لمحركاتها ، مما صنعه الإنسان بإلهام الله وتعليمه والتمكن من اكتشافه ، وشأن الأجسام الثقيلة الكثيفة الغرق في الماء ، لكنه تعالى جعل للماء قوة لحمل السفن ومنع الغوص ، ثم جعل الرياح سببا لسيرها ، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح.

والله قادر على جعل الرياح ساكنة هادئة ، فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر ، وقادر على تعطيل آلاتها وإيقاف محركاتها بأيسر الأشياء ، وهو قادر أيضا على جعل الرياح عواصف فيوبق السفن ، أي يغرق ركابها بذنوبهم ، ويعفو عن كثير من أهلها فلا يغرقهم معها ، وحينئذ يعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد أنه لا ملجأ لهم سوى الله تعالى ، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة.

إن في أمر السفن دلالات وعلامات لكل صبار على البلوى ، شكور على النعماء ، قال قطرب : نعم العبد الصبار الشكور ، الذي إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر. وقال عون بن عبد الله : فكم من منعم عليه غير شاكر. وكم من مبتلى غير صابر.

٨ ـ لا ينبغي التفاخر بمظاهر الدنيا ، فإن كل ما فيها من ثروات وقصور ومبان وآلات ، هو متاع يستمتع به في أيام قليلة تنقضي وتذهب. وما عند الله من الثواب على الطاعة خير وأدوم للذين صدّقوا بالله ووحّدوه ، وتوكلوا على ربهم وفوضوا إليه أمورهم.

صفات المؤمنين الكمّل أهل الجنة

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾

الإعراب :

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ .. الَّذِينَ﴾ معطوف مجرور على «الذين» في قوله تعالى : ﴿خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكذلك أيضا قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ في موضع جرّ أيضا بالعطف عليه.

﴿هُمْ يَغْفِرُونَ هُمْ﴾ : إما تأكيد لضمير ﴿غَضِبُوا﴾ و ﴿يَغْفِرُونَ﴾ : جواب إذا ، وإما مبتدأ ، خبره : ﴿يَغْفِرُونَ﴾ والتقدير : فهم يغفرون ، فحذف الفاء في جواب الشرط.

وكذلك قوله تعالى : ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ لَمَنْ﴾ : اسم موصول مبتدأ ، و ﴿إِنَّ ذلِكَ﴾ في حكم المبتدأ الثاني ، والعائد محذوف تقديره : إن ذلك الصبر منه ، وحذف للعلم به ، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره : في موضع رفع ، لأنه خبر المبتدأ الأول.

البلاغة :

﴿كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ﴾ عطف البعض على الكل.

﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ من قبيل المشاكلة ، سمي جزاء السيئة سيئة للتشابه بينهما في الصورة.

المفردات اللغوية :

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ معطوف مع ما بعده على ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. ﴿كَبائِرَ الْإِثْمِ﴾ ما رتب عليه وعيد شديد ، كشهادة الزور وعقوق الوالدين ، أو كل ما يوجب حدا ، كالقتل العمد والقذف والسرقة والزنى ونحوها ﴿وَالْفَواحِشَ﴾ ما فحش وعظم قبحه كالزنى والقتل ونحوهما ، جمع فاحشة ، وهو من عطف البعض على الكل ﴿يَغْفِرُونَ﴾ يعفون ويتجاوزون.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أجابوا إلى ما دعاهم إليه ربهم من التوحيد والعبادة ، وأداء الفرائض وترك النواهي ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ داوموا على إقامتها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ الشورى : مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ، أي أمرهم ذو شورى ، يتشاورون ، ولا ينفردون برأي حتى يتشاوروا وذلك من فرط تيقظهم في الأمور ، وإحكام الخطط ، والظفر بالمطلوب ، والشورى : تبادل الآراء لمعرفة الصواب منها ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في طاعة الله.

﴿الْبَغْيُ﴾ الظلم ﴿يَنْتَصِرُونَ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم ، وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بأكمل الفضائل ، لأن الحلم على العاجز محمود ، وعلى الظالم مذموم ، منعا من الإغراء على البغي ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ﴾ هي الفعلة التي تسيء مرتكبها وهي الفعل القبيح ﴿سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ سميت الثانية (وهي الجزاء) سيئة لمشابهتها للأولى (الجريمة) في الصورة. وهذه المماثلة في العقوبة ظاهرة في الجراحات ، فإنما يقتص فيها بمثلها. ﴿عَفا﴾ عن ظالمة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالود ما بينه وبينه من عداوة ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ أي فثوابه على الله حتما ، وهذا وعد يدل على عظم الموعود ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ البادئين بالظلم ، فيعاقبهم.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ قابل الظالم بمثل فعله بعد أن ظلمه ﴿ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ مؤاخذة أو عتاب ومعاقبة ﴿يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يبتدءونهم بالإضرار ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم على ظلمهم وبغيهم ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الأذى. فلم ينتصر ﴿وَغَفَرَ﴾ تجاوز ﴿إِنَّ ذلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ معزومات الأمور ، بمعنى المطلوبات شرعا أو المشكورة المندوب إليها.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٧):

﴿وَإِذا ما غَضِبُوا ..﴾ قيل : نزلت في عمر حين شتم بمكة ، وقيل : في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاق ماله ، وحين شتم فحلم.

نزول الآية (٣٨):

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا ..﴾ : نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان ، فاستجابوا وأقاموا الصلاة.

نزول الآيات (٤١ . ٤٣):

ذكر الكلبي والفراء أنها نزلت أيضا في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد شتمه بعض الأنصار ، فرد عليه ، ثم أمسك.

المناسبة :

بعد بيان دلائل التوحيد والقدرة الإلهية ، والتنفير من الدنيا ، رغّب تعالى في الآخرة ، فإنها خير وأبقى ، ثم بيّن أن الخيرية تحصل لمن اتصف بصفات معينة ، ذكر أولا منها صفتين وهما الإيمان بالله والتوكل عليه ، وتابع هنا إيراد الصفات الأخرى للمؤمنين وهي : اجتناب كبائر الذنوب والفواحش ، وإطاعة الله تعالى وترك نواهيه ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والتشاور في الأمور العامة والخاصة ، والشجاعة والبأس لاسترداد الحقوق المغتصبة.

التفسير والبيان :

وصف الله تعالى أهل الجنة بالإيمان بالله والتوكل عليه ، وبالصفات التالية :

١ ـ اجتناب الكبائر : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ﴾ أي الذين يجتنبون الوقوع في كبائر الذنوب التي أوعد الله عليها وعيدا شديدا ، كالشرك والقتل العمد وعقوق الوالدين ، والفواحش وهي كل ما استقبحه الشرع والعقل والطبع السليم من قول أو فعل ، كالغيبة والكذب ، والزنى ، والسرقة والحرابة (الإفساد في الأرض).

٢ ـ العفو عند المقدرة : ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم ، ويكظمون الغيظ ، ويحلمون عن ظلمهم ، لأن سجيتهم العفو والصفح وليس الانتقام من الناس. وهذا من محاسن الأخلاق يشفقون على ظالمهم ، ويصفحون عمن جهل عليهم ، يطلبون بذلك ثواب الله وعفوه. جاء في الحديث الصحيح : «ما انتقم النبي ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمات الله».

٣ ـ تمام الانقياد والطاعة لله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي والذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه ، من توحيده والتبرؤ من الشرك ، وأطاعوا الرسل فيما أمر الله به وزجر عنه.

٤ ـ إقام الصلاة : ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة كاملة بإتمام أركانها وشروطها وخشوعها في مواقيتها المفروضة ، وخصت الصلاة هنا بالذكر مع أمهات الفضائل ، لأنها أعظم العبادات لله عزّ وجلّ ، فهي معراج الوصول إلى الله ، أو صلة بين العبد وربه.

٥ ـ الأخذ بنظام الشورى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم في الأمور الخاصة والعامة ، ولا ينفردون برأي في كل أمر من القضايا العامّة ، كتولي الحكم (أو الخلافة) وشؤون تدبير الدولة والتخطيط لمصالحها ، وإعلان الحرب ، وتولية الولاة والحكام والقضاة وغيرهم. وكان النبي ﷺ أكثر

الناس مشاورة لأصحابه ، وسلك الصحابة طريقه ومنهجه في عظائم الأمور كتولية الخلافة وحروب الردة واستنباط الأحكام الشرعية للقضايا والحوادث المستجدة ، وشاور عمر ﷺ الهرمزان حين وفد عليه مسلما [١] ، ولما طعن عمر جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر ، وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف ﷺ ، فاتفقوا على تقديم عثمان ﷺ للخلافة الثالثة.

وإذا كانت الآية هنا تقرر وصفا ثابتا للمؤمنين ، فقد أمر الله تعالى بالشورى في آية أخرى ، فقال : ﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٥٩] وقال الحسن البصري ﷺ : «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم». وقال ابن العربي [٢] : الشورى ألفة للجماعة ، ومسبار للعقول ، وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم إلا هدوا ، وقد قال حكيم :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشّورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي قوة للقوادم

٦ ـ الإنفاق : ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي وينفقون في سبيل الله وطاعته بعض ما رزقناهم من أموال وخيرات ، فالإنفاق من الأغنياء قوة للأمة ، وعلاج لضعفها ، وسبيل للحفاظ على هيبة الدولة ورفعة شأن أفرادها وعزها ، وذلك بالإحسان إلى الأقرب فالأقرب ، ثم للمصالح العامة ، كإغناء المحاويج ، وإعداد القوى الحربية لمجابهة الأعداء.

٧ ـ الشجاعة : ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي إذا تعرضوا للظلم والاعتداء انتصروا ممن ظلمهم ، لأن الانتصار عند البغي واجب وفضيلة ،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٤ / ١٦٥٦

(٢) أحكام القرآن ٤ / ١٦٥٦.

ولأن التذلل لمن بغى يتنافى مع عزة المؤمنين ، إذ العجز والاستضعاف يؤدي إلى إغراء العدو على إلحاق صنوف أخرى من العدوان ، فالمؤمنون أعزة كرام يحافظون على الحقوق والحرمات والكرامة ، وليسوا بالعاجزين والأذلّين ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، فإذا قدروا عفوا.

ولا تعارض بين هذه الآية وبين ما سبقها وهي : ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فإن كل آية لها مجال وموضع ، فالسابقة في موضع ، واللاحقة في موضع ، وذلك لأن العفو قسمان [١] :

الأول ـ أن يكون سببا لتسكين الفتنة ، وتهدئة النفوس ، ورجوع الجاني عن جنايته ، وهذا محمود ، تحمل عليه آيات العفو ، مثل : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٧]. وهذا مرغب فيه في داخل الأمة الواحدة.

الثاني ـ أن يكون سببا لتجرؤ الظالم وتماديه في غيه واستضعافه الأمة ، وهذا مذموم ، تحمل عليه آيات الحث على الانتقام ، وهذا واجب في مقاومة العدو الخارجي ، وعند اغتصاب الحقوق ، ويتوقف على توافر القوة المكافئة أو القدرة المطلوبة في نظام الإسلام بإلزام المؤمن الصمود أمام اثنين من العدو.

والأمثلة الموضحة كثيرة ، منها : عفا يوسف عليه السلام عن إخوته وقال كما حكى القرآن : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ [يوسف ١٢ / ٩٢] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه. وعفا رسول الله ﷺ عن أهل مكة بعد فتحها ، وعفا عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ، ونزلوا من جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم منّ عليهم مع قدرته على الانتقام : وعفا عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه ـ سيف النبي ﷺ .

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٧٧.

وهو نائم ، فاستيقظ ﷺ ، وهو في يديه مصلتا ، فانتهره ، فوقع من يده ، وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده ، ودعا أصحابه ، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل ، وعفا عنه. وكذلك عفا ﷺ عن المرأة اليهودية ـ وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمد بن مسلمة ، التي سمّت الذراع يوم خيبر ـ فأخبره الذراع بذلك ، فدعاها فاعترفت ، فقال ﷺ : «ما حملك على هذا»؟ قالت : أردت إن كنت نبيا لم يضرك ، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك ، فأطلقها ﷺ ، ولكن لما مات منه ـ من السم ـ بشر بن البراء رضي الله عنه ، قتلها به.

وروي أن زينب أقبلت على عائشة ، فشتمتها ، فنهاها النبي ﷺ عنها ، فلم تنته ، فقال النبي ﷺ : «دونك فانتصري» [1] وهذه تطبيق لقوله تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء ٤ / ١٤٨]. أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «المستبّان ما قالا من شيء ، فعلى البادي حتى يعتدي المظلوم» ثم قرأ : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾.

ثم إن الله تعالى لم يرغب دائما في الانتصار ، بل بيّن أنه مشروع فقط ، ثم بيّن بعده أن مشروعيته مشروطة برعاية المماثلة ، ثم أبان أن العفو أولى بقوله : ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾.

وشرط الله تعالى المماثلة بين الجناية والعقوبة في قوله تعالى :

﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ أي إن عقاب السيئة عقاب مماثل للجرم ، وإن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة ، فإذا قال المسيء : أخزاك

---

(١) أخرجه مسلم ، وأخرجه بلفظ آخر النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة ، وجاء فيه : «فقال لي : سبّيها ، فسبتها حتى جفّ ريقها في فمها».

الله ، يقول : أخزاك الله ، من غير أن يعتدي. وسمى جزاء السيئة سيئة ، لأنها تسوء من تنزل به.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٤] وقوله سبحانه : ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٦] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها﴾ [الأنعام ٦ / ١٦٠].

وهكذا فإن جميع العقوبات المدنية والجنائية في الإسلام تجب فيها المماثلة ، فالقصاص مثلا من القاتل عمدا أو في الجروح واجب بقوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٤] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٤] وقوله سبحانه : ﴿وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ﴾ [المائدة ٥ / ٤٥] لكن رغّب تعالى بالعفو في آخر الآية الأخيرة ، فقال : ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ وهنا قال :

﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ أي من عفا عن الظالم المسيء ، وأصلح بالود والعفو ما بينه وبين معاديه ، فثوابه على الله ، يعطيه جزاء أعظم ، كما قال ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة : «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا».

ووصف الله المتقين بقوله : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٣٤].

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي إنه تعالى لا يحب المبتدئين بالظلم ، ولا يحب من يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد فيه ، لأن المجاوزة ظلم. والمراد أنه تعالى يعاقب المتجاوز حده. وهذا تأكيد لمطلع الآية في اشتراط المماثلة نوعا ومقدارا.

ثم أكد الله تعالى مشروعية دفع الظلم والبغي ، فقال :

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ، فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي والله إن المنتصر من الظالم بعد ظلمه له ، لا سبيل عليه بمؤاخذة أو عقوبة ، لأن الانتصار بحق ، فيشرع القصاص في الجنايات العمدية ، والضمان في جنايات الخطأ والإتلافات ، ويجوز الشتم والسب بالمثل دون اعتداء ولا تجاوز.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ، وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ أي إنما المؤاخذة والعقوبة على الذين يبدءون الناس بالظلم ، أو يتعدّون مبدأ المماثلة ، ويتجاوزون الحد في الانتقام ، ويجنون على النفوس والأموال بغير الحق ، ويتكبرون ويتجبرون بظلم الناس ، وسلب الحقوق.

﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أولئك البادئون بالظلم أو المتجاوزون الحدود لهم عذاب مؤلم شديد بسبب اعتدائهم.

ثم أكد الله تعالى الترغيب في العفو والصفح عند المقدرة ، فقال :

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي بعد أن ذم تعالى الظلم وأهله وشرع القصاص ، ندب إلى العفو والصفح ، فقال : إن من صبر على الأذى ، وستر السيئة ، وغفر خطأ من ظلمه ، فإن ذلك الصبر والمغفرة لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة ، التي يثاب عليها بالثواب الجزيل والثناء الجميل ، لأن الإنسان الغاضب يثبت فيها ويرسخ ، ولا ينطلق وراء شهوة الانتقام.

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يأتي :

١ ـ ترغيب المؤمنين بالاتصاف بأمهات الفضائل التي ذكرت في الآيات ليكونوا ورّاث الجنة وأهلها ، وتلك الصفات سبع هي : اجتناب كبائر الإثم والفواحش ، وهي كل ما توعد الله عليه بالعذاب أو أوجب فيه حدا من الحدود

المقدرة شرعا ، والتجاوز والحلم عمن ظلمهم ، والانقياد والطاعة لأوامر الله تعالى ، وإقام الصلاة ، والتشاور فيما بينهم ، والبذل والإنفاق في طاعة الله ، والجرأة والشجاعة في دفع البغي والظلم.

٢ ـ قال ابن العربي : مدح الله المشاورة في الأمور ، ومدح القوم الذين يمتثلون ذلك ، وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الأمور المتعلقة بمصالح الحروب ، وذلك في الآثار كثير ، ولم يشاورهم في الأحكام ، لأنها منزّلة من عند الله على جميع الأقسام : من الفرض ، والندب ، والمكروه ، والمباح ، والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله به علينا ، فكانوا يتشاورون في الأحكام ، ويستنبطونها من الكتاب والسنة ، وإن أول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ، فإن النبي ﷺ لم ينصّ عليها ، حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما هو معروف ، وقال عمر : نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا ، وتشاوروا في أمر الردّة ، فاستقر رأي أبي بكر على القتال ، وتشاوروا في الجدّ وميراثه ، وفي حد الخمر وعدده ، وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب ، حتى شاور عمر الهرمزان حين وفد عليه مسلما في المغازي قائلا : فمر المسلمين فلينفروا إلى كسرى [١].

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأمركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

٣ ـ إن آية ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ هي غالبا في العلاقات الخارجية بين المسلمين وغيرهم ، فقد أصابهم بغي المشركين في الماضي ،

---

(١) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٥٦.

قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بغوا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ، وآذوهم وأخرجوهم من مكة ، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم في الأرض ، ونصرهم على من بغى عليهم ، وذلك قوله في سورة الحج : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ..﴾ الآيات [٣٩ ـ ٤١].

وليست الآية مقصورة على الماضي ، وإنما هي عامة في بغي كل باغ من كافر وغيره ، أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه. وهذا إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود [١] ، وإشارة إلى أن من صفات المؤمنين العزة والكرامة وإباء الذل والشمم ، والاعتزاز بقوة الله والثقة بنصره.

٤ ـ أما إذا كان الظلم بين المسلمين فقط أو بين المسلمين وغيرهم ، فإذا كان الباغي معلنا الفجور ، وقحا يؤذي الصغير والكبير ، فيكون الانتقام منه أفضل ، قال إبراهيم النّخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم ، فتجترئ عليهم الفسّاق. أي أنّه في حال وقوع الأذى أو الضرر العام يكون الانتقام.

وإذا وقعت الجناية خطأ أو فلتة أو تعمدها صاحبها ثم طلب المغفرة ، فالعفو هاهنا أفضل ، وفي مثله نزلت : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٧] وقوله : ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة ٥ / ٤٥] وقوله : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ [النور ٢٤ / ٢٢].

٥ ـ إن آية : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ أصل كبير في علم الفقه وهو مقابلة الجناية بمثلها ، سواء في العقوبات البدنية أو المالية. وتأول الشافعي في هذه الآية : أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه ،

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٣٨ ـ ٣٩.

واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوج أبي سفيان في الحديث المتفق عليه عن عائشة : «خذي من ماله ما يكفيك وولدك» فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه.

٦ ـ اختلف اجتهاد المجتهدين فيما إذا لم يمكن استيفاء الحق إلّا باستيفاء الزيادة ، بسبب التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجاني ، وبين منع المجني عليه من استيفاء حقه ، فأيهما أولى؟ وذكر الرازي أمثلة عشرة لهذا الخلاف [١] أشير إليها بإيجاز :

المثال الأول ـ احتج الشافعي رضي الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذمي وأن الحر لا يقتل بالعبد : بأن قال : المماثلة شرط لجريان القصاص ، وهي مفقودة في هاتين المسألتين ، فوجب ألا يجري القصاص بينهما.

المثال الثاني ـ احتج الشافعي رضي الله عنه في أن الأيدي تقطع باليد الواحدة ، فقال : لا شك أنه إذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم ، فوجب أن يشرع في حق أولئك القاطعين مثله ، لهذه النصوص.

المثال الثالث ـ شريك الأب يشرع في حقه القصاص ، لأنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله ، لقوله تعالى : ﴿وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ﴾ [المائدة ٥ / ٤٥].

المثال الرابع ـ قال الشافعي رضي الله عنه : من حرّق حرقناه ، ومن غرّق غرقناه ، والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شيء بمماثله.

المثال الخامس ـ شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا : تعمدنا الكذب ، يلزمهم القصاص ، لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه ، فوجب أن يصير دمهم مهدرا لقوله تعالى : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٧٩ ـ ١٨٠.

المثال السادس ـ قال الشافعي ﷺ : المكره يجب عليه القود (القصاص) لأنه صدر عنه القتل ، فوجب أن يجب عليه مثله ، أي كالمكره.

المثال السابع ـ قال الشافعي ﷺ : القتل بالمثقل كالحجر والخشب يوجب القود ، لهذه الآية : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ ..﴾.

المثال الثامن ـ الحر لا يقتل بالعبد قصاصا ، كما تقدم ، ولأن القاتل أتلف على مالك العبد شيئا ، فيجب ضمانه ، وإذا وجب الضمان ، وجب ألا يجب القصاص ، إذ لا فرق.

المثال التاسع ـ منافع الغصب مضمونة عند الشافعي ﷺ ، لأن الغاصب فوّت على المالك منافع تقابل في العرف بمال ، فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال ، لهذه الآية : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ ..﴾.

المثال العاشر ـ الحر لا يقتل بالعبد قصاصا لعلة ثالثة وهي أنه لو قتل بالعبد لكان هو مساويا للعبد في المعاني الموجبة للقصاص ، لقوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها﴾ [غافر ٤٠ / ٤٠].

والخلاصة : أن قوله تعالى : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ يقتضي وجوب رعاية المماثلة مطلقا في كل الأحوال إلا ما استثني وخص بدليل.

٧ ـ لمن عفا وأصلح النزاع بينه وبين الظالم بالعفو : أجر كبير عند الله تعالى. والمقصود من قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ التنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم ، لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم ، والانتصار قد يؤدي إلى تجاوز المساواة ، والتعدي ، خصوصا في حال الحرب والتهاب الحمية ، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالما.

٨ ـ للمظلوم الانتصار من الظالم دون مؤاخذة ولا عقوبة ولا حرج وهل له

أن يستوفي ذلك بنفسه؟ هناك ثلاثة أقسام [١] :

الأول ـ القصاص بالنفس إذا ثبت الحق فيه عند الحكام يجوز استيفاؤه من ولي الدم ، لكن يزجره الإمام لجرأته على سفك الدم. أما إذا لم يثبت حقه عند الحاكم ، فيجوز له استيفاؤه ديانة بينه وبين الله ، لكن يؤاخذ قضاء ويعاقب على فعله.

الثاني ـ الحد الخالص لله تعالى الذي لا حق فيه للآدمي كحد الزنى وقطع السرقة : إن لم يثبت عند حاكم عوقب به ، وإن ثبت عند حاكم ، فإن كان قطع يد أو رجل ، سقط به الحد ، ويعزر ، وإن كان جلدا لم يسقط به الحد ، لتعدّيه ، فيؤاخذ بحكمه.

الثالث ـ الحقوق المالية : يجوز أخذها مغالبة ممن هو عالم بها ، أما غير العالم بها ، فإن أمكن أخذها منه بالمطالبة القضائية وجبت ، ويجوز أخذها سرا ، وإن لم يكن أخذها منه بالمطالبة القضائية ، لجحود من هي عنده ، ولا بينه تشهد بالحق ، فيجوز أخذها سرا عند مالك والشافعي ، ولا يجوز ذلك عند أبي حنيفة.

٩ ـ يؤاخذ الظلمة بعدوانهم ، فيعاقبون في الدنيا ، ولهم عذاب أليم في الآخرة ، وذلك سواء أكان الظلم في النفوس أم في الأموال. والحاكم هو الذي يؤاخذ.

١٠ ـ قال ابن العربي في آية ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ..﴾ : هذه الآية في مقابلة الآية المتقدمة في براءة ، وهي قوله : ﴿ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٤١.

﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ [٩٢] فكما نفى الله السبيل عمن أحسن ، فكذلك أثبتها على من ظلم [١].

١١ ـ اختلف العلماء في فرض الحاكم الرسوم والضرائب والأموال على الناس ، هل يجوز الخلاص منها لمن قدر على ذلك ، مع أنه يستوفي جميع المطلوب من الآخرين؟ قال سحنون من المالكية : لا ، وقال أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي : نعم له ذلك إن قدر على الخلاص ، لأن الظلم لا أسوة فيه ، ولا يلزم أحد بظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره ، والله سبحانه يقول : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾.

١٢ ـ اختلف العلماء في التحليل [٢] والمسامحة عن العرض والمال ، فأجازه على العرض والمال سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين من التابعين. ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. ورأى سعيد بن المسيب : ألا يحلله بحال. وجه الرأي الأول : أنه حقه ، فله أن يسقطه كما يسقط دمه وعرضه. ووجه الرأي الثاني : أن التحليل في المال رفق ، وفي العرض يتجرأ الظلمة ويغترون ويسترسلون في أفعالهم القبيحة.

ووجه الرأي الثالث : أنه تحليل ما حرّم الله ، فيكون كالتبديل لحكم الله. والصحيح الجواز بدليل قصة أبي ضمضم الذي كان قد استحل عرضه ، أي سامح من يؤذيه ويشتمه ، فقال النبي ﷺ : فيما روى مسلم في صحيحة : أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟

١٣ ـ إن ثواب المال المأخوذ ظلما لصاحبه طوال حياته وإلى موته ، ثم يرجع الثواب إلى ورثته ، لأن المال يصير لهم بالإرث.

---

(١) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٥٨.

(٢) التحليل هنا : أن يجعل من ظلمه في حلّ.

١٤ ـ من صبر على الأذى ، وغفر بأن ترك الانتصار لوجه الله إذا كان الظالم مسلما ، كان صبره من عزائم الله التي أمر بها ، ومن عزائم الصواب التي وفق لها.

أحوال الكفار أمام النار

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦)﴾

الإعراب :

﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ مِنَ﴾ : ابتدائية ، أو بمعنى الباء.

﴿إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا الْخاسِرِينَ﴾ : اسم إن ، و ﴿الَّذِينَ﴾ : خبرها.

المفردات اللغوية :

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ ومن يخذل الله ، فلا يوفقه إلى الإيمان ويضله بسبب رضاه بالكفر ﴿فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فليس له أحد يلي هدايته ﴿مَرَدٍّ﴾ رجوع إلى الدنيا ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق.

﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْها﴾ على النار ﴿خاشِعِينَ﴾ خائفين ذليلين ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إليها ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ﴾ ضعيف النظر مسارقة ، والطرف : العين ، أو مصدر معناه إطباق أحد جفني العين على الآخر ، والمرة منه : طرفة ، و ﴿مِنَ﴾ ابتدائية ، أي يبتدئ نظرهم إلى النار من تحريك ضعيف لأجفانهم ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض لعذاب الخلد ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿فِي عَذابٍ مُقِيمٍ﴾ دائم. وقوله : ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ تمام كلام المؤمنين ، أو تصديق من الله لهم.

﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي غيره ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ نصراء وأعوان يدفع عذابه عنهم ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق إلى الهدى والنجاة والجنة في الآخرة.

المناسبة :

بعد بيان أن الذين يظلمون الناس ويفسدون في الأرض لهم عذاب أليم على بغيهم وعدوانهم ، ذكر الله تعالى أحوال الكفار عند رؤية عذاب النار ، فهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ، ويقفون أمام النار ذليلين خائفين ، وتتبين خسارتهم الفادحة بخلودهم في العذاب ، دون أن يجدوا أنصارا يخلصونهم من العذاب. وقد بدئت الآيات وختمت ببيان أن الإضلال من الله تعالى ، وأن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى.

التفسير والبيان :

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من يخذله الله بإضلاله إياه ، لعلمه بسوء استعداده للخير والإيمان ، واقترافه المعاصي والآثام ، فما له من أحد يتولى هدايته ونصره ، والأخذ بيده إلى طريق الهدى والرشاد والفوز ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً﴾ [الكهف ١٨ / ١٧] وهذا تحقير لأمر الكفرة ، وبيان أنه لا يقع شيء في الكون من الهدى والضلال وغيرهما إلا بإرادة الله ومشيئته ، حتى لا يوصف بالعجز ، وكشف لأحوال الذين أعرضوا عن دعوة النبي ﷺ إلى الإيمان بالله تعالى ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن.

ثم أخبر الله تعالى عن أحوال الظالمين في الآخرة ، وهم المشركون بالله ، فقال :

١ . ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ : هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ أي وتبصر المشركين الكافرين بالله المكذبين بالبعث ، حين نظروا إلى النار ،

وعاينوا العذاب ، يتمنون الرجوع إلى الدنيا من أي طريق ، قائلين : هل من سبيل إلى الرجعة؟

ونظير الآية قوله : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٧ ـ ٢٨].

٢ ـ ﴿وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ، يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ﴾ أي وتبصرهم أيضا يعرضون على النار ، وهم خائفون أذلاء ، يسارقون النظر إليها من شدة الخوف. وهذا شأن الرهبة من العقاب.

٣ ـ ﴿وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا : إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ أي ويقول المؤمنون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة : إن الخاسرين الخسار الأكبر ، هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، بدخول النار والخلود فيها ، وعلى هذا التأويل يكون ﴿يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ متعلقا ب ﴿قالَ﴾ ويصح أن يتعلق ب ﴿خَسِرُوا﴾ ويكون قول المؤمنين واقعا في الدنيا ، والظاهر : الأول.

أما خسرانهم لأنفسهم ، فلكونهم صاروا معذبين في النار ، دون أمل في النّجارة ، وأما خسرانهم لأهليهم ، فإن كانوا معهم في النار ، فلا ينتفعون بهم ، ولأنهم كانوا هم السّبب في تعذيبهم ، وإن كانوا في الجنة فقد فرّق بينهم وبيتهم.

٤ ـ ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ﴾ أي ألا إن الكافرين في عذاب دائم لا ينتهي ، ولا يخرجون منه ، ولا محيد لهم عنه ، وهذا تتمة كلام المؤمنين أو تصديق من الله لهم فهو من كلامه.

٥ ـ ﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي وليس لهم أعوان وأنصار من غير الله ، ينقذونهم مما هم فيه من العذاب.

٦ . ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ومن يحجب الله عنه توفيقه إلى الإيمان بسبب علم الله السابق بما سيختاره ويقترفه من الآثام ، فلا طريق له إلى النّجاة والجنّة. أي فلا غرابة في وقوع تلك الظّواهر ، لأنهم ضالّون منحرفون عن سبيل الإيمان والحقّ.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ . لا هادي ولا منقذ ولا ناصر لمن خذله الله ، بسبب إعراضه عن الإيمان بالله ، والمودّة في القربى ، والتّكذيب بالبعث ، وعدم إدراكه أن متاع الدنيا قليل.

٢ . يرى المؤمنون الظالمين الكافرين عند عرض النار عليهم ، حال كونهم حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذّلّ ، يرونهم قائلين طالبين أن يردّوا إلى الدنيا ، ليعملوا بطاعة الله ، فلا يجابون إلى ذلك.

٣ . ويرونهم أيضا حين يعرضون على النار أذلّة صاغرين لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تامّا ، لأنّهم ناكسوا الرؤوس ، والعرب تصف الذّليل بغضّ الطّرف.

٤ . يقول المؤمنون في الجنة ، لما عاينوا ما حلّ بالكفار : إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء الكفار ، فإنهم خسروا أنفسهم ، لأنهم في العذاب المخلّد ، وخسروا أهليهم ، لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم ، وإن كانوا في الجنة ، فقد حدثت القطيعة الدائمة بينهم وبينهم ، ألا إن الظالمين في عذاب دائم لا ينقطع.

٥ . ليس لأولئك الكافرين الظالمين أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب

الله ، وليس للأصنام التي كانوا يعبدونها بقصد الشافعة لهم عند الله أي مجال في الشفاعة : ﴿ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾ [غافر ٤٠ / ١٨] ، ومن أضلّه الله وخذله ، فلا طريق له يصل به إلى الحق في الدنيا والجنة في الآخرة ، لانسداد طريق النّجاة عليه.

الاستجابة لنداء الله مالك السموات والأرض

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾

الإعراب :

﴿لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ لا﴾ : نافية للجنس ، و ﴿مَرَدَّ﴾ : اسمها المبني على الفتح ، والجارّ والمجرور الأول : صفة له ، والآخر : خبره.

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً يَجْعَلُ﴾ : بدل من ﴿يَخْلُقُ﴾ بدل البعض من الكلّ.

البلاغة :

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً﴾ فيها ما يسمى بالتّقسيم.

المفردات اللغوية :

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أجيبوا نداء ربّكم إلى ما فيه نجاتكم بالتّوحيد والعبادة الخالصة لله. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ هو يوم القيامة. ﴿لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ لا يردّه الله بعد ما حكم به ، فيكون ﴿مِنَ اللهِ﴾ صلة ﴿لا مَرَدَّ﴾ ويصح كونه صلة ل : ﴿يَأْتِيَ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على ردّه. ﴿مَلْجَإٍ﴾ مأمن أو منجى أو ملاذ تلجؤون إليه. ﴿نَكِيرٍ﴾ إنكار لذنوبكم يومئذ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإجابة ﴿فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ رقيبا أو محاسبا لأعمالهم. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ ما عليك إلا تبليغ الرسالة ، وقد بلّغت. ﴿رَحْمَةً﴾ نعمة كالصحّة والغنى. ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ الضمير يعود لجنس الإنسان. ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بلاء من مرض أو فقر أو خوف أو موت عزيز مثلا. ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما قدّموا لأنفسهم من ذنوب وآثام ، وعبّر بالأيدي ، لأن أكثر الأفعال تزاول بها. ﴿كَفُورٌ﴾ جحود للنّعمة ، نسّاء لها ، ذكّار للبلية ، يذكر البلية ويعظمها ولا يتأمل سببها. وهذا وإن اختصّ بالمجرمين من الناس ، جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه.

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً﴾ الله المالك يهب ويمنح بعض الناس إناثا فقط أو ذكورا فقط ، أو يجعل لهم الذّكور والإناث ، أو يجعل من يشاء عقيما ، فلا يلد ولا يولد له. والمعنى : يجعل أحوال العباد في الأولاد أربعة أصناف مختلفة على مقتضى المشيئة ، ولعل تقديم الإناث ، لتكثير النسل وتطييب قلوب الآباء ، والتّكريم والاهتمام ردا على العرب الذين يعدّونهن بلاء. وعرف ﴿الذُّكُورَ﴾ للمحافظة على فواصل الآيات على نسق واحد : ﴿نَكِيرٍ﴾ ، ﴿كَفُورٌ﴾ ، ﴿الذُّكُورَ﴾. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ إنه تعالى يفعل بحكمه واختيار ، عليم بما يخلق ، قدير على ما يشاء.

المناسبة :

بعد الإفاضة في وعد المؤمنين ووعيد الكافرين وبيان أحوال الكفار أمام النار ، ذكر الله تعالى الهدف والغاية ، وهو الاستجابة لدعوة الله إلى التوحيد والعبادة الخاصة ، محذّرا من أهوال القيامة ، ومبيّنا أنهم إن أعرضوا عن دعوته ، فلا يؤبه بهم ، وأن من شأن الإنسان جحود النعمة ، لبيان سبب إعراضهم

وإصرارهم على مذاهبهم الباطلة ، ثم ذكر تعالى مثلا من تقسيم هبات الأولاد ليكون دليلا على تصرف الله في العالم.

التفسير والبيان :

يحذّر تعالى من أهوال يوم القيامة ، ويأمر بالاستعداد له ، فيقول :

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ أي أجيبوا دعوة ربّكم إلى الإيمان به وبكتبه ورسله ، واتّبعوا ما جاءكم به رسول الله ﷺ ، من قبل مجيء يوم يكون كلمح البصر ، ليس له دافع ، ولا مانع ، فلا يردّه أحد ، أو لا يردّه الله بعد أن حكم به ، وهو يوم القيامة. واستجاب وأجاب بمعنى واحد.

﴿ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي ليس لكم فيه حصن أو ملجأ تتحصّنون أو تلجؤون إليه ، ولا تجدون يومئذ من ينكر ما ينزل بكم من العذاب ، ولا تقدرون إنكار شيء مما اقترفتموه من السّيئات ، لرصده في صحفكم ، وشهادة ألسنتكم وجلودكم به ، فلا ملجأ من الله إلا إليه ، كما قال تعالى : ﴿يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ : أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ كَلَّا لا وَزَرَ ، إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

والنّكير بمعنى المنكر ، كالأليم بمعنى المؤلم ، أو بمعنى الإنكار ، أي إنكار ما ينزل بهم من العذاب ، والنّكير والإنكار : تغيير المنكر.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ، فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ أي فإن أعرض المشركون عن إجابة دعوة الله ورسوله ، فما أرسلناك أيها الرّسول موكّلا بهم ، رقيبا عليهم ، تحفظ أعمالهم وتحصيها ، حتى تحاسبهم عليها ، فما عليك إلا تبليغ ما أرسلناك به ، وليس عليك غيره.

ونظائر الآية كثير ، مثل : ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية ٨٨ / ٢٢] ،

ومثل : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ ، وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٧٢] ، ومثل: ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ ، وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ [الرّعد ١٣ / ٤٠].

وهذا كله تسلية من الله تعالى لرسوله ، ثم بيّن الله تعالى سبب إصرارهم على مذاهبهم الباطلة وهو طبع الإنسان ، فقال :

﴿وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾ أي وإننا إذا أعطينا الإنسان منا نعمة ، وغمرناه بالرّخاء كالصّحة والأمن وسعة الرّزق ، فرح بذلك ، وإن أصيب الناس بسيئة ، كجدب ونقمة ، وبلاء وشدّة ، ومرض أو فقر ، بسبب ما اقترف من المعاصي والذنوب ، فإن الإنسان جحود ما تقدّم من النّعم ، ينساها ولا يذكرها بسبب الضّر الواقع عليه ، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة بطر وأشر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط. والكفور : المبالغ في كفران النّعم.

ويظهر أثر هذا في الواقع المتكرر من أكثر النّساء ، كما قال رسول الله ﷺ للنّساء فيما أخرجه مسلم وابن ماجه عن ابن عمر : «يا معشر النّساء ، تصدّقن ، فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار ، فقالت امرأة : ولم يا رسول الله؟ فقال ﷺ : لأنكنّ تكثرن الشكاية ، وتكفرن العشير ـ الزوج ـ ، لو أحسنت إلى إحداهنّ الدهر ، ثم تركت يوما قالت : ما رأيت منك خيرا قطّ».

أما المؤمن الصالح فشأنه كما قال ﷺ فيما أخرجه أحمد ومسلم عن صهيب : «إن أصابته سرّاء ، شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاء ، صبر ، فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

ثمّ حذّر تعالى من الاغترار بالدنيا ، وما ملكه الإنسان من المال والجاه ، فقال مبيّنا أن الكلّ ملك الله ونعم الله :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إنه تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرّف فيهما بما يريد ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع.

﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً ، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي إنه تعالى يخلق ما يشاء من الخلق والأولاد ، فيرزق من يشاء البنات فقط ، ويرزق من يشاء البنين فقط ، ويعطي من يشاء من الناس الصنفين معا الذّكر والأنثى ، فالتّزويج هنا : الجمع بين البنين والبنات ، ويجعل من يشاء عقيما لا يولد له ، لأن الملك ملكه ، ويمنح على وفق الحكمة والمصلحة ، فإنه سبحانه عليم بمن يستحق كلّ صنف أو قسما من هذه الأقسام ، بليغ عظيم القدرة على ما يريد من تفاوت الناس في ذلك ، على حسب الحكمة والعلم. يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم.

وإنما قدّم الله تعالى أولا الإناث اهتماما وعناية من الله بهنّ بسبب ضعفهنّ ، وردّا على العرب في النّفور من الأنثى ، والفرح بالذّكور. وعبّر عن الإناث بالتّنكير وعن الذّكور بالتّعريف ، للتّنبيه على كون الذّكر أفضل من الأنثى. وقال في إعطاء الإناث وحدهنّ ، وفي إعطاء الذّكور بلفظ الهبة : ﴿يَهَبُ﴾ وقال في إعطاء الصّنفين معا : ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ للدلالة على الاقتران ، أي أنه تعالى يقرن الإناث والذّكور فيجعلهم أزواجا ، وكل شيئين يقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان.

وأما التّعبير بالعقم فللدلالة على قدرة الله في منع الولد مع توافر الأسباب الظاهرة.

وأكثر المفسّرين على أن هذا الحكم عام في حقّ كلّ الناس ، إذ لا معنى

للتّخصيص ، ولأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء وأراد ، لكنهم ذكروا أمثلة لكل حالة ، لتكون سلوة المكروب والمحزون ، فمثال الحالة الأولى : لوط وشعيب عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات فكان للوط بنتان ، ومثال الحالة الثانية : إبراهيم عليه السلام لم يكن له إلا الذّكور وهم ثمانية ، ومثال الحالة الثالثة : محمد ﷺ كان له من البنين أربعة : القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم ، ومن البنات أربعة : زينب ورقيّة وأم كلثوم وفاطمة ، وكلهم من خديجة رضي الله عنها ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية ، ومثال الحالة الرابعة : عيسى ويحيى عليهما السلام . قال واثلة بن الأسقع : إن من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذّكر ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿**يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ**﴾ فبدأ بالإناث.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ على البشر كافة إجابة ما دعاهم الله إليه من الإيمان به والطاعة ، قبل مفاجأتهم بيوم القيامة الذي لا يردّه أحد بعد ما حكم الله به ، وجعله أجلا ووقتا معلوما لديه ، ولا منجا ينجي أحدا من العذاب ، ولا ناصر ينصر.

٢ ـ إن أعرض الناس عن الإيمان ، فليس الرّسول ﷺ موكّلا بهم يستطيع إكراههم على الإيمان ، ولا حافظا لأعمالهم حتى يحاسبهم عليها ، إنما عليه التبليغ فقط.

٣ ـ طبع الإنسان الكافر عجيب غريب ، يفرح ويبطر عند الرحمة والرخاء والصحة والمتعة ، ويجحد النعمة عند البلاء والشدّة بسبب ما اقترف من الذّنوب ، فيعدد المصائب وينسى النّعم.

٤ ـ إن الله تعالى مالك السموات والأرض وما فيهما ، يفعل ويتصرّف في ملكه ما يشاء بمقتضى علم تام دقيق ، وحكمة بالغة ، فيهب الإناث فقط لمن يريد ، والذّكور فقط لمن يريد ، والذّكور والإناث معا لمن يريد ، ويجعل من يشاء عقيما لا يولد له.

جاء في الحديث الصحيح : «إذا سبق ماء الرّجل ماء المرأة أذكرا ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرّجل آنثا» وفي لفظ آخر : «إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله».

أما الخنثى ففيه الذّكورة والأنوثة ، ويغلّب إحداهما بعمل جراحي ، وفي الماضي من حيث يبول ، روى ابن عباس عن النّبي ﷺ أنه سئل عن مولود له قبل وذكر ، من أين يورّث؟ قال : «من حيث يبول» واقتصر النّص القرآني على الغالب في الموجودات ، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأول عن غير العقيم.

أنواع الوحي

﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)﴾

الإعراب :

﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ﴾ : اسم كان ، و ﴿لِبَشَرٍ﴾ : خبرها ، و ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ : منصوب على المصدر في موضع الحال من اسمه تعالى ﴿اللهُ﴾ ، و ﴿مِنْ﴾ متعلّقة بمقدر ، أي إلا موحيا أو مكلّما من وراء حجاب. ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ معطوف بالنّصب على معنى قوله : ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ تقديره : أو أن يرسل رسولا ، لأن ﴿كانَ﴾ مع الفعل في تأويل المصدر ، فيكون عطف مصدر على مصدر ، ويقرأ بالرفع : ﴿أَوْ يُرْسِلُ﴾ على الاستئناف تقديره : أهو يرسل رسولا.

﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ النّفي على الفعل ﴿تَدْرِي﴾ عن العمل ، وكان ما بعده سادّا مسدّ المفعولين.

﴿صِراطِ اللهِ﴾ بدل من الأوّل.

البلاغة :

﴿حَكِيمٌ مُسْتَقِيمٍ﴾ وغير ذلك من مقاطع السورة : فيها ما يسمى توافق الفواصل.

المفردات اللغوية :

﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحّ وما استقام له. ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ الوحي : كلام خفي يدرك بسرعة ، أو إلقاء شيء في القلب بإلهام في اليقظة أو في المنام. وهو يشمل المشافهة به كما في حديث المعراج ، وما وعد به في حديث الرؤية ، والمهتوف به كما حدث لموسى عليه السلام في الطّور وطوى ﴿أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ بأن يسمعه كلامه ولا يراه كما وقع لموسى عليه السلام ، فالآية دليل على جواز رؤية الله في الآخرة ، لا على امتناعها. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ أي إلا أن يرسل رسولا ملكا كجبرئيل عليه السلام . ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾ يوحي الرّسول إلى المرسل إليه بأن يكلّمه ، بإذن الله ، ما يشاء الله. ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته ، فيكلّم تارة بوسيط وتارة بغير وسيط ، إما عيانا ، وإما من وراء حجاب.

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا﴾ أي مثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل. ﴿أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ يا محمد.

﴿رُوحاً﴾ ما أوحى به ، وهو القرآن كالرّوح ، وسمّي الوحي روحا ، لأن القلوب تحيا به. ﴿مِنْ أَمْرِنا﴾ أي من بعض أمرنا الذي نوحيه إليك. ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي﴾ تعرف قبل الوحي إليك. ﴿مَا الْكِتابُ﴾ القرآن. ﴿وَلَا الْإِيمانُ﴾ ولا حقيقة الإيمان الصحيح المشتمل على الشرائع والأحكام

الموحى بها. ﴿وَلكِنْ جَعَلْناهُ﴾ الرّوح أو الكتاب أو الإيمان. ﴿لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تدعو بالوحي إليك إلى الإسلام. ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا. ﴿أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ترجع الأمور ، من غير وسائط ، وفيه وعد ووعيد للمطيعين والمجرمين.

سبب النزول :

نزول الآية (٥١):

﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ ..﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنّبيّ ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيّا ، كما كلّمه موسى؟ فنزلت ، وقال : لم ينظر موسى إلى الله تعالى.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى دلائل كمال قدرته وعلمه وحكمته ونعمته مما هو محسوس ، أتبعه ببيان أنواع وحيه وكلامه إلى أنبيائه من النّعم الروحية ، التي اختصّ بها الأنبياء والرّسل من سائر الناس. وأوضح أن الوحي إلى النّبي ﷺ بالقرآن المشتمل على الشرائع التي تصلح البشر وتهديهم إلى الحق هو مثل الوحي إلى الأنبياء السابقين. وهذا الختام للسورة مشابه لما بدئت به ، لينسجم البدء والختام.

التفسير والبيان :

﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً ، أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي ما صحّ لبشر تكليم الله إلا بوحي يوحى ، أو بسماع كلام من وراء ستار ، أو بواسطة ملك. وقد نفى الله تعالى تكليم أحد من البشر إلا بأحد ثلاثة أوجه تحدث في الدنيا.

الأول ـ الوحي : وهو الإلهام والقذف بمعان تلقى في القلب يقظة في الغالب ، أو في المنام ، كرؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام ذبح ولده. وقد يطلق الوحي على الإلهام المجرد ، كما أوحى إلى أم موسى.

الثاني ـ سماع كلام من وراء حجاب : بأن يسمعه النّبي من غير واسطة متيقنا أنه كلام الله من حيث لا يرى ، كما كلّم موسى عليه السلام ربّه ، وسمّاه الله وحيا بقوله : ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه ٢٠ / ١٣]. وكان موسى قد سأل الرؤية بعد التكليم ، فحجب عنها.

الثالث ـ إرسال رسول : وهو إرسال رسول من الملائكة إما جبريل أو غيره فيوحي ذلك الملك إلى الرّسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليه ، كما كان جبرئيل عليه السلام وغيره من الملائكة ينزلون على الأنبياء عليهم السلام.

إن الله عليّ عن صفات المخلوقين وصفات النّقص ، يفعل ما تقتضيه حكمته حكيم في كل أحكامه ، فيجعل الوحي معتمدا على وسيط ، أو بغير وسيط.

وهذه الأنواع الثلاثة يتيقن النّبي في كلّ منها أن الله تبارك وتعالى هو مصدر الوحي ، دون أي شكّ ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن روح القدس نفث في روعي [1] أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتّقوا الله ، وأجملوا في الطلب».

وقد جاء في السّنّة بيان أنواع الوحي إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم ، روى البخاري في صحيحة عن عائشة رضي الله عنها ـ كما تقدّم ـ «أن الحارث بن هشام رضي الله عنه ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي؟ فقال

---

(١) الرّوع ـ بالضّم : القلب والعقل. والرّوع ـ بالفتح : الفزع.

رسول الله ﷺ : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثّل لي الملك رجلا ، فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقا» أي يسيل عرقا.

ثم ذكر تعالى تشابه الوحي بين النّبي ﷺ وبين الأنبياء السابقين ، فقال :

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ أي مثلما أوحينا إلى سائر الأنبياء ، أوحينا إليك هذا القرآن ، الذي هو من أمر الله ، وهو روح ، لأنه يهتدى به ، ففيه حياة سعيدة بعد موت الكفر ، وكان نزوله حدّا فاصلا بين عهدين ، استيقظ به العرب والمسلمون من رقدتهم ، وصنعوا حضارة سامقة ومجدا.

﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ ، وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾ أي ما كنت أيها النّبي قبل إنزال الوحي عليك تعرف ما القرآن ، ولا معنى الإيمان ، ولا تفاصيل الشرائع ، ولا تهتدي إلى معالمها الصحيحة ، وخصّ الإيمان ، لأنه رأس الشريعة.

ولكن جعلنا هذا القرآن الذي أوحيناه إليك ضياء ونورا نهدي به من نشاء هدايته ، وتخرجه من ظلمات الجهالة والضلال إلى الهداية والمعرفة ، ونرشده إلى الدين الحق ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ﴾ [فصّلت ٤١ / ٤٠] ، وقال سبحانه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء ١٧ / ٨٢] ، وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ ، وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ١٠ / ٥٧].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ

﴿وَما فِي الْأَرْضِ﴾ أي وإنك يا محمد لتهدي بذلك النوع إلى المنهج السليم ، والحق القويم ، الذي هو شرع الله الذي أمر به ، وطريق الله الذي له ملك السموات والأرض ، وربّهما المتصرف فيهما ، والحاكم الذي لا معقّب لحكمه. وفي إضافة الصراط إلى اسم الجلالة تعظيم له وتفخيم لشأنه.

﴿أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي ألا أيها الخلائق ترجع الأمور كلها يوم القيامة إلى الله تعالى ، لا إلى غيره ، فيحكم فيها بقضائه العدل. وهذا وعد للمتّقين المهتدين ، ووعيد للظالمين الكافرين.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

١ ـ إن مظاهر الوحي إلى الأنبياء والرّسل منحصرة في ثلاثة أنواع هي :

الأول ـ الإلهام المباشر والإلقاء في القلب معاني ذات دلالة عامة وصبغة تشريعية ، تستقر في النفس.

الثاني ـ إسماع الله كلامه للنّبي من غير واسطة.

الثالث ـ إرسال رسول من الملائكة لتبليغ الرسالة ، كإرسال جبريل عليه السلام .

٢ ـ فهم المعتزلة من حصر الوحي بهذه الأنواع أن رؤية الله غير جائزة في الآخرة ، إذ لو صحّت رؤية الله تعالى ، لصحّ من الله تعالى أن يتكلّم مع العبد حالما يراه العبد ، فيكون ذلك قسما رابعا زائدا ، وقد نفاه الله تعالى بقوله : ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ ..﴾ إلا على هذه الأوجه الثلاثة.

والجواب أن في الآية قيدا : هو ما كان لبشر أن يكلّمه الله في الدنيا إلا على

هذه الأقسام الثلاثة ، وزيادة هذا القيد مفهومة من السياق ، ويجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآية وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة ، مثل قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ ، إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ [القيامة ٧٥ / ٢٢ ـ ٢٣].

٣ ـ احتجّ بهذه الآية : ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ الإمام مالك والنّخعي على أن من حلف ألا يكلّم رجلا ، فأرسل إليه رسولا ، أنه حانث ، لأن المرسل قد سمّي مكلّما للمرسل إليه ، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب. قال ابن عبد البرّ : ومن حلف ألا يكلّم رجلا فسلّم عليه عامدا أو ساهيا ، أو سلّم على جماعة هو فيهم ، فقد حنث في ذلك كله عند مالك. وإن أرسل إليه رسولا أو سلّم عليه في الصلاة ، لم يحنث.

٤ ـ الصحيح عند أهل الحق أن الملك عند ما يبلّغ الوحي إلى الرسول ، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي.

والملائكة يقدرون على أن يظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة.

ولا يسمى كلام الله مع إبليس من غير واسطة وحيا من الله تعالى إليه.

٥ ـ حقيقة الوحي واحدة بالنسبة لجميع الأنبياء ، ومظاهرها وأنواعها متعددة ، ذكرت الآية منها هنا ثلاثة فقط.

٦ ـ ظاهر الآية : ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي ..﴾ يدلّ على أنه لم يكن النّبي قبل الإيحاء متّصفا بالإيمان ، والصّواب أن الأنبياء معصومون قبل النّبوة من الجهل بالله وصفاته والتّشكك في شيء من ذلك ، وقد تعاضدت الأخبار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ، ونشأتهم على التوحيد والإيمان. وإنما المراد بالإيمان هنا : الشرائع والأحكام المعتمدة على الوحي الإلهي ، فقد أطلق الإيمان على الصلاة في قوله تعالى : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ١٤٣].

والآية دليل على أن النبيّ ﷺ لم يكن قبل النّبوة متعبّدا بشرع ما. وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بدّ أن يكون على دين ، ولكن عين الدّين غير معلومة عندنا. وهذا وإن كان جائزا عقلا ، لكن ليس عليه دليل قاطع.

قال القرطبي : والذي يقطع به أنه ﷺ لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدا من أمته ، ومخاطبا بكلّ شريعته ، بل شريعته مستقبلة بنفسها ، مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعزّ. وأنه ﷺ كان مؤمنا بالله عَزَّوَجَلَّ ، ولا سجد لصنم ، ولا أشرك بالله ، ولا زنى ، ولا شرب الخمر ، ولا شهد السامر [١] ، ولا حضر حلف المطيّبين [٢] ، بل نزهه الله وصانه عن ذلك [٣].

ولكنه ﷺ حضر حلف الفضول ، فقال : «شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت».

٧ ـ لم يكن النّبي ﷺ قبل البعثة عالما بالقرآن ، فهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولا بالإيمان ، أي شرائع الإيمان ومعالمه ، لا أصل الإيمان فإنه ﷺ كان مؤمنا بالله عَزَّوَجَلَّ من حين نشأ إلى حين بلوغه ، كما تقدّم.

٨ ـ إن القرآن العظيم الذي أوحى الله به إلى النّبي ﷺ هو نور وهداية ، يدعو ويرشد إلى دين قويم لا اعوجاج فيه ، وهو دين الإسلام. والمقصود بالهداية : الدعوة إلى الدّين الحقّ وإيضاح الأدلّة.

---

(١) السامر : الموضع الذي يجتمعون فيه للسّمر.

(٢) حلف المطيبين : حدث حينما اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتيم في دار ابن جدعان في الجاهلية ، وجعلوا طيبا في جفنة وغمسوا أيديهم فيه ، وتحالفوا على التّناصر والأخذ من المظلوم للظالم ، فسمّوا المطيبين.

(٣) تفسير القرطبي : ١٦ / ٥٩.

والله الذي أنزله له جميع ما في السموات وما في الأرض ملكا وعبدا وخلقا وإليه مصير الخلائق جميعهم. وهذا وعيد بالبعث والجزاء ، ووعد بالثواب للمؤمنين الصالحين ، وتنبيه إلى أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض ، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله ، والإفادة بأنه تعالى يجازي كلّ إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

٩ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ على أنه كما أن القرآن يهدي ، فكذلك الرسول يهدي ، أي يرشد.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزخرف

مكيّة ، وهي تسع وثمانون آية.

تسميتها :

سميت (سورة الزخرف) لاشتمالها على وصف بعض مظاهر الحياة الدنيا ومتاعها الفاني وهو الزخرف ، أي الذهب أو الزينة المزوقة ومقارنته بنعيم الآخرة الخالد في قوله تعالى: ﴿... **وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ ، وَزُخْرُفاً ، وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [٣٤ . ٣٥].

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حم من وجهين :

الأول ـ تشابه مطلع هذه السورة مع مطلع وخاتمة السورة المتقدمة في وصف القرآن الكريم ، وبيان مصدره : وهو الوحي الإلهي.

الثاني ـ التشابه في إيراد الأدلة القاطعة على وجود الله عَزَّوَجَلَّ ووحدانيته ، ووصف أحوال الآخرة ومخاوفها وأهوال النار التي يتعرض لها الكفار ، ومقارنته بنعيم الجنة وإعداده للمؤمنين المتقين.

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية يتعلق بغرس أصول العقيدة

الإسلامية في النفوس ، وهي : الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له ، والرسالة والنبوة والوحي ، والبعث والجزاء.

بدأت السورة ببيان مصدر القرآن العظيم وهو الوحي الإلهي وتأكيد عربيته ومصداقيته ، وجعله معجزة الإسلام والنبي ﷺ الخالدة إلى يوم القيامة ، وكونه أداة إنذار قريش وقبائل العرب الذين أسرفوا في متع الدنيا ، وكذبوا رسولهم كتكذيب من سبقهم من الأمم.

ثم أبانت بنحو قاطع أدلة وجود الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته ووحدانيته من خلق السموات ، والأرض وتذليلها وتمهيدها وإيجاد طرقها ، وإنزال الغيث النافع عليها ، وخلق أصناف (أزواج) الأشياء والفلك (السفن) والأنعام لأهلها ، واعتراف المشركين صراحة بأن الخالق هو الله عَزَّوَجَلَّ .

ولكنهم لوثوا ذلك الاعتراف بالوثنية والخرافة ، فعبدوا الأصنام والأوثان ، وزعموا أن الملائكة بنات الله ، ولم يجدوا مسوغا لتدينهم الفاسد إلا تقليد الآباء والأجداد ، فصححت لهم آي القرآن انحرافهم ، ونعت جهلهم وسفههم بتلك العبادة الباطلة ، والزعم الذي لا دليل عليه ، وحذرتهم من إنزال مثل العقاب الذي أهلك به الله أمثالهم من الأمم الغابرة.

وأوردت قصص بعض الأنبياء من أولي العزم كإبراهيم الخليل وموسى وعيسى عليهم السلام ليعتبروا بها ويتعظوا بأحداثها ونتائجها. وأردفت قصة إبراهيم بتفنيد شبهة المشركين حول رسالة النبي ﷺ ، حيث اقترحوا إنزالها على أحد رجلين عظيمين من أهل الجاه والثراء في مكة والطائف ، لا على يتيم فقير ، فرد الله عليهم بأن ميزان الاصطفاء للنبوة هو مقومات أدبية خلقية إنسانية ، لا مادية رخيصة ، فالدنيا لا تساوي شيئا عند الله تعالى ، وأنه خشية أن يكون الناس أمة واحدة على ملة الكفر ، لمنحها بجميع زخارفها وأمتعتها الكفار ، ومنعها المؤمنين.

وحذرتهم عقب ذلك من الإعراض عن ذكر الله ، ورغّبتهم في النعيم الأبدي في الآخرة ، وامتنّت عليهم بأن القرآن شرف لنبي الله ﷺ ولهم على السواء : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [٤٤].

ثم ختمت السورة ببيان وصف نعيم الجنة الذي لا مثيل له ، والمخصّص للمؤمنين بآيات الله المسلمين المنقادين لربهم ، وإيضاح أهوال القيامة وشدائد الأشقياء أهل النار حيث يتقلّبون في عذاب جهنم ، وإفلاسهم من شفاعة الأصنام والآلهة المزعومة ، وإعلان اليأس من إيمان هؤلاء المشركين والإعراض عنهم ، فسوف يعلمون ما يلقونه من العذاب.

القرآن كلام الله بلغة العرب وعقاب المستهزئين بالأنبياء

﴿حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٧) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾

الإعراب :

﴿جَعَلْناهُ قُرْآناً﴾ بمعنى صيرناه معدى إلى مفعولين ، أو بمعنى خلقناه معدى إلى واحد ، و ﴿قُرْآناً﴾ حال.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ : خبران ل «إن» و ﴿فِي أُمِّ الْكِتابِ﴾ متعلق ب «علي» أو حال منه ، و ﴿لَدَيْنا﴾ بدل من ﴿أُمِّ الْكِتابِ﴾ أو حال من ﴿الْكِتابِ﴾.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ .. صَفْحاً﴾ : منصوب على المصدر ، لأن معنى ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أفنصفح. و ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ بالفتح بتقدير لأن كنتم ، وقرئ بالكسر : «إن» على أنها شرطية. وفاء ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ للعطف على محذوف ، أي أنهملكم فنضرب عنكم الذكر صفحا.

﴿فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً أَشَدَّ﴾ : مفعول به ، أو حال ، و ﴿بَطْشاً﴾ : تمييز.

البلاغة :

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ...﴾ استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ ، يعني أنا لا نترك هذا التذكير والإنذار بسبب كونكم مسرفين.

المفردات اللغوية :

﴿حم﴾ هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى خطورة الأحكام المبينة في السورة ﴿وَالْكِتابِ﴾ أي أقسم بالقرآن على أنه مجعول قرآنا عربيا ﴿الْمُبِينِ﴾ الموضح لطريق الهدى والشرائع والأحكام ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ﴾ أوجدنا القرآن . ﴿الْكِتابِ﴾ . ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه أيها العرب.

﴿وَإِنَّهُ﴾ مثبت ، معطوف على ﴿إِنَّا فِي أُمِّ الْكِتابِ﴾ اللوح المحفوظ ، فإنه أصل الكتب السماوية ﴿لَدَيْنا﴾ عندنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيع الشأن لكونه معجزا من بينهما ، مهيمنا على الكتب قبله ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة ، أو محكم لا ينسخه غيره.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً﴾ أي أنهملكم ونترككم فنمسك عنكم القرآن إمساكا ، فلا تؤمرون ولا تنهون لأجل ما. أو أننحي عنكم القرآن ، وتنحيته عنهم إعراض ، يقال : ضربت وأضربت عنه : تركته ، و ﴿الذِّكْرَ﴾ : القرآن ، و ﴿صَفْحاً﴾ : إعراضا. والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب بلغتهم ليفهموه.

﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ أي لأن كنتم ﴿قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ متجاوزين الحد في الإسراف ، مشركين بالله ، وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض عنهم ، أي لا نترككم لكونكم مشركين ﴿وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي ما أتاهم نبي إلا استهزءوا به ، وهذا تسلية للنبي ﷺ عن استهزاء قومه.

﴿فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ أشد من قومك قوة ﴿وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سبق وسلف في آيات الله بيان قصتهم العجيبة وإهلاكهم ، فكذلك يكون قومك مثلهم ، والآية وعد للرسول ، ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأولين.

الغاية والهدف من الآيات :

يريد الله تعالى أن يؤكد كون القرآن بلغة العرب ، مما يقتضي إيمان العرب قاطبة به ، فهم أقدر الناس على فهمه وإدراك معانيه ، ويؤكد أيضا أن القرآن كلام الله ومن عنده ، فهو محفوظ مصون في اللوح المحفوظ ، وليس من عند محمد ﷺ كما تزعمون ، وأن الإعراض عنه لا يكون سببا لترك تذكيرهم به ، فضلا من الله ونعمة ورحمة ، وليعتبروا بمصائر أمثالهم من الأمم التي أهلكها الله.

التفسير والبيان :

﴿حم. وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ تقدم بيان المراد من ﴿حم﴾. ثم يقسم الله بالقرآن نفسه البيّن الواضح الجلي المعاني والألفاظ ، المبين طريق الهدى وكل ما يحتاج إليه الناس في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إنا أنزلنا هذا القرآن بلسان العرب أو اللغة العربية التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ، وقد جعلناه بلغة العرب فصيحا واضحا ، لتفهموه أيها العرب ، وتتدبروا معانيه ، كما جاء في آية أخرى : ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٩٥].

والآية جواب القسم ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد. ولعل : للتمني والترجي وهو لا يليق بمن كان عالما بعواقب الأمور ، فكان المراد هاهنا كما ذكر الرازي وغيره : أنزلناه قرآنا عربيا لكي تعقلوا معناه ، وتحيطوا بفحواه.

هذا في الأرض ، وأما في السماء فقال تعالى :

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي وإن هذا القرآن في اللوح المحفوظ عندنا رفيع القدر ، عالي الشأن في البلاغة والإرشاد وغير ذلك [١] ، عظيم الشرف والمكانة ، ذو حكمة بالغة ، ومحكم النظم لا يوجد فيه لبس واختلاف ولا تناقض ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ ، لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٧٧ . ٨٠] وقال سبحانه : ﴿كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ ، فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ، كِرامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس ٨٠ / ١١ . ١٦] [٢].

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾؟ أي أنترككم دون إنذار ، ونطوي عنكم القرآن طيا دون تذكير ، ولا وعظ ولا أمر ولا نهي ، لأنكم قوم منهمكون في الإسراف ، مصرّون على الشرك؟ لا نفعل ذلك لطفا ورحمة منا بكم ، فلا نترك دعوتكم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن ، وإن كنتم مسرفين معرضين عنه ، بل نأمر به ليهتدي المهتدون في قدر الله وعلمه ، وتقوم الحجة على الأشقياء [٣].

ثمّ سلّى الله رسوله عما يلقاه من صدود قومه ، فقال :

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ كَمْ﴾ : هنا خبرية ، أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة ، فكذبوهم ، كما قال تعالى :

﴿وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي وما أتاهم من نبي ولا رسول إلا كانوا به يكذبون ويسخرون ، كتكذيب قومك واستهزائهم بك.

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري : ٢٥ / ٤٣

(٢) وقد استنبط العلماء من هاتين الآيتين أن المحدث لا يمس المصحف ، تشبها بالملائكة الأطهار ، لتعظيمه.

(٣) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٢٢.

﴿فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً ، وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فدمرنا وأهلكنا قوما أشد قوة من هؤلاء القوم المكذبين لك يا محمد ، وقد سلف في القرآن ذكرهم أكثر من مرة وعرفت سنة الله فيهم ، وإذا علمتم ما آل إليه أمرهم بسبب تكذيب الرسل ، فاحذروا الوقوع في مثل مصائرهم.

فالمثل : سنتهم أو عقوبتهم كقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر ٤٠ / ٨٢].

أو المثل : عبرتهم ، أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم ، كقوله تعالى : ﴿فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٦] وقوله سبحانه : ﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ﴾ [غافر ٤٠ / ٨٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الأحكام والمبادئ التالية :

١ ـ القرآن الكريم أنزله الله بلسان العرب ، لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه ، وجميع ما في القرآن عربي مادة ومعنى ، لفظا ونظما ، فقد أقسم الله سبحانه بالقرآن أنه جعله عربيا ، وأنه جعله مبيّنا ، فهو المبيّن للذين أنزل إليهم ، لأنّه بلغتهم ولسانهم ، ولأنه الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة ، وأبان فيه أحكامه وفرائضه.

٢ ـ ليس إنزال القرآن باللغة العربية دليلا على أنه خاص بالعرب دون العجم ، لأن نصوصه قاطعة الدلالة على عالمية الإسلام للناس كافة ، كما هو معروف في مواضع متقدمة ، لذا كان تفسير ابن زيد لقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ : لعلكم تتفكرون هو الأولى ، لأنه على هذا التأويل يكون خطابا عاما للعرب

والعجم. أما على تفسير ابن عيسى : لعلكم تفهمون أحكامه ومعانيه ، فيكون خاصا للعرب دون العجم [١].

والظاهر إرادة كلا المعنيين ولا يلزم التخصيص بالعرب ، لأن عموم الرسالة الإسلامية من المبادئ الكبرى المعروفة.

وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يدل ـ كما ذكر الرازي ـ على أن القرآن كله معلوم ، وليس فيه شيء مبهم مجهول ، خلافا لمن يقول : بعضه معلوم ، وبعضه مجهول [٢].

٣ ـ وصف الله تعالى القرآن في السماء بأنه في اللوح المحفوظ لقوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج ٨٥ / ٢١ ـ ٢٢] ، ثم وصف اللوح المحفوظ بأربع صفات هي :

الأولى ـ أنه ﴿أُمِّ الْكِتابِ﴾ وأصل كل شيء : أمه ، أي أن القرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ.

الثانية ـ وأنه لدى الله بقوله ﴿لَدَيْنا﴾. وإنما خصه الله بهذا التشريف لكونه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته.

الثالثة ـ كونه عليا ، أي كونه عاليا عن وجوه الفساد والبطلان.

الرابعة ـ كونه حكيما ، أي محكما في وجوه البلاغة والفصاحة ، وذو حكمة بالغة.

ويرى مفسرون آخرون أن هذه الصفات كلها صفات القرآن.

وهذا على تفسير أم الكتاب باللوح المحفوظ ، وفي تفسير آخر أنه الآيات المحكمات لقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ ، مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ٦١.

(٢) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٩٣.

﴿أُمُّ الْكِتابِ﴾ [آل عمران ٣ / ٧] والمعنى : أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.

٤ ـ إن اختيار المشركين دين الشرك لا يمنع من تذكيرهم ، ووعظهم ، وأمرهم ، ونهيهم ، لطفا من الله ورحمة بهم ، وقطعا لحجتهم بعدم البيان والتكليف.

٥ ـ إن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء ، فلا داعي أيها الرسول وأتباعه للتأذي من أقوام ، بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء ، لأن المصيبة إذا عمّت خفّت.

٦ ـ إن عدد الأنبياء في البشر كثير ، فما أكثر ما أرسل الله من الأنبياء ، ولكن الله تعالى أهلك أقوامهم الذين كذبوهم واستهزءوا بهم ، بالرغم من أنهم كانوا أقوى من هؤلاء المشركين في أبدانهم وأتباعهم. ومضى مثلهم في الأمم الغابرة. والمثل : العقوبة أو السنّة أو الوصف والخبر ، أي سلفت عقوبتهم ، أو صفة الأولين بأنهم أهلكوا على كفرهم ، أو مضت سنة الله فيهم.

فإذا سلك كفار مكة وغيرهم في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم ، فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم ، فقد ضرب الله لهم مثلهم ، كما قال : ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٣٩] ﴿وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤٥].

من مصنوعات الله تعالى وصفاته

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ اللام : لام القسم و ﴿لَيَقُولُنَ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو الضمير لالتقاء الساكنين.

﴿ما تَرْكَبُونَ﴾ حذف العائد اختصارا ، أي تركبونه ، وإنما قال ﴿تَرْكَبُونَ﴾ مع أنه يقال : ركبوا الأنعام ، وركبوا في الفلك ، لأنه غلب المتعدي بغير واسطة ، لقوّته على المتعدي بواسطة ، فقيل : تركبونه.

﴿عَلى ظُهُورِهِ﴾ جمع الظهر مراعاة لمعنى ﴿ما﴾ وذكّر الضمير نظرا للفظ ﴿ما﴾.

البلاغة :

﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ تشبيه بليغ ، أي كالمهد وهو الفراش ، حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

﴿فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ استعارة تبعية ، شبّه الأرض قبل نزول المطر بالميت ، ثم أنشرها الله ، أي أحياها بالمطر.

﴿كَذلِكَ تُخْرَجُونَ تَرْكَبُونَ لَمُنْقَلِبُونَ﴾ سجع غير متكلف.

المفردات اللغوية :

﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ هذا مقول المشركين ، أي خلقهن ذو العزة والعلم ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ استئناف من الله تعالى ، المهد : الفراش ، كالمهد للصبي ، فتستقرون فيها ﴿سُبُلاً﴾ : طرقا ، جمع سبيل ، أي طريق ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك.

﴿بِقَدَرٍ﴾ بمقدار أو تقدير ينفع ولا يضر ، بحسب الحاجة ، ولم يجعله طوفانا ﴿فَأَنْشَرْنا﴾ أحيينا ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ خالية من النبات ، وتذكير كلمة «ميت» لأن البلدة بمعنى البلد والمكان ﴿كَذلِكَ﴾ مثل ذلك الإنشار (الإحياء) ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها﴾ أصناف المخلوقات ﴿الْفُلْكِ﴾ السفن ﴿وَالْأَنْعامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ﴾ لتستقروا على ظهور ما تركبون ﴿سَخَّرَ﴾ ذلل ﴿مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين ، مأخوذ من أقرن الشيء : إذا أطاقه ، وأصله : وجده قرينه ﴿لَمُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون ، فالنقلة العظمى هي الانقلاب إلى الله تعالى ، لتجازى كل نفس بما كسبت.

المناسبة :

هذه الآيات تذكير للمشركين المسرفين في أعمالهم وإعراضهم عن القرآن بأنهم يقرون بوجود الخالق ، وتذكير لهم أيضا بنعم الله ومصنوعاته وصفاته التي عدّد منها هنا ثماني صفات ، ثم أردفها بتعليم عباده ذكر الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم ، فعنه ﷺ : أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فإذا استوى على الدابة قال : الحمد لله على كل حال ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا﴾ . إلى قوله . ﴿وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾.

التفسير والبيان :

ذكر الله تعالى في هذه الآيات كما أشرت ثماني صفات له وهي :

١ ـ ٣ : كونه خالقا للسموات والأرض ، العزيز ، العليم : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي تالله لئن سألت

أيها النبي هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره من قومك : من الذي خلق السموات والأرض؟ لأجابوا واعترفوا بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهو العزيز ، أي الغالب القوي ، إشارة إلى كمال القدرة ، العليم ، أي الواسع العلم ، إشارة إلى كمال العلم.

وكمال القدرة والعلم دليل على أن الموصوف به قادر على خلق جميع الممكنات. ومع هذا فهم يعبدون مع الله إلها آخر من الأصنام والأنداد.

٤ ـ الذي جعل الأرض ممهدة كالفراش : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ أي إنه تعالى الذي جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش والبساط ، صالحة للإقامة والاستقرار عليها ، فمع أنها تدور وتتحرك ، فهي ثابتة أرساها الله بالجبال ، لئلا تميد وتضطرب.

٥ ـ وخلق فيها الطرق : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي وأوجد فيها الطرق والمسالك بين الجبال والأودية ، لتهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم ، وتنتقلوا إلى أرجاء البلاد ، للمتاجرة وطلب الرزق والسياحة وغير ذلك.

٦ ـ منزل الغيث النافع وباعث الناس : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ ، فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ، كَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي والله هو الذي أنزل المطر من السماء بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة للزروع والثمار والشرب ، ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم ، لئلا يحدث الطوفان والغرق وهدم المنازل وتلف المزارع ، ولا دون الحاجة ، حتى لا يكفي النبات والزرع والناس.

فأحيينا بذلك الماء البلاد الميتة المقفرة التي لا نبات فيها ، فلما جاءها الماء ، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. وكما أحيينا الأرض بعد موتها نحيي الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، وتبعثون من قبوركم أحياء.

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر ٣٥ / ٩].

وظاهر الآية هنا يقتضي أن الماء ينزل من السماء ، والواقع أنه ينزل من السحاب ، وسمي نازلا من السماء ، لأن كل ما سماك أو علاك فهو سماء. وقوله : ﴿وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ كما يدل على قدرة الله وحكمته ، فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ، ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة ، كهذه الأرض التي أحييت بالنبات الأخضر والثمر اليانع بعد ما كانت ميتة.

٧ ـ كونه خالقا أصناف الأشياء : ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها﴾ أي والله هو الذي خلق الأصناف كلها من نبات وزرع وشجر وثمر ، وإنسان وحيوان وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه.

٨ ـ خالق وسيلة الركوب من الفلك والأنعام : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾ أي والله الذي خلق لكم بالإلهام والتعليم وسيلة الركوب في البحر وهي السفن ، وأوجد واسطة الركوب في البر من الأنعام وهي الإبل ، إذ المعهود أنه لا يركب من الأنعام إلا هي ، والله هو الذي ذلّلها لكم وسخّرها ويسّرها لركوب ظهورها ، وكذا لأكل لحومها وشرب ألبانها والانتفاع بأوبارها ، قال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة : «بينما رجل راكب بقرة إذ قالت له : لم أخلق لهذا ، إنما خلقت للحرث ، فقال النبي ﷺ : آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر» [١].

ولا تقتصر وسائل الركوب على السفن والإبل ، فهناك آية أخرى تشمل الدواب والسيارات والقطارات والطائرات ونحوها من وسائل المواصلات الحديثة ، وهي قوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨].

---

(١) ولم يكونا حاضرين حينئذ.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَقُولُوا : سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي لتستقروا ولتستعلوا متمكنين مرتفقين على ظهور هذا الجنس من المخلوقات وهو ما تركبونه من الفلك والأنعام ، ثم تذكروا مع التعظيم في قلوبكم وألسنتكم نعمة الله التي أنعم بها عليكم من تسخير المراكب في البحر والبر ، فتعرفوا أن الله تعالى خلق وجه البحر صالحا للأبحار والرياح قوة دافعة ، وعلّم الإنسان كيفية صنع السفينة على نحو يتمكن فيها من الأبحار عليها إلى أي مكان شاء وأراد.

وتقولوا إذا استويتم وركبتم على المركوب. ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي تنزيها لله ، عن كل عجز ونقص لا يليق ، الذي ذلل لنا هذا المركب ، وما كنا مطيقين لتسخيره لو لا أن سخره الله لنا.

﴿وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي وإنا لصائرون راجعون إليه بعد مماتنا ، فيجازي كل نفس بما عملت من خير أو شر. ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك والأنعام عرضة لخطر الهلاك ، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت وأن يعتقد أنه هالك لا محالة ، وأنه راجع إلى الله تعالى.

أخرج مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : «إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته ، كبّر ثلاثا ، ثم قال : ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ثم يقول : اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا السفر ، واطو لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا ، وأخلفنا في أهلنا». وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : «آيبون تائبون إن شاء الله عابدون ، لربنا حامدون».

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١ ـ إذا سئل المشركون عمن خلق السموات والأرض لأجابوا بأن الخالق هو الله القوي الغالب الكامل العلم ، فأقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم.

٢ ـ الله تعالى كامل القدرة فهو سبحانه الذي مهد لنا الأرض وجعلها صالحة للعيش عليها بسلام واستقرار ، وأوجد فيها المعايش والطرق لنسلكها إلى حيث أردنا ، ولنهتدي بها في الأسفار ، ونستدل بمقدوراته على قدرته.

٣ ـ الله تعالى لطيف بعباده رحيم بهم ، فهو جل وعز ينزل المطر النافع بقدر الحاجة ومقتضى الحكمة ، فلا يجعله طوفانا مغرقا ، ولا قليلا قاصرا عن الحاجة ، حتى يكون معاشا صالحا للأنفس والأنعام ، فينبت به الزرع والشجر ، ويخرج به الغلال والثمار.

ومن قدر على إحياء الأرض بعد جدبها ، قدر على بعث المخلوقات من القبور.

٤ ـ الله تعالى جميل يحب الجمال ، فهو الذي نوّع الأشياء كلها ، وأوجد فيها الأصناف المختلفة ، وأبدع مباهج الحياة ، وجعل فيها الحيوية والحركة بالانتقال في أرجاء الأرض بوسائط الركوب المتنوعة برا وبحرا وجوا.

٥ ـ قال القرطبي : علّمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرّفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ، وهي قوله تعالى : ﴿**وَقالَ : ارْكَبُوا فِيها ، بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ**

رَحِيمٌ﴾ [هود ١١ / ٤١] فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحّمت [١] أو طاح من ظهرها فهلك ، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا [٢] ..

والخلاصة : هناك أذكار ثلاثة ما ينبغي لعبد أن يدع قولها ، وليس بواجب ذكرها في اللسان ، وهي دعاء السفر في البحر : ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ودعاء السفر في البر : ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا ..﴾ ودعاء دخول المنازل : ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[٣].

عبادة المشركين الملائكة

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩) وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ

---

(١) تقحم الفرس براكبه : ألقاه على وجهه.

(٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ٦٧.

(٣) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٩٨ وما بعدها.

فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾

الإعراب :

﴿مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً﴾ أي من رجال عباده ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ وَجْهُهُ﴾ : إما اسم ﴿ظَلَ﴾ أو بدل من ضمير مقدر فيها مرفوع ، لأنه اسمها. و ﴿مُسْوَدًّا﴾ : خبرها ، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ : جملة اسمية في موضع نصب على الحال.

﴿أَمِ اتَّخَذَ .. أَمِ﴾ : بمعنى بل والهمزة ، وتقديره : بل أأتخذ مما يخلق بنات ، ولا يجوز أن يكون بمعنى «بل» بغير همزة ، لأنه يؤدي التقدير إلى الكفر ، وهو : بل اتخذ بنات.

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ مَنْ﴾ : إما في موضع نصب بتقدير فعل ، أي أجعلتم من ينشأ ، أو في موضع رفع ، لأنه مبتدأ ، وخبره محذوف أي كائن ، وهو قول الفراء.

البلاغة :

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ تأكيد بإن واللام وصيغة المبالغة على وزن فعول وفعيل.

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ أسلوب تهكمي يراد به التوبيخ ، والتقريع ، وبين لفظ «البنات» و «البنين» طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً﴾ أي جعل المشركون بعد ذلك الاعتراف بأن الله هو الخالق ، من عباده ولدا ، حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، باعتبار أن الولد جزء من أبيه ، والملائكة من عباد الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ﴾ قائل ما تقدم ﴿لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ بالغ الكفر وظاهر الكفر.

﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ بل أأتخذ ، والهمزة ، في ﴿أَمِ﴾ همزة الإنكار والتعجب ، أو القول مقدر أي أتقولون : اتخذ ﴿وَأَصْفاكُمْ﴾ خصكم واختاركم ، وهذا لازم من قولكم السابق ﴿ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً﴾ أي جعل له شبها بنسبة البنات إليه ، لأن الولد يشبه الوالد ﴿ظَلَ﴾ صار ﴿مُسْوَدًّا﴾ متغيرا لما يعتريه من الكآبة ، وقرئ : مسود ومسواد ، على أن في ﴿ظَلَ﴾ ضمير المبشر ، و ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ : جملة واقعة موقع الخبر ﴿كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غما وغيظا.

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي أو يجعلون لله من يتربى في الزينة؟ والهمزة همزة الإنكار ، وواو العطف يعطف جملة : يجعلون لله .. إلخ ﴿الْخِصامِ﴾ الجدل والنقاش ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غير مظهر الحجة لضعفه عنها وعجزه عن الجدل بالأنوثة. وفيه دلالة على فساد ما قالوه.

﴿أَشَهِدُوا﴾ أحضروا خلق الله إياهم ، فشاهدوهم إناثا؟ ﴿سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ﴾ بأنهم إناث ﴿وَيُسْئَلُونَ﴾ عنها في الآخرة ، فيعاقبون على شهادة الزور ، وهو وعيد ﴿وَقالُوا : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ ما عبدنا الملائكة ، فعبادتنا إياهم بمشيئته ، فهو راض بها ، أي إنهم استدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها أو على حسنها ، وذلك باطل ، لأن المشيئة ترجح بعض الممكنات على بعض ، مأمورا كان أو منهيا ، حسنا كان أو غيره ، ولذلك حكم عليهم بالجهل بقوله تعالى : ﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ليس لمقولهم من الرضا بعبادتهم أدنى علم بمراد الله ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون فيه ويحدسون ، فيعاقبون عليه.

﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي هل أعطيناهم كتابا من قبل القرآن ينطق بصحة ما قالوه ، ويقرر عبادة غير الله؟ ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ متمسكون بذلك الكتاب ، والمعنى : لم يقع ذلك.

﴿مُتْرَفُوها﴾ منعموها وأهل الترف فيها ﴿عَلى أُمَّةٍ﴾ ملة أو طريقة ومذهب ﴿مُقْتَدُونَ﴾ متبعون ، قال البيضاوي : هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى ..﴾؟ أي قال لهم النذير نبيهم : أتتبعون ذلك ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ وهذا حكاية أمر ماض أوحي إلى النذير ﴿قالُوا : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ أي قال الأقوام للنذير : إنا كافرون بما أرسلت به أنت ومن قبلك. ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ﴾ قال الله : فانتقمنا من المكذبين للرسل قبلك ﴿عاقِبَةُ﴾ مصير ونهاية ، فلا تكترث بتكذيبهم.

بسبب النزول :

نزول الآية (١٩):

﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ ..﴾ : أخرج ابن المنذر عن قتادة قال : قال ناس من

المنافقين : إن الله صاهر الجن ، فخرجت من بينهم الملائكة ، فنزل فيهم : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ..﴾.

نزول الآية (٢٢):

﴿بَلْ قالُوا : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا ...﴾ حكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش ، أي وكما قال هؤلاء فقد قال من قبلهم أيضا ، يعزّي نبيه ﷺ.

المناسبة :

بعد بيان اعتراف المشركين بأن الله خالق السموات والأرض ، ذكر الله تعالى ما يناقض ذلك وهو ادعاؤهم أن الملائكة بنات الله ، فلم يقتصروا أن جعلوا لله ولدا ، وإنما جعلوه من الإناث ومن الملائكة ، فرد تعالى عليهم بأجوبة ثلاثة : نفرتهم من الإناث ، وضعف الإناث ، وجهلهم بحقيقة الملائكة.

ثم ذكر تعالى شبهة أخرى للمشركين : وهي أن عبادة الملائكة بمشيئة الله ، ورد عليهم بأن المشيئة ترجيح بعض الأشياء على بعض ، ولا دلالة فيها على الرضا والغضب أو الحسن والقبح ، فهم جهلة كاذبون ، وليس لهم دليل نقلي صحيح يعتمدون عليه إلا محض التقليد للآباء والأجداد ، دون برهان معقول ، وشأنهم في الكفر شأن من سبقهم من الأمم التي كذبت الرسل. فانتقم الله منهم وأهلكهم.

التفسير والبيان :

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أي إن المشركين بالرغم من اعترافهم بألوهية الله وكونه خالق السموات والأرض ، أثبتوا له ولدا ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، باعتبار أن الولد جزء من أبيه ، قال ﷺ فيما رواه أحمد والحاكم عن المسور : «فاطمة بضعة مني» إن الإنسان جحود نعم ربه جحودا

بيّنا ، يقابل وضوح النعمة ، فيكون الجحود من أبين الكذب. والآية متصلة بقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ..﴾.

وهذا من جهلهم بالله وصفاته ، واستخفافهم بالملائكة حيث نسبوا إليهم الأنوثة ، ونسبوهم إلى الله نسبة تقتضي نسبة الأضعف من نوعي الإنسان ، فالله ليس كمثله شيء ، فلا يشبهه أحد من خلقه ، ونسبة الولد له تقتضي جعله مشابها للحوادث ، فلا يصلح إلها ، ولأن هذا الادعاء للجزء يجعل الله مركبا من أجزاء فهو حادث.

ثم أنكر تعالى عليهم أشد الإنكار ، فقال :

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾؟ أي وإذا نسبتم الولد إلى الله ، : لزم منه أن الله اتخذ ولدا له من أضعف الجنسين ، واختار لكم الأفضل ، وهذا يعني أنه جعل لنفسه المفضول من الصنفين ، ولكن الفاضل منهما ، فكيف يصح هذا مع أنه تعالى هو الخالق؟ وهذا كقوله تعالى : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾ [النجم ٥٣ / ٢١ . ٢٢] أي جائرة.

ومعنى قوله : ﴿أَمِ اتَّخَذَ ...﴾ بل أاتخذ؟ الهمزة للإنكار تجهيلا لهم وتعجيبا من شأنهم حيث جعلوا ذلك الجزء أضعف الجزأين ، وهو الإناث دون الذكور.

ثم ذكر الله تعالى تتمة الإنكار والتوبيخ والتعجيب ، فقال :

﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين بما جعل لله مشابها ، وهو الأنثى ، أنف من ذلك واغتم ، وعلته الكآبة من سوء ما بشّر به ، فصار وجهه متغيرا ، وأضحى ممتلئا غيظا ، شديد الحزن ، كثير الكرب ، فكيف تأنفون أنتم من البنت ، وتنسبونها إلى الله عَزَّوَجَلَّ ؟!.

وللآية شبيه تام هي قوله تعالى : ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ، ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ ...﴾ الآية [النحل ١٦ / ٥٨ ـ ٥٩].

ثم أكد الله تعالى الإنكار ، فقال :

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ ، وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي أو يجعل للرحمن من الولد من صفته أنه يتربى في الزينة والنعمة ، وإذا احتاج إلى مخاصمة غيره لا يقدر على الجدال وإقامة الحجة؟ فلا بيان عنده ، ولا يأتي ببرهان يدفع ما يجادل به خصمه ، لنقصان عقله وضعف رأيه.

والآية دليل على رقة المرأة وغلبة عاطفتها عليها ، وميلها إلى التزين والنعومة ، وعلى أن التحلي بالذهب والحرير مباح للنساء ، وأنه حرام على الرجال ، لأنه تعالى جعل ذلك عنوانا على الضعف والنقصان ، وإنما زينة الرجل : الصبر على طاعة الله ، والتزين بزينة التقوى ، كما قال الرازي.

ومن مفتريات المشركين عدا ما ذكر من نسبة الإناث إلى الله : زعمهم أن الملائكة إناث ، كما قال تعالى :

﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً﴾ أي حكموا بأن الملائكة إناث ، وهذا مترتب على قولهم السابق : الملائكة بنات الله.

فأنكر الله عليهم ورد مقالهم بقوله :

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾؟ ﴿سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ ، وَيُسْئَلُونَ﴾ أي هل حضروا وشاهدوا خلق الله إياهم حتى يشهدوا بأنهم إناث ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً ، وَهُمْ شاهِدُونَ﴾؟ [الصافات ٣٧ / ١٥٠] ستكتب شهادتهم بذلك في ديوان أعمالهم ، لنجازيهم على ذلك ، ويسألون عنها يوم القيامة ، فهي شهادة

زور. وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد بالعذاب ، ودليل على أن الادعاء من غير برهان وإثبات جريمة.

واستدلّ بهذه الآية : ﴿هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ﴾ من قال بتفضيل الملائكة على البشر.

ثم أورد الله تعالى شبهة أخرى للمشركين ، ولونا آخر من ألوان افتراءاتهم ، فقال :

﴿وَقالُوا : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ أي قال الكفار : لو أراد الله ما عبدنا هذه الملائكة ، فإنه قادر على أن يحول بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله ، ويريدون بذلك القول أن الله راض عن عبادتهم للأصنام. وهو احتجاج بالقدر ، وكلمة حق يراد بها باطل ، لأن المشيئة لا تستلزم الأمر ، إذ هي ترجيح بعض الممكنات على بعض بحسب علمه ، والله يأمر بالخير والإيمان ، ونحن لا نعلم مشيئته أو إرادته إلا بعد وقوع الفعل منا.

وقد جمعوا في هذا القول بين أنواع كثيرة من الخطأ والكفر كما ذكر ابن كثير :

١ ـ جعلهم لله تعالى ولدا ، تقدّس وتنزّه عن ذلك.

٢ ـ دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين ، إذ زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى.

٣ ـ عبادتهم لهم بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله عَزَّوَجَلَّ ، بل بمجرد الأهواء وتقليد الأسلاف ، وتخبّط الجاهلية.

٤ ـ احتجاجهم بتقدير الله ذلك ، وتقديرهم على طريقتهم قدرا ، وهذا جهل شديد ، فإن الله منذ أن بعث الرّسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده

لا شريك له ، وينهى عن عبادة سواه [١] ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النّحل ١٦ / ٣٦] ، وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزّخرف ٤٣ / ٤٥].

ونحو الآية : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا﴾. [الأنعام ٦ / ١٤٨] ، ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس ٣٦ / ٤٧].

فردّ الله تعالى عليهم بقوله :

﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ليس لهم أي علم أو دليل بصحة ما قالوه واحتجّوا به ، وما هم إلّا يكذبون فيما قالوا ، ويتقولون ، فإن الله يأمر بالحق والإيمان والخير ، ولا يرضى لعباده الكفر والفحشاء. والآية دليل على جهلهم الفاضح ، وكذبهم وافترائهم الباطل.

ثم أبطل الله تعالى قولهم بالدليل النقلي قائلا :

﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي أأعطيناهم كتابا من قبل هذا القرآن ينطق بما يدّعون ، مكتوبا فيه : اعبدوا غير الله؟ فهم يتمسكون بذلك الكتاب ، ويحتجون به ، أي ليس الأمر كذلك ، كقوله تعالى : ﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٣٥] أي لم يكن ذلك أصلا.

ثم ذكر الله تعالى : أنه لا حجّة لهم إلا التّقليد ، فقال :

﴿بَلْ قالُوا : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ بل إنهم

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٢٥.

قالوا : لقد وجدنا آباءنا على طريقة ساروا عليها في عبادتهم الأصنام ، وإنا سائرون على منهجهم مهتدون بهديهم. وهذا اعتراف صريح منهم بأنه ليس لهم مستند ولا حجّة عقلية ولا نقلية على الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد واتّباعهم في الضّلالة. وقولهم : ﴿وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ﴾ . أي وراءهم . ﴿مُهْتَدُونَ﴾ مجرد دعوى منهم بلا دليل.

ثم أبان الله تعالى تشابه الأمم في الكفر والتّقليد والمقالة ، فقال :

﴿وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ أي إن مقال هؤلاء قد سبقهم إليه أشباههم من الأمم السالفة المكذّبة للرّسل ، فمثل تلك المقالة قال المترفون المنعّمون . وهم الرؤساء والزّعماء والجبابرة . من كل أمّة لرسولهم المرسل إليهم للإنذار من عذاب الله : إنّا وجدنا آباءنا على ملّة ودين ، وإنّا على طريقتهم سائرون متبعون.

وخصص المترفين تنبيها على أن التّنعم هو سبب المعارضة وإهمال النّظر وترك التفكّر في مضمون الرّسالة الإلهية.

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا : ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، أَتَواصَوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ﴾ [الذّاريات ٥١ / ٥٢ ـ ٥٣].

وإنما قال أولا : ﴿مُهْتَدُونَ﴾ لادعاء الهداية كآبائهم ، ثم قال ثانيا : ﴿مُقْتَدُونَ﴾ حكاية عن قوم تابعوا آباءهم في فعلهم ، دون ادّعاء الهداية ، والمعنى تقريبا واحدا.

وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ، وتنبيه على أنّ التّقليد في الاعتقاد والعبادة ضلال قديم.

ثم ذكر تعالى جواب الرّسل لأقوامهم عن التّقليد ، قائلا :

﴿قالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ﴾ أي قال لهم رسولهم : أتتبعون آباءكم ، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟!

فأجابوه معلنين كفرهم صراحة ، في قوله تعالى :

﴿قالُوا : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ أي قالوا : لا نعمل برسالتك ، ولا سمع لك ولا طاعة ، وإنا كافرون جاحدون بما أرسلتم به ، ومستمرون ثابتون على دين الآباء والأسلاف. والمراد أنهم لو علموا وتيقّنوا صحة ما جئتهم به أيها الرّسول ، لما انقادوا لذلك ، لسوء قصدهم ، ومكابرتهم للحقّ وأهله. وقوله : ﴿بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ يعني بكل ما أرسل به الرّسل ، فالخطاب للنّبي ﷺ ، ولفظه لفظ الجمع ، لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه.

وما بعد الإصرار على الكسر إلا النّقمة والإهلاك ، فقال تعالى :

﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فانتقمنا من الأمم المكذّبة للرّسل بأنواع من العذاب ، كعذاب قوم نوح وعاد وثمود ، فانظر أيها المخاطب كيف كان مصير أمر المكذبين من تلك الأمم كيف بادوا وهلكوا ، وإن آثارهم موجودة ، وعبرة للنّاظر المعتبر. وهذا وعيد وتهديد لأهل مكة ، وسلوة للرّسول ، وإرشاد له إلى عدم الاكتراث بشأن قومه من رسالته.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي :

١ ـ للمشركين افتراءات كثيرة ، منها هنا : نسبة البنات إلى الله تعالى ، فقالوا : الملائكة بنات الله ، فجعلوهم جزءا له وبعضا ، كما يكون الولد بضعة من والده وجزء له. وقد عجّب الله المؤمنين من جهلهم ، إذ أقرّوا بأن خالق السموات

والأرض هو الله ، ثم جعلوا له شريكا أو ولدا ، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به ، لأن هذا من صفات النّقص ، كما أبان القرطبي.

ومن افتراءاتهم المذكورة في سورة أخرى : جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم (الأوثان) وبعضها لله تعالى ، كما حكى تعالى عنهم قائلا : ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً ، فَقالُوا : هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ، وَهذا لِشُرَكائِنا ، فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ ، فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ ، وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ**﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٦].

٢ ـ ومن افتراءاتهم أنهم جعلوا له من الأولاد الأقل والأضعف وهو البنات.

٣ ـ وبّخهم الله تعالى على افتراءهم ذاكرا أنه كيف يتّخذ البنات ـ كما زعموا أن الملائكة بنات الله ـ واختصّهم وأخلصهم بالبنين؟!

٤ ـ لم يعقل المشركون ما افتروه على الله في نسبتهم البنات له ، فإنهم لا يرضونه لأنفسهم ، فإنه إذا بشّر الواحد منهم بولادة بنت له ، اسودّ وجهه غمّا وكدرا ، وأنف من نسبة البنت له ، وأضحى حزينا مكروبا ، فكيف ينسب إلى الله ما هو نافر منه؟!

ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله ، فقد جعل الملائكة شبها لله ، لأن الولد من جنس الوالد وشبهه ، ومن اسودّ وجهه مما ينسب إليه مما لا يرضى ، أولى من أن يسودّ وجهه بنسبة ذلك إلى من هو أجلّ منه ، فكيف إلى الله عَزَّوَجَلَّ ؟!

٥ ـ وكيف يصح أن يجعل الله له من لا همّ له إلا الحلي والزّينة ، وإذا خوصم لا يقدر على الدّفاع عن نفسه؟

وفي هذه الآية دلالة ـ كما تقدّم ـ على إباحة الحلي للنّساء ، وتحريمه على الرجال ، وهو حكم مجمع عليه ثابت بأخبار كثيرة.

٦ ـ أوضح الله تعالى كذب المشركين وجهلهم في نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم في تحكمهم بأن الملائكة إناث ، وهم بنات الله ، وحكمهم من غير دليل بأنهم إناث ، فكيف تجرؤوا حتى حكموا بأنهم إناث ، ولم يحضروا حالة خلقهم؟!

إن شهادتهم الباطلة هذه مكتوبة عليهم في ديوان أعمالهم ، ويسألون عنها في الآخرة.

٧ ـ ومن شبه المشركين المفتراة احتجاجهم بالقدر الإلهي ، فقالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية : لو شاء الرّحمن على زعمكم أيها المؤمنون ما عبدنا هذه الملائكة ، والله أمرنا بهذا أو رضي لنا ذلك ، ولهذا لم يعاجلنا بالعقوبة. وهذه كلمة حقّ أريد بها باطل ، فإن كل شيء بإرادة الله ، وعلمه نافذ لا محالة ، لكن الإرادة أو المشيئة لا تقتضي الأمر والرّضا وليس الأمر والإرادة متطابقين ، ولا نعلم مراد الله ، فكان علينا العمل بأمره ونهيه ، وليس لقولهم : الملائكة بنات الله أي دليل علمي ، وما هم إلّا يحدسون ويكذبون ، فلا عذر لهم في عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ . وقوله : ﴿**هُمْ عِبادُ الرَّحْمٰنِ**﴾ يفيد حصر العبودية في الملائكة ، وذلك يدلّ على الفضل والشّرف ، مما يوجب كونهم أفضل من غيرهم.

٨ ـ كذلك ليس لهم دليل نقلي على زعمهم ، ولا كتاب لديهم بما ادّعوه قبل هذا القرآن.

٩ ـ لا دليل للمشركين على شركهم إلا التّقليد الأعمى لآبائهم وأسلافهم ، وهم لما عجزوا عن الدّليل لم يجدوا بدّا من الاعتماد على تقليد الآباء ، قائلين بأنهم وجدوهم على تلك الملّة أو الطّريقة والمذهب ، فقلّدوهم واهتدوا بهديهم.

وهذا دليل على إبطال التّقليد في العقائد والأصول ، لأن الله ذمّهم على تقليد آبائهم ، وتركهم النّظر فيما دعاهم إليه الرّسول ﷺ .

١٠ ـ إن مقالتهم تلك تشبه مقالة من سبقهم من الأمم المكذبة لرسلها ، فإنّ أهل التّرف والرؤساء فيهم اقتدوا بالآباء والأجداد دون دليل.

١١ ـ إنهم مصرّون على الشرك والتّقليد الأعمى ، حتى ولو جاءهم رسول الله من عند الله بأهدى وأرشد من ذلك الدّين الباطل.

١٢ ـ إن المنتظر أمام هذا الإصرار على الكفر ما ذكره تعالى وهو الانتقام الشديد من الكافرين ، وتدميرهم وإهلاكهم ، وآثارهم ظاهرة للعيان ، عبرة للمعتبر ، فيا أهل مكة وأمثالكم انظروا في مصيركم المرتقب.

الرّد على تقليد الآباء ، واختيار الأنبياء وبيان حال الدنيا

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (٣٠) وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا

يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾

الإعراب :

﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي من إحدى القريتين ، فحذف المضاف ، وأراد ب ﴿الْقَرْيَتَيْنِ﴾ : مكة والطائف.

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً لِبُيُوتِهِمْ﴾ : بدل من ﴿لِمَنْ﴾ بإعادة الجار ، بدل الاشتمال ، وقرئ «سقفا» و «سقفا» فسقف : جمع سقف ، نحو رهن ورهن. وسقف : واحد ناب مناب الجمع.

﴿وَزُخْرُفاً﴾ إما منصوب بفعل مقدر ، أي وجعلنا لهم زخرفا ، أو معطوف على موضع قوله تعالى : ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾. ﴿وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ إِنْ﴾ : مخففة من الثقيلة ، واسمها : إما ﴿كُلُ﴾ إلا أنه لما خففت نقصت عن شبه الفعل ، فلم تعمل وارتفع ما بعدها بالابتداء على الأصل ، وإما بتقدير الهاء أي إنه كل ذلك ، فحذف اسمها وهو الهاء وخففت ، فارتفع ﴿كُلُ﴾ بالابتداء ، وجملة ﴿كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ ..﴾ من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر ﴿إِنْ﴾. وهذا التقدير ضعيف لتأخير اللام في الخبر. و ﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا ، ويصح أن تكون ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى ما. ويقرأ «لما» بالتخفيف ، فتكون ما : زائدة أو موصولة وصدر الصلة محذوف.

البلاغة :

﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ كَلِمَةً﴾ : مجاز مرسل ، والمراد بال ﴿كَلِمَةً﴾ : الجملة التي قالها ، وهي : ﴿إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ﴾ واذكر يا محمد وقت قول إبراهيم هذا ، ليروا كيف تبرأ من التقليد ، وتمسّك بالدّليل. ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر. ﴿بَراءٌ﴾ بريء من عبادتكم أو معبوديكم ، وهو مصدر نعت به ، فيستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث ، وقرئ «بريء» و «برآء» ككريم وكرماء. ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقني ، وهو استثناء منقطع ، أي لكن الذي فطرني ، أو متّصل على أن

«ما» تعمّ ما كانوا يعبدون وهو الله والأوثان ، كأنه قال : إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يرشدني إليه ، وهو مقرر لما قال مرة أخرى : ﴿يَهْدِيَنِ﴾ كأنه قال : فهو يهدين وسيهدين ، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال.

﴿وَجَعَلَها﴾ أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد وهي قوله : ﴿إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ في ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحّد الله ويدعو إلى توحيده. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحّد ، فيرجع عما كان عليه إلى دين إبراهيم أبي الأنبياء والمسلمين ، وهو يشمل أهل مكة وغيرهم.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ﴾ أي هؤلاء المعاصرين للرسول من قريش وآباءهم ، فاغتروا بذلك وانهمكوا في الشهوات ، ولم أعاجلهم بالعقوبة. وقرئ «متعت» بالفتح على أنه تعالى اعترض به على ذاته : ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً﴾ مبالغة في تعبيرهم ﴿حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُ﴾ القرآن ودعوة التوحيد. ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة بماله من المعجزات ، أو مبين للتوحيد بالحجج والآيات المتضمنة الأحكام الشرعية ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُ﴾ القرآن. ﴿لَوْ لا﴾ هلا. ﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحدى القريتين : مكة والطائف. والرجلان هما : الوليد بن المغيرة من مكة ، وكان يسمى ريحانة قريش ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف. ﴿عَظِيمٍ﴾ زعيم ذي جاه ومال ، فإن الرّسالة منصب خطير لا يليق إلا بعظيم ، ولم يعلموا أن معيار اختيار الأنبياء هو التّحلي بالفضائل والكمالات الأدبية ، لا بالاعتبارات الدنيوية.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكّمهم ، والرّحمة : النّبوة. ﴿قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ جعلنا معيشتهم مقسومة فيما بينهم ، فبعضهم غني ، وبعضهم فقير ، ويتفاوتون في مرتبتي الغنى والفقر. ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ﴾ جعلنا بينهم تفاوتا في الرّزق وغيره. ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ﴾ وهو الغني. ﴿بَعْضاً﴾ وهو الفقير. ﴿سُخْرِيًّا﴾ مسخرا في العمل بالأجرة ، أي يستعمل بعضهم بعضا في حوائجهم ، والياء : للنسب ، وقرئ بكسر السين «سخريا». ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي النّبوة وما يتبعها ، أو الجنّة. ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا.

﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ أي خشية أن يكون جميع الناس على ملّة واحدة وهي الكفر. ﴿سُقُفاً﴾ جمع سقف ، وقرئ : «سقفا». ﴿وَمَعارِجَ﴾ ومصاعد جمع معرج كمنبر ، وقرئ : «معاريج» جمع معراج. ﴿عَلَيْها يَظْهَرُونَ﴾ يصعدون ويعلون إلى السطوح. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً﴾ من فضة. ﴿وَسُرُراً﴾ من فضة ، جمع سرير. ﴿يَتَّكِؤُنَ﴾ يستندون. ﴿وَزُخْرُفاً﴾ ذهبا أو زينة مزوقة ، والمراد به الزينة كما قال تعالى : ﴿حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ

﴿زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس ١٠ / ٢٤] ، ومعنى الآية : لو لا خوف الكفر على المؤمنين من إعطاء الكافر ما ذكر ، لأعطيناه ذلك لاحتقار الدنيا عندنا.

﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلّا [١] ، وإن نافية ، وعلى قراءة التخفيف «لما» تكون ما زائدة. ﴿مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ ما يتمتع به فيها ثم يزول. ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي نعيم الآخرة وهو الجنة عند الله ـ عندية مكانة وتشريف لا عندية مكان ـ لمن اتّقى الكفر والمعاصي.

سبب النّزول :

نزول الآيتين (٣١ ـ ٣٢).

تقدّم في سورة يونس في الآية (٢) سبب نزول الآية ﴿لَوْ لا نُزِّلَ ..﴾ وفيه : أخرج ابن جرير عن ابن عباس «أن العرب قالوا : وإذا كان النّبي بشرا فغير محمد كان أحق بالرّسالة : ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يكون أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف ، فأنزل الله ردّا عليهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾».

وروى ابن المنذر عن قتادة «أن الوليد بن المغيرة ـ وكان يسمى ريحانة قريش ـ كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقّا لنزل عليّ أو على أبي مسعود ، فقال الله تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النّبوة. فيضعونها حيث شاؤوا».

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى فساد اعتماد المشركين على التّقليد في العقائد والأصول ، بيّن فساده بأسلوب المشركين أنفسهم ، وهو أن إبراهيم الخليل عليه السلام

---

(١) حكى سيبويه : نشدتك الله لما فعلت كذا ، أي إلا فعلت كذا.

أبو العرب وأشرف آبائهم تبرأ من دين آبائه بالدّليل ، وحكم بأن اتّباع الدّليل أولى من متابعة الآباء ، فوجب تقليده في ترك تقليد الآباء وفي ترجيح الدّليل على التّقليد.

ثم أبان الله تعالى مفاسد اعتماد قريش على التّقليد وترك التّفكر في الحجة والدّليل ، وهي : أولا ـ اغترارهم بالمهلة والمدّ في العمر والنّعمة ، واشتغالهم بالتّنعم واتّباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ، وثانيا ـ تكذيبهم رسول الله ﷺ ووصفهم له بأنه ساحر كذاب ، وثالثا ـ قولهم بأن الرّجل الشريف وهو كثير المال ورفيع الجاه هو الأحقّ بالنّبوة من محمد الفقير اليتيم.

فردّ تعالى عليهم بأنه هو الذي قسم الأرزاق والحظوظ بين عباده ، وأن التّفاوت في شؤون الدنيا هو الأصلح لنظام المجتمع ، وأن ميزان الاصطفاء للنّبوة إنما يعتمد على القيم الأدبية والروحية والأخلاقية ، وألا قيمة للدنيا وأمتعتها وزخارفها وثرواتها ، ولو لا خوف انتشار الكفر وشموله بين العالم ، لجعل الله للكفار ثروات طائلة ، وبيوتا ذات سقف وأبواب وسرر ومصاعد من فضة ، وزينة في كل شيء ، وإنما نعيم الآخرة للمتّقين الذين يتّقون الكفر والمعاصي.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن إبراهيم الخليل إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وأشرف آباء العرب عليه السلام بأنه تبرأ من دين الآباء بالحجة والدليل ، فقال :

﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**﴾ أي واذكر أيها الرّسول لقومك قريش المعتمدين على تقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام : حين تبرأ إبراهيم عليه السلام مما يعبد أبوه آزر ، وقومه من الأصنام ، إلا من عبادة خالقه وخالق الناس جميعا ، والذي قال بأنه سيرشدني لدينه ، كما أرشدني في الماضي ، ويثبتني على الحق. وقوله : ﴿**إِلَّا الَّذِي**

﴿فَطَرَنِي﴾ إما استثناء متّصل ، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم ، وإما منقطع ، أي لكن الذي فطرني فهو يهديني ، قال ذلك ثقة بالله ، وتنبيها لقومه أن الهداية من ربّه.

﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان ، جعلها دائمة في ذريته ، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى منهم ، فلا يزال فيهم ـ ولله الحمد ـ من يوحّد الله سبحانه ، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم كأهل مكة ، فإنهم إذا ذكروه ، تبعوه في ملّته الحنيفية ، وتأثّروا بأبوته إن كانوا يدعون تقليد الآباء. قال قتادة : «لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة».

ثمّ ندّد الله تعالى بموقف أهل مكة ووبّخهم على اغترارهم بالنّعمة وطول العمر واستمرار السّلطة والنّفوذ ، فقال :

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي بل متّعت هؤلاء المشركين من أهل مكة وآبائهم من ذريّة إبراهيم بطول العمر والسّعة في الرّزق ، وأنعمت عليهم في كفرهم ، فاغتروا بالمهلة ، وأكبّوا على الشّهوات وطاعة الشّيطان ، وشغلوا بالتّنعم عن كلمة التّوحيد ، إلى أن جاءهم الحق وهو القرآن العظيم ، والرّسول المبين الذي أوضح مبدأ التّوحيد بالبراهين الساطعة ، وشرع الله وأحكامه القاطعة ، وهو محمد ﷺ.

وزاد في توبيخهم بإعراضهم عن رسالة الحقّ ـ رسالة محمد ﷺ ـ فقال :

﴿وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ ، قالُوا : هذا سِحْرٌ ، وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ﴾ أي حينما جاءهم القرآن والرّسول المؤيّد بالمعجزات دليلا على صدقه ، وصفوا ما جاء به بأنه سحر وأباطيل ، وليس بوحي من عند الله ، وقالوا : إنّا بما أرسل به جاحدون مكابرة

وعنادا وحسدا وبغيا ، فضمّوا إلى شركهم وضلالهم تكذيب الحق ورفضه ، والاستهزاء به ، والتّصريح بالكفر برسالته وإنكار نبوته.

ثم ذكر الله تعالى نوعا آخر من الكفر وهو النّوع الرّابع من كفرياتهم المذكورة في هذه السورة [١] ، فقال :

﴿وَقالُوا : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي وقال كفار قريش وأمثالهم : هلا أنزل القرآن على أحد رجلين عظيمين من مكة أو الطائف ، وهما الوليد بن المغيرة ومسعود بن عروة الثقفي ، فكل منهما عظيم المال والجاه ، وسيد في قومه. المعنى : أنه لو كان قرآنا لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين. وهذا اعتراض منهم على الله الذي أنزل القرآن على رسوله.

فأبطل الله تعالى هذه الشّبهة من ثلاثة وجوه :

الأول . ﴿أَهُمْ﴾[٢]﴿يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ أي إن هؤلاء المشركين تجاوزوا حدودهم وأقدارهم ، فأرادوا أن يجعلوا ما لله لأنفسهم ، وليس الأمر مردودا إليهم ، بل إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا وأشرفهم وأطهرهم أصلا. أيجوز لهم أن يقسموا رحمة ربّك وهي النّبوة ، فيختاروا لها من يريدون؟ نحن الذين نقسم الأرزاق والحظوظ بين العباد ، ونفضل بعضهم على بعض درجات في القوة والضعف ، والعلم والجهل ، والشهرة والخمول ، والغنى والفقر ، لأنا لو سوّينا بينهم في هذه الأحوال لم يتعاونوا فيما بينهم ، ولم يتمكنوا

---

(١) الثلاثة المتقدمة : هي جعلهم الملائكة بنات الله ، وجعل الملائكة إناثا ، وقولهم : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ.

(٢) الاستفهام هنا للإنكار والتّعجب.

من استخدام بعضهم بعضا ، فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض ، وإلا فسد نظام العالم. وليس المعنى في الاستخدام أو الاستئجار أو الاستعمال على عمل شيء من الذّلّ والمهانة ، لأن حقوق العامل مصونة في الإسلام ، وعلى صاحب العمل واجبات خلقية ومادية كثيرة توجب عليه التّرفع عن الغبن والظلم والأذى والإساءة ، فإن عجزوا عن تغيير نظام الدنيا ، فكيف يعترضون على حكمنا بتخصيص النبوة والرّسالة في بعض العباد؟! والمعنى : إنكار أن الرّزق منهم ، فكيف تكون النّبوة منهم؟!

الوجه تكون النّبوة منهم؟! الوجه الثاني . ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي إن ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة خير مما يجمعون من الأموال وسائر متاع الدنيا ، وإذا خصّ الله بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدّين ، فهذه الرّحمة خير من أموال الدنيا كلها ، لأن عرض الدنيا زائل ، ورحمة الله وفضله باق دائم.

ثم أبان الله تعالى حقارة الدنيا ، فقال :

الوجه الثالث . ﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ ، وَزُخْرُفاً﴾ أي ولو لا الخوف وكراهة أن يكون الناس كلهم على ملّة الكفر ، ميلا إلى الدنيا وزخرفها ، فلا يبقى في الأرض مؤمن ، لأعطينا الكفار ثروات طائلة ، وجعلنا سقف بيوتهم ، وسلالمهم ومصاعدهم التي يرتقون ويصعدون عليها ، وأبواب البيوت والسّرر التي يتكئون عليها من فضة خالصة ، وذهب وزينة ونقوش فائقة ، لهوان الدنيا عند الله تعالى.

﴿وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي ليس كل ذلك إلّا شيئا يتمتع به تمتعا قليلا في الدنيا ، لأنها زائلة قصيرة الأجل ، والآخرة بما فيها من أنواع النّعيم والجنان هي لمن اتّقى الشّرك والمعاصي ، وآمن

بالله وحده ، وعمل بطاعته ، فإنها الباقية التي لا تفنى ، ونعيمها الدائم الذي لا يزول ، وهي لهم خاصة ، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم.

أخرج التّرمذي ، وابن ماجه والبغوي والطّبراني عن سهل بن سعد ﵁ عن النّبي ﷺ قال : «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء» ، وفي رواية : «لو كانت الدنيا ..» ، وفي رواية الطبراني «أنه لما آلى النّبي ﷺ من نسائه ، جاءه عمر بن الخطاب ﵁ ، فرآه على رمال حصير ، قد أثّر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء ، وقال : يا رسول الله ، هذا كسرى وقيصر ، هما فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه ، وكان رسول الله ﷺ متكئا ، فجلس وقال : أو في شكّ أنت يا ابن الخطاب؟ ثم قال ﷺ : أولئك قوم عجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» وفي رواية «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» (١).

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ لقد تبرأ إبراهيم ﵇ من عبادة الأصنام ، وخرج على المألوف الفاسد بالحجة والدليل.

٢ ـ إن ترك التّقليد في العقيدة والرّجوع إلى متابعة الدّليل واجب متعيّن على كلّ إنسان في أمر الدّين ، وكذلك ترك التّقليد ، واتّباع الدّليل هو الأولى في شؤون الدنيا أيضا ، ليكون المرء على بيّنة من أمره ، إلا فيما تتطلبه ظروف القيادة الحربية ونحوها للحفاظ على الأسرار ، فيجب تنفيذ أمر القائد وطاعته ، وإن لم يعرف الدّليل.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٢٧.

٣ ـ جعل إبراهيم عليه السلام كلمة التّوحيد ومقالته السابقة : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ باقية في عقبه ، وهم ذريته ، ولده وولد ولده ، أي إنهم توارثوا البراءة من عبادة غير الله ، وأوصى بعضهم بعضا في ذلك. والعقب : من يأتي بعده.

٤ ـ قال ابن العربي : كان لإبراهيم في الأعقاب دعوتان مجابتان :

إحداهما ـ في قوله : ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ : لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ٢ / ١٢٤] ، فقد قال له : نعم ، إلا من ظلم منهم ، فلا عهد له.

ثانيهما ـ قوله : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٣٥].

وقيل : بدل الأولى : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٤] ، فكلّ أمّة تعظّمه ، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو في نوح [١].

٥ ـ وقال ابن العربي أيضا : جرى ذكر العقب هاهنا موصولا في المعنى بالحقب ، أي متّصلا مستمرا على ممرّ السنين ، وذلك مما يدخل في الأحكام وترتب عليه عقود العمرى [٢] أو التّحبيس ، قال النّبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أبو داود والنسائي ، عن جابر : «أيّما رجل أعمر عمرى له ولعقبه ، فإنها للذي أعطيها ، لا ترجع إلى الذي أعطاها ، لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث» [٣] ، أي إن الهبات والأوقاف تشمل الدرجة الأولى من الأولاد ذكورا وإناثا ، وولد الذّكور دون الإناث لغة وشرعا في الدرجة الثانية وما يليها ، وهذا مذهب المالكية.

---

(١) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٦٦

(٢) العمرى : تمليك الشيء مدة العمر.

(٣) أحكام القرآن ، المرجع والمكان السابق.

وقال جماعة كابن عبد البرّ وغيره : إن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس (الأوقاف الذّرية أو الأهلية).

٦ ـ عجبا لقريش وأمثالها متّعهم الله وآباءهم بوافر النّعم في الدنيا ، ولما جاء الحقّ وهو القرآن المشتمل على التوحيد والإسلام الذي هو أصل دين إبراهيم ، وكلمته الباقية في عقبه ، وجاءهم الرّسول محمد ﷺ ، كفروا به وقالوا : إنه سحر لا وحي.

٧ ـ وقالوا أيضا : هلا نزل هذا القرآن على رجل عظيم من إحدى القريتين : مكة والطائف ، إما الوليد بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبي جهل من مكة ، وإما أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف ، ظانين أن النبوة لصاحب المنصب العالي والرجل الشريف وهو كثير المال ، رفيع الجاه.

وفاتهم أن معيار الاصطفاء للنّبوة إنما هو القيم الرّوحية والأدبية والنّفسية. وفاتهم أيضا أنهم يتدخلون في ولاية الله وسلطانه ومشيئته ، فيضعون النّبوة حيث شاؤوا ، وهذا افتئات على سلطان الله ، فإن مرسل الرّسل هو الذي يختارهم ، وفاتهم كذلك أن رحمة الله وفضله ونعمته في الآخرة وهي الجنة ، ونعمته في الدنيا وهي النبوة أفضل مما يجمعون من الدنيا.

٨ ـ إن الله سبحانه هو لا غيره الذي يقسم الأرزاق والحظوظ بين عباده ، بمقتضى حكمته ومشيئته ، فيفقر قوما ويغني آخرين ، فإذا لم يكن أمر الدنيا لأحد من العباد ، فكيف يفوّض أمر النّبوة إليهم؟!

٩ ـ وإن الله تعالى هو الذي يفاضل بين عباده ويفاوت بينهم في مقومات الحياة وقيمها من القوة والضعف ، والعلم والجهل ، والحذاقة والبلاهة ، والشهرة والخمول ، لأن تحقيق المساواة في هذه الأمور يؤدي إلى الإخلال بنظام العالم ،

ويفسد المصالح ، ويعطّل المكاسب ، فيعجز الواحد من تسخير غيره لخدمة أو عمل ، مقابل أجر عادل.

١٠ ـ ليس التّفوق المادي في الدنيا دليلا على صلاح أصحابه ، إذ لا قيمة للدنيا وثرواتها في ميزان الله ، ولو لا كراهة أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطاهم الله ما وصف من زخارف الدنيا ، لهوانها عند الله عَزَّوَجَلَّ . والخلاصة : ردّ الله تعالى على اقتراح العرب كون الرّسالة لأحد رجلين بوجوه ثلاثة : أولها ـ قوله على سبيل الإنكار : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي النّبوة فيضعوها حيث شاؤوا ، وثانيها ـ قوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لأن الدنيا فانية ، ودين الله باق لا يزول. وثالثها ـ قوله : ﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ كما تقدّم تفسيرها [١].

١١ ـ استدلّ ابن العربي بقوله تعالى : ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ﴾ ، على أن السّقف لصاحب السّفل ، ولا حقّ فيه لصاحب العلو ، لأن الله تعالى جعل السّقوف للبيوت ، كما جعل الأبواب لها ، وهذا مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

أما السّفل فاختلفوا فيه ، فمنهم من قال : هو له ، ومنهم من قال : ليس له في باطن الأرض شيء ، والرّاجح ما بيّنه حديث الإسرائيلي الصحيح : أنّ رجلا باع من رجل دارا ، فبناها فوجد فيها جرّة من ذهب ، فجاء بها إلى البائع ، فقال : إنما اشتريت الدّار دون الجرّة ، وقال البائع : إنما بعت الدّار بما فيها ، وكلاهما تدافعها ، فقضى بينهم النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يزوّج أحدهما ولده من بنت الآخر ، ويكون المال بينهما.

قال ابن العربي وتبعه القرطبي : والصّحيح أن العلو والسّفل له ، إلا أن

---

(١) غرائب القرآن للنّيسابوري : ٢٥ / ٤٩.

يخرج عنهما بالبيع ، فإذا باع أحدهما أحد الموضعين ، فله منه ما ينتفع به ، وباقية للمبتاع منه [١].

ثم استطرد القرطبي في بيان بعض أحكام العلو والسّفل ، نجتزئ منها ما يلي [٢] :

أ ـ ليس لصاحب السّفل أن يهدم إلا لضرورة ، ويكون هدمه أرفق لصاحب العلو ، لئلا ينهدم بانهدامه العلو.

ب ـ وليس لربّ العلو أن يبني على علوه شيئا لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذي لا يضرّ بصاحب السّفل.

ج ـ ولو انكسرت خشبة من سقف العلو أدخل مكانها خشبة ليست أثقل منها ، منعا من ضرر صاحب السّفل.

د ـ وباب الدار على صاحب السّفل.

هـ ـ ولو انهدم السّفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبني السّفل ، فإن أبى صاحب السّفل من البناء قيل له : بع ممن يبني.

و ـ إن إصلاح السّفل على صاحبه.

ز ـ ليس لصاحب السّفل أن يحدث ما يضرّ بصاحب العلو ، فإن أحدث عليه ضررا لزمه إصلاحه دون صاحب السّفل ، ولصاحب العلو منعه من الضّرر ، لحديث السفينة الذي أخرجه البخاري والترمذي وغيرهما عن النعمان بن بشير : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا ـ اقترعوا ـ على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا

---

(١) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٧٠ ، تفسير القرطبي : ١٦ / ٨٥ ـ ٨٦

(٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ٨٦.

من الماء ، مرّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا». والعبارة الأخيرة تدلّ على جواز منع الضّرر ، وفي الحديث دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وفيه دليل على جواز القرعة واستعمالها.

١٢ ـ إن التّمتع بالدنيا قليل وعمرها قصير ، والآخرة أي الجنة لمن اتّقى وخاف. أخرج التّرمذي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «الدنيا سجن المؤمن ، وجنّة الكافر». وقد تقدّم حديث الترمذي عن سهل بن سعد : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء».

حال المعرض عن ذكر الله وتثبيت النّبي ﷺ على دعوته

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾

الإعراب :

﴿وَمَنْ يَعْشُ ... نُقَيِّضْ مَنْ﴾ : شرطية ، وما بعدها فعل الشرط وجوابه.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ...﴾ جمع الضميرين مراعاة لمعنى ﴿مَنْ﴾ إذ المراد جنس العاشي والشيطان المقيض له. وأما ضمير ﴿لَهُ﴾ فروعي فيه لفظ ﴿مَنْ﴾ وهكذا أعاد الضمير أولا على اللفظ ، ثم على المعنى. وضمير ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ عائد على جنس الشيطان وبما أن لكل عاش شيطانا قرينا ، فجاز أن يعود الضمير مجموعا. وقال ابن عطية : ضمير ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائد على الشيطان ، وضمير ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ عائد على الكفار ، قال أبو حيان : والأولى ما ذكر أولا لتناسق الضمائر في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وفي ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ وفي ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ لمدلول واحد كأن الكلام : وفي ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وفي ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ وفي ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ لمدلول واحد كأن الكلام : وإن العشاة ليصدونهم الشياطين عن سبيل الهدى والفوز. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي الكفار.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ... إِذْ﴾ بدل من اليوم.

﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون «إن» الشرطية في «ما» الزائدة المؤكدة بمنزلة لام القسم في طلب النون المؤكدة.

البلاغة :

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه الكفار بالصم والعمي. والهمزة : إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم بعد استغراقهم في الضلال.

﴿أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾ جناس الاشتقاق ، لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما.

المفردات اللغوية :

﴿يَعْشُ﴾ يتغافل ويتعام ويعرض ، لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات ، وقرئ «يعش» بالفتح ، وقرئ «يعشو» على أن ﴿مَنْ﴾ موصولة يقال : عشي يعشى كرضي يرضى وعرج يعرج : إذا كان في بصره آفة ﴿ذِكْرِ الرَّحْمنِ﴾ القرآن. ﴿نُقَيِّضْ﴾ نهيئ ونسبب ونضم إليه شيطانا. ﴿قَرِينٌ﴾ رفيق ملازم لا يفارقه ، يوسوسه ويغويه دائما.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين. ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي العاشين. ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ طريق الهدى.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي الكفار. ﴿جاءَنا﴾ العاشي ، بقرينه يوم القيامة. ﴿يا لَيْتَ يا﴾

للتنبيه ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب ، مغلّبا المشرق على المغرب. ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت ، و ﴿الْقَرِينُ﴾ الصاحب والصديق.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي العاشين تمنيكم وندمكم في القيامة : ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ﴾ أي تبين لكم ظلمكم بالإشراك. ﴿أَنَّكُمْ﴾ أي لأنكم مع قرنائكم ، بتقدير لام العلة ، وقرئ «إنكم» بالكسر ﴿فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تشتركون مع شياطينكم في العذاب ، كما كنتم مشتركين في سببه.

﴿الصُّمَ﴾ جمع أصم وهو الذي في أذنه صمم. ﴿فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ في خطإ بيّن ، فهم لا يؤمنون ، وقوله : ﴿وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ﴾ عطف على العمي ، وفيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم في ضلال لا يخفى.

﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك وأمتناك قبل تعذيبهم. ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾ بعدك في الدنيا أو الآخرة. ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ﴾ أي نبصرنك ما وعدناهم به من العذاب. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قادرون على عذابهم.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي تمسك بالقرآن وقرئ «أوحى» أي الله تعالى. ﴿عَلى صِراطٍ﴾ طريق. ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج له. ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف عظيم به تذكر ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ لنزوله بلغتهم. ﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ عنه يوم القيامة عن القيام بحقه ، بأداء التكاليف فيه من أمر ونهي. ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾ أي واسأل سلالتهم وعلماء دينهم. ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ﴾ غيره. ﴿آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ هل حكمنا بعبادة الأوثان ، وهل جاءت ملة من الملل به؟ والمراد الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد ، والدلالة على أن الأمر به قديم غير جديد.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٦):

﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي : أن قريشا قالت : قيّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه ، فقيّضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله ، فأتاه ، وهو في القوم ، فقال أبو بكر : إلام تدعوني؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللّات والعزّى ، قال أبو بكر : وما اللّات؟ قال : ربنا ، قال : وما العزّى؟ قال : بنات الله ، قال أبو بكر : فمن أمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه ، فقال طلحة لأصحابه : أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال

طلحة : قم يا أبا بكر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً﴾ الآية.

سبب نزول الآية (٤١):

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ..﴾ : كان رسول الله ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه ، وهم لا يزيدون إلا غاليا ، فنزلت الآية : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ..﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أن المال متاع الدنيا ، وهو زائل ، نبّه إلى آفات المال ، لأن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله ، وصار من جلساء الشياطين الضالين المضلين الذين يصدون الناس عن طريق الهداية في الدنيا ، أما في الآخرة فيتبرأ الكافر من قرينه الشيطان. وهما في العذاب مشتركان ، والاشتراك في العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا.

وبعد أن وصف الله تعالى المعرضين عن ذكره بالعشا ، وصفهم أيضا بالصمم والعمى ، بسبب كونهم في ضلال مبين ، ولما بيّن تعالى أن دعوة الرسول ﷺ لا تؤثر في قلوب هؤلاء ، تسلية للرسول ﷺ ، بيّن أنه لا بد وأن ينتقم لأجله منهم ، إما حال حياته أو بعد وفاته ، ثم أمره ربه أن يتمسك بما أمره به ، فإنه على صراط مستقيم نافع ، هو منهج القرآن الذي فيه شرف عظيم له ولقومه ، وسوف يسألون عن القيام بحقه.

ثم أبان تعالى أن إنكار عبادة الأصنام في رسالة محمد ﷺ ليس خاصا به ، بل كل الأنبياء والرسل كانوا مجمعين على إنكاره.

التفسير والبيان :

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً ، فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي ومن

يتعام ويتغافل ويعرض عن النظر في القرآن والعمل به ، نهيئ له شيطانا يوسوس له ويغويه ، فهو له ملازم لا يفارقه ، بل يتبعه في جميع أموره ، ويطيعه في كل ما يزين له به. والعشا في العين : ضعف البصر ، والمراد هنا عشا البصيرة.

والمراد بالآية : إن من يعرف كون القرآن حقا ولكنه يتجاهل ذلك فهو في ضلال ، ومادة كل آفة وبلية الركون إلى الدنيا وأهلها ، فإن ذلك بمنزلة الرمد للبصر ، ثم يصير بالتدريج كالعشى ، ثم كالعمى.

والآية مثل قوله تعالى : ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت ٤١ / ٢٥]. وجاء في صحيح مسلم وغيره أن مع كل مسلم قرينا من الجن ، وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي وإن الشياطين الذين يقيّضهم الله لكل من يعشو عن ذكر الرحمن ، ليمنعونهم بالوسواس عن سبيل الحق والرشاد ، ويحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم مهتدون إلى الحق والصواب.

ثم يتبرأ الكافر في الآخرة من قرينة الشيطان ، فقال تعالى :

﴿حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ : يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أي حتى إذا وافانا الكافر يوم القيامة ، يتبرم بالشيطان الذي وكل به ، ويتبرأ منه ، ويتمنى الكافر أن بينه وبين الشيطان المقارن له من البعد ما بين المشرق والمغرب ، فبئس الصاحب الملازم للإنسان شيطانه.

وقرأ بعضهم : «حتى إذا جاءنا» أي القرين والمقارن.

ويقال لهم يوم القيامة توبيخا كما حكى تعالى :

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي ويقال لهم في الآخرة توبيخا وتأنيبا وتيئيسا : لن ينفعكم في هذا إذ تبين أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا اشتراككم في العذاب ، فلا يخفف عن كل منكما شيء منه ، بخلاف حال الدنيا ، فإن المصيبة فيها إذا عمت هانت. وهذا يدل على أن حصول الشركة في العذاب لا يفيد التخفيف ، كما كان يفيده في الدنيا ، لأن اشتغال كل واحد بنفسه في شدة العذاب ، يذهله عن حال الآخر ، فلا تفيد الشركة الخفة ، ولا يتمكن كل واحد من مواساة الآخر في كربه وحزنه وألمه ، فلكل قدر مشترك من العذاب.

ثم بيّن الله تعالى لرسوله أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم تسلية له ، فقال :

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي أتستطيع يا محمد إسماع أهل الصمم أو هداية أهل العمى أو إرشاد من مستغرقا في ضلال واضح بيّن. وهذا بعد أن وصفهم تعالى بالعشا ، وصفهم بأوصاف ثلاثة هي : الصمم والعمى والضلال البيّن ، فهؤلاء الكفار ضعاف البصيرة ، بمنزلة الصم الذين لا يسمعون ما جئت به أيها الرسول ، وبمنزلة العمي الذين لا يبصرونه ، وهم مفرطون في الضلالة والكفر والجهالة.

وكان التناسب بينهم وبين الرسول ﷺ عكسيا ، فهو ﷺ يبالغ في دعوتهم إلى الإيمان الحق ، وهم لا يزدادون إلا غيا وتعاميا عن بيّنات القرآن ودلائل النبوة ، إمعانا في الكفر ، وعنادا في الباطل.

ثم أعلم الله رسوله بانتقامه منهم ، فقال :

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ أي إنهم لا يفلتون من العقاب في العاجل أو الآجل ، فإن قبضنا روحك وأمتناك أيها الرسول قبل نزول العذاب بهم ، فنحن منتقمون منهم إما في

الدنيا أو في الآخرة ، وإن أبصرناك الذي وعدناهم به من العذاب قبل موتك ، فنحن قادرون أيضا عليه ، ومتى شئنا عذبناهم. وقد أقر الله عينه في حال حياته ، فقهرهم يوم بدر ، وأصبح المتحكم فيهم ، المالك لحصونهم وقلاعهم.

والتعبير بالوعد دليل على وقوعه حتما ، لأن الله لا يخلف الميعاد.

وبعد هذا الوعد بالنصر ، أمره الله بشدة التمسك بالقرآن وهديه ، فقال :

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي تمسّك أيها الرسول بالقرآن الموحى به إليك من ربك ، فإنك على طريق قويم ومنهج سليم ، مؤد إلى السعادة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، وإن كذّب به من كذّب ، فذاك لا يضيرك.

ثم أبان تعالى منزلة القرآن ، فقال :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ أي وإن القرآن لشرف عظيم لك ولقريش والعرب عامة ، إذ نزل بلغتهم ، وسوف تسألون عن هذا القرآن وكيف عملتم به واستجبتم له وما يلزمهم من القيام بحقه.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠] أي شرفكم ، أخرج البخاري والترمذي عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن هذا الأمر في قريش ، لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبّه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين» يعني الخلافة فإنها في قريش لا تكون في غيرهم ، قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم عن جابر : «الناس تبع لقريش في هذا الشأن ، مسلمهم تبع لمسلمهم ، وكافرهم تبع لكافرهم».

وهذا التنويه بمنزلة العرب يجعلهم أولى الناس باتباع القرآن والعمل بأحكامه وشرائعه ، وإن كانت الرسالة الإسلامية عامة للناس قاطبة.

ثم نبّه الله تعالى إلى أن الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشرك قديم ، فقال : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ، أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي واسأل سلالات الأمم التي أرسلنا فيها الأنبياء وعلماءهم ، هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل؟ والمعنى : جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد ، كما قال جل جلاله : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦].

والمراد بهذا التنبيه على إجماع المرسلين على التوحيد ، وعلى أن محمّدا ﷺ ليس ببدع من بين الرسل في الأمر به ، وهذا يدل على وحدة الدين الحق في أصوله ، ووحدة مهمة الأنبياء عليهم السلام .

وسبب هذا الأمر أن اليهود والمشركين قالوا للنبي ﷺ : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ، فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير والتأكيد ، لا لأنه كان في شك منه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يلي :

١ ـ إن الإضلال من الله تعالى لا يكون إلا بعد إعراض الناس عن أوامر الله ، فمن يتعام ويتغافل عن آيات القرآن وشرائعه وأحكامه ، ويعرض عنها إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ، نهيئ شيطانا يغويه ، جزاء على كفره ، فهو له قرين وصاحب ملازم في الدنيا ، يمنعه من الحلال ، ويبعثه على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية ، وقرين له في الآخرة في العذاب المشترك بينهما. قال أبو سعيد الخدري : «إذا بعث الكافر زوّج بقرينه من الشياطين ، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار».

٢ ـ إن مهمة الشياطين خطيرة تستوجب الحذر من وساوسهم وإغواءاتهم ، فهم يصدرون الناس عن سبيل الهدى ، حتى يخيل للكفار ويجعلهم يظنون أنهم مهتدون. وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون ، فيطيعونهم.

٣ ـ تتجلى الحقيقة المرّة في الآخرة ، حين يتبرأ الكافر من الشيطان ، ويتمنى البعد عنه كالبعد بين المشرق والمغرب ، ويقول له : فبئس القرين أنت ، لأنه يورده النار. قال الفراء : أراد المشرق والمغرب ، فغلّب اسم أحدهما ، كما يقال : القمران للشمس والقمر ، والعمران لأبي بكر وعمر ، والبصرتان للكوفة والبصرة ، والعصران للغداة (الظهر) والعصر.

٤ ـ يقول الله للكافر يوم القيامة توبيخا : لن ينفعكم اليوم إذا أشركتم في الدنيا هذا الكلام ، وهو قول الكافر : ﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي لا تنفع الندامة ، فإنكم في العذاب مشتركون. أو لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب ، لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه ، ولا ينفع أهل النار التأسي كما يتأسّى أهل المصائب في الدنيا ، فيقول أحدهم : لي في البلاء والمصيبة أسوة ، فيسكّن ذلك من حزنه ، فإذا كان في الآخرة لم ينفعهم التأسي شيئا لشغلهم بالعذاب.

٥ ـ سلّى الله نبيه عن حزنه وأسفه لإعراض قومه عن قبول رسالته ، وقال له : ليس لك من الأمر شيء ، فلا تستطيع هداية العشيّ الصمّ العمي الضالين ، فلا يضيق صدرك إن كفروا.

قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ..﴾ : فيه رد على القدرية وغيرهم ، وأن الهدى والرشد والخذلان في القلب خلق الله تعالى ، يضلّ من يشاء ، ويهدي من يشاء.

٦ ـ إن تعذيب المشركين آت عاجلا أم آجلا ، سواء في حال حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته ، فالله قادر على كل شيء.

٧ ـ رفع الله تعالى من معنويات نبيه إلى القمّة بأمرين :

الأول ـ إعلامه بأنه على صراط مستقيم يوصله إلى الله ورضاه وثوابه.

الثاني ـ إعلاء مجده وشرفه بالقرآن الذي هو شرف له ولقومه من قريش والعرب قاطبة ، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم ، وسوف تسألون عن الشكر عليه ، وعن العمل بتكاليفه. قال المحققون : في الآية دلالة على أن الذكر الجميل أمر مرغوب فيه لعموم أثره وشموله كل مكان وكل زمان.

وقال القرطبي : والصحيح أنه شرف لمن عمل به ، كان من قريش أو من غيرهم.

أخرج الطبري عن ابن عباس قال : أقبل نبي الله ﷺ من سريّة أو غزاة ، فدعا فاطمة ، فقال : «يا فاطمة اشتري نفسك من الله ، فإنّي لا أغني عنك من الله شيئا» وقال مثل ذلك لنسوته ، ولعترته ، ثم قال ﷺ : «ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتي ، إن أولى الناس بأمتي المتقون ، ولا قريش بأولى الناس بأمتي ، إن أولى الناس بأمتي المتقون ، ولا الأنصار بأولى الناس بأمتي ، إن أولى الناس بأمتي المتقون ، ولا الموالي بأولى الناس بأمتي ، إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة كجمام [١] الصاع ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى».

وأخرج الطبري أيضا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم ، أو يكونون شرّا عند الله من الجعلان التي تدفع النّتن بأنفها ، كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب ، إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس مؤمن تقي وفاجر شقي» [٢].

---

(١) الجمام : ما عدا رأس المكيال من الطفاف.

(٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ٦٤.

٨ ـ إن دين التوحيد قديم ، ونبذ الشرك قديم ، فإذا سئلت أمم الرسل عليهم السلام قبل الرسول ﷺ : هل أذن الله بعبادة الأوثان ، وهل أمر بعبادة غير الله؟ أجابوا عن السؤالين بالنفي. والسبب الأقوى في بغض الكفار وعداوتهم للنبي ﷺ إنكاره لأصنامهم ، فبين تعالى أنه غير مخصوص بهذا الإنكار ، ولكنه دين كل الأنبياء ودعوتهم.

العبرة من قصة موسى عليه السلام وفرعون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (٤٧) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (٥٦)﴾

الإعراب :

﴿وَهذِهِ الْأَنْهارُ﴾ الواو : إما عاطفة على ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾ و ﴿تَجْرِي﴾ حال منها ، أو واو الحال ، و ﴿هذِهِ﴾ مبتدأ و ﴿الْأَنْهارُ﴾ صفتها ، و ﴿تَجْرِي﴾ خبرها.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا أَمْ﴾ هنا : منقطعة ، لأنه لو أراد أم المعادلة لقال : أم تبصرون ، لكنه أضرب عن الأول بقوله : ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ وكأنه قال : أنا خير منه ، فلما كان فيه هذا المعنى ، لم تكن ﴿أَمْ﴾ للمعادلة للهمزة.

البلاغة :

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الاستفهام للتقرير ، لا للإنكار ، أي أقروا بما تعلمون من أني ملك مصر.

المفردات اللغوية :

﴿بِآياتِنا﴾ الآيات هي المعجزات. ﴿وَمَلَائِهِ﴾ أشراف قومه ورعاياهم القبط ، والمراد بإيراد القصة هنا الاستشهاد بدعوة موسى عليه‌السلام إلى التوحيد ، وتسلية الرسول ومناقضة قول قريش : ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾ حين جاءهم بآياتنا الدالة على رسالته ، فاجؤوه بضحكهم منها واستهزءوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها. ﴿وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات العذاب كالطوفان والجراد. ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها﴾ إلا وهي أعظم في الإعجاز بحيث يظن أنها أكبر من الآيات الأخرى ، و ﴿أُخْتِها﴾ قرينتها التي قبلها ، والمراد وصف الكل بالكبر ، كقولك : رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض ، أو إلا وهي مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار. ﴿وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ﴾ أي أخذ قهر بعذاب كالسنين (الجدب) والطوفان والجراد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ليرجعوا عن الكفر أو على نحو يرجى رجوعهم.

﴿وَقالُوا﴾ لموسى لما رأوا العذاب. ﴿السَّاحِرُ﴾ العالم الماهر ، لأن السحر عندهم علم عظيم. ﴿بِما عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ بعهده إليك أنا إن آمنا كشف العذاب عنا ، أو بعهده عندك من النبوة. ﴿إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤمنون بشرط أن تدعو لنا ، فيكشف عنا العذاب. ﴿يَنْكُثُونَ﴾ ينقضون العهد الذي عاهدوا به موسى ، ويصرون على الكفر.

﴿وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ افتخارا ، إما بنفسه أو بواسطة مناديه ، في مجمعهم أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم ، مخافة أن يؤمن بعضهم. ﴿وَهذِهِ الْأَنْهارُ﴾ فروع النيل ، وأهمها أربعة :

نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس ، والمشهور الآن فرع دمياط وفرع الرشيد المكونان لدلتا النيل فيما بينهما. ﴿مِنْ تَحْتِي﴾ تحت قصري وفي جناتي. ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا أَمْ﴾ منقطعة أي بل أنا مع هذا الملك والسعة أفضل من موسى ، أو متصلة بمعنى : أم تبصرون فتعلمون أني خير منه. ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير ليس أهلا للرياسة ، مأخوذ من المهانة : وهي القلة. ﴿يُبِينُ﴾ يفصح عن مراده بكلامه ، بسبب لثغته في لسانه بالجمرة التي تناولها في صغره.

﴿فَلَوْ لا﴾ هلا. ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾ إن كان صادقا. ﴿أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ جمع سوار كأخمرة وخمار ، وقرئ «أساورة» جمع الجمع ، أي جمع أسورة ، وهذا تأثر منه بعادة الملوك ، فإنهم كانوا إذا سؤدوه وتوّجوه ألبسوه أسورة ذهب وطوق ذهب. ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين به يعينونه على مخالفه ، أو متتابعين يشهدون بصدقه.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ استخف واستصغر عقولهم ، فدعاهم إلى الضلال ، فأجابوه. ﴿فَأَطاعُوهُ﴾ فيما يريد من تكذيب موسى. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ هذا تعليل للطاعة. ﴿آسَفُونا﴾ أغضبونا بالإفراط في العصيان والعناد ، والأسف : الحزن والغضب معا ، وقد يطلق على أحدهما. ﴿فَأَغْرَقْناهُمْ﴾ في اليم. ﴿فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار ، جمع سالف ، كخدم وخادم ، وقرئ «سلفا» جمع سليف كرغف. ﴿وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ عظة وعبرة لمن يأتي بعدهم.

المناسبة :

بعد بيان طعن قريش بنبوة محمد ﷺ لكونه فقيرا عديم المال والجاه ، ذكر الله تعالى شبيها لذلك في قصة فرعون حيث قال : إنّي غني كثير المال والجاه. ولما أمر الله نبيه بسؤال أمم المرسلين ، ذكر هنا قصة موسى ، وبعده عيسى عليهما السلام ، للاستدلال بما جاءا به من التوحيد ، وإبطال عبادة الأصنام. ثم ذكر شبهة لفرعون وهي أن الملك يلازم النبوة ، فطلب من موسى بما جرت العادة لديهم أنهم إذا جعلوا منهم رئيسا لهم سوّروه بسوار من ذهب ، وطوّقوه بطوق من ذهب ، أو طلب أن تصاحبه الملائكة لدعم موقفه أمام المخالفين.

وأعقب هذا توضيحا لأثر السلطة والحكم ، فإن فرعون استخف عقول قومه ، حينما دعاهم إلى تكذيب موسى ، فأطاعوه لضلالهم ، فانتقم الله منهم أشد الانتقام.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ. فَقالَ : إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي لقد بعثنا موسى مؤيدا بالمعجزات الدالة على صدقه وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء [الآية ١٠١] إلى فرعون وأشراف قومه وأتباعهم من القبط وبني إسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وقال لهم : إني مرسل إليكم من الله رب العالمين : الإنس والجن. ومعجزاته : الطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، والسنين. أي نقص الزروع والأنفس ، والثمرات ، واليد ، والعصا ، فاستكبروا عن الإيمان بها وكذبوها وسخروا منها ، كما قال تعالى :

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾ أي فلما أتاهم بتلك الآيات والأدلة على صدقه ، إذا فرعون وقومه يضحكون ويسخرون ممن جاءهم بها. وقوله : ﴿إِذا هُمْ﴾ معناه أنهم فاجؤوا المجيء بها بالضحك عليها والسخرية منها.

وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من صدود قومه عن دعوته.

﴿وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها ، وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وما نري فرعون وملأه من كل حجة دالة على صدق موسى في دعواه الرسالة إلا كانت أعظم من سابقتها في الحجية عليهم ، والدلالة على صحة دعوته إلى التوحيد ، مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها ، لقوله : ﴿أُخْتِها﴾ أي مثيلتها وقرينتها في الدلالة على صدق نبوة موسى.

ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم ، فأخذناهم أخذ قهر بإنزال العذاب عليهم بسبب تكذيبهم بتلك الآيات ، لكي يرجعوا عن كفرهم ، ويؤمنوا بالله وحده لا شريك له ، ويطيعوه فيما أمر ونهى.

وكانوا كلما جاءتهم آية يصفونها بالسحر وبأن موسى ساحر ، كما قال تعالى :

﴿وَقالُوا : يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ، ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ ، إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي وقالوا يا أيها الساحر العالم . وكانوا يسمون العلماء سحرة تعظيما لهم . ادع لنا ربك لكشف العذاب عنا بما أخبرتنا به من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب ، فإننا بعدئذ لمؤمنون بما جئت به.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ أي فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم العذاب ، فلما كشف عنهم العذاب ، نقضوا عهدهم ، وعادوا إلى كفرهم ، كما جاء في آية أخرى : ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ ، فَاسْتَكْبَرُوا ، وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ. وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ ، إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٣ ـ ١٣٥].

ثم أخبر الله تعالى عن تمرد فرعون وعتوّه وكفره وعناده ، فقال :

﴿وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ : يا قَوْمِ ، أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ، وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ، أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي لما خاف فرعون ميل القوم إلى موسى ، فجمعهم ونادى بصوته فيهم مفتخرا ، أو أمر مناديا ينادي بقوله : أليس لي ملك مصر العظيم ، فلا ينازعني فيه أحد ، والسلطة المطلقة لي ، وأنهار النيل تجري من تحت قصري وبين يدي في جناتي ، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ، وتستدلون به على أحقيتي بالسلطة وفرض النظام ، وتنظروا إلى فقر موسى

وضعفه هو وأتباعه عن مقاومتي؟

ونحو الآية ﴿فَحَشَرَ فَنادى ، فَقالَ : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى ، فَأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى﴾ [النازعات ٧٩ / ٢٣ ـ ٢٥].

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ، وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ أي بل أنا خير وأفضل بمالي من الملك والسلطة والسعة والجاه من هذا ، أي موسى الذي هو ضعيف حقير ممتهن في نفسه ، لا عزّ له ، ولا يكاد يبين الكلام ، لما في لسانه من العقدة. وهذا حكم عليه بما يعلم عنه في الماضي ، دون أن يدري أن الله الكريم أزال عقدته ، فقال تعالى : ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ إلى أن قال : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ [طه ٢٠ / ٢٧ ـ ٢٨ و ٣٦] فقد كان أصاب لسانه في حال صغره شيء من اللكنة بسبب الجمرة التي تناولها ، فسأل الله عزّ وجلّ أن يحل عقدة لسانه ، ليفقهوا قوله ، فاستجاب الله ذلك. والتعييب بالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد خسّة ونقيصة في صاحبه الذي يعيب ، فذلك لا يعاب به ولا يذم عليه. وفرعون ، وإن كان يدرك هذا ، لكنه أراد التزويج على رعيته الجهلة الأغبياء.

ثم استعلى فرعون على موسى بمظاهر الترف والملوك ، ظنّا منه أن الرئاسة تلازم النبوة ، فقال تعالى :

﴿فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي فهلّا حلّي بأساور الذهب إن كان عظيما ، أو هلّا ألقى عليه ربه أساور الذهب إن كان صادقا في نبوته ، وهذا يشبه قول كفار قريش عن استحقاق عظيم القريتين النبوة.

أو جاء معه الملائكة متتابعين متقاربين إن كان صادقا ، يعينونه على مهمته ، ويشهدون له بالنبوة ، فأوهم قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة

الجبابرة أو محفوفين بالملائكة ، ونظر إلى الشكل الظاهر ، ولم يدرك الجوهر المعنوي لحقيقة الرسل.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ أي فاستهان بعقول قومه ورعيته ، ودعاهم إلى الضلالة ، فاستجابوا له ، وأطاعوه فيما أمرهم به ، وكذّبوا موسى ، إنهم كانوا خارجين عن طاعة الله تعالى.

ثم جاء دور العقاب مما فعلوا ، فقال تعالى :

﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ ، فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فلما أسخطونا وأغضبونا ، انتقمنا منهم أشد الانتقام ، فأغرقناهم جميعا في البحر ، وإنما أهلكوا بالغرق ليناسب ما تفاخروا وتباهوا به وهو قوله : ﴿وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾.

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر «أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء ، وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له ، ثم تلا ﷺ : ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ أي فجعلنا فرعون وقومه قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار في استحقاق العذاب ، وعبرة وعظة لمن يأتي بعدهم من الكافرين ، أو قصة عجيبة تجري مجرى الأمثال.

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من القصة ما يأتي :

١ ـ إن هذه القصة تمثل صراع الجبابرة الطغاة أصحاب الثروة والمال مع أهل القيم الإنسانية والدينية الرشيدة ذوي الدخل المتوسط أو الفقراء ، تشابهت حالة

فرعون مع موسى ، مع حالة النبي ﷺ مع كفار قريش أصحاب النفوذ والثراء.

اتفق الأنبياء كلهم على توحيد الإله ، فكذب فرعون وقومه موسى عليه السلام ، بالرغم من تدعيمه بالمعجزات وهي التسع آيات ، فكانت عاقبتهم الإغراق بسبب التكذيب ، ونجّى الله موسى وقومه بني إسرائيل ، وجعلت العاقبة الحميدة له. وكذلك حصل الأمر مع النبي ﷺ كذّبه قومه فأهلكهم الله ، ونصر رسوله والمؤمنين بدعوته.

٢ ـ كانت حيثيات الحكم ومسوغاته على فرعون وقومه هي الضحك والسخرية والاستهزاء من معجزات موسى عليه السلام ، كالسنين (نقص الأنفس والزروع) ونقص الثمرات ، والطوفان والجراد والقمّل والضفادع ، وكانت هذه الآيات عذابا لهم وآيات لموسى.

وكانت المعجزات قوية التأثير ، فما من آية إلا وهي أعظم من أختها ـ سابقتها ـ ومع ذلك لم يؤمنوا بها ، فأخذهم الله بالعذاب على تكذيبهم بتلك الآيات.

ووصفوا موسى بأنه ساحر لما عاينوا العذاب ، تعظيما له على حسب عادتهم في احترام السحرة ، وكانوا يسمون العلماء سحرة ، ويحتمل أنهم أرادوا به الساحر على الحقيقة على الاستفهام ، فلم يلمهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا ، وطلبوا منه كشف العذاب عنهم بما أخبرهم عن عهد الله إليه أنهم إن آمنوا كشف عنهم ، فقالوا : إنا لمهتدون فيما يستقبل.

فلما دعا فكشف الله عنهم الكرب والغم ، عادوا إلى كفرهم ، ونقضوا العهد والميثاق الذي جعلوه على أنفسهم ، فلم يؤمنوا.

٣ ـ وبعد أن حكى الله معاملة فرعون مع موسى ، حكى أيضا معاملة فرعون مع ربه ، فلما رأى آيات موسى خاف ميل القوم إليه ، فجمع قومه ، فقال ،

ونادى بمعنى قال ، فرفع صوته بينهم : يا قوم ، أليس لي ملك مصر ، لا ينازعني فيه أحد ، وأنهار النيل تجري من تحت قصري ، أفلا تبصرون عظمتي وقوتي وضعف موسى؟.

ثم صرح بحاله فقال : بل أنا خير من موسى المهين الحقير الضعيف ، والذي لا يكاد يفصح كلامه بسبب العقدة التي كانت في لسانه بحسب علمهم السابق عنه ، ومن لا بيان له ولا لسان كيف يكون نبيا؟! والرجل الفقير كيف يكون رسولا من عند الله إلى الملك الكبير الغني؟!

ثم تعاظم فرعون وتغطرس واعتز بالثروة والملك والمال ، فقال : هلا ألقي عليه أساور من ذهب ، جريا على عادة الوقت وزيّ أهل الشرف ، أو تأيد بجماعة من الملائكة يمشون معا متتابعين مقترنين إن كان صادقا يعاونونه على من خالفه؟ والمعنى : هلا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه ، حتى يتعزّز بهم ويستعملهم في أمره ونهيه ، فيكون ذلك أهيب في القلوب.

فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في المظاهر ، ولم يعلم أن رسول الله إنما أيّدوا بالجنود السماوية ، وكل إنسان عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرده من فرعون مع كثرة أتباعه ، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء ، كان أبلغ في التأييد من أن يكون له أسورة ذهب أو ملائكة أعوان وأدلة على صدقه.

٤ ـ ثم حكى الله علاقة فرعون بقومه ، فإنه استخف عقولهم واستجهلهم فأطاعوه لخفة أحلامهم وقلة عقولهم ، إنهم كانوا فسقة خارجين عن طاعة الله تعالى.

٥ ـ لما تجاوز فرعون وقومه الحدود القصوى ، وأسخطوا الله وأغضبوه ، عاجلهم بالانتقام الشديد ، وأغرقهم الله في أليم.

والفرق بين السخط والغضب : أن السخط إظهار الكراهة ، والغضب إرادة الانتقام ، ولما كان ذكر الأسف والانتقام في حق الله محالا ، أوّل المفسرون ذلك ، فجعلوا الغضب في حق الله إرادة العقاب ، والانتقام إرادة العقاب لجرم سابق.

٦ ـ جعل الله قوم فرعون قدوة لمن عمل عملهم من الكفار ، وعبرة وعظة لهم ولمن يأتي بعدهم من الكافرين.

والخلاصة : إن المقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين :

أحدهما ـ أن الكفار والجهال يحتجون دائما على الأنبياء بشبهة الفقر والضعف ، وهذا هو سر النبوة والقوة ، فلا يلتفت لما يقولون.

الثاني ـ أن فرعون في أعز حالاته في الدنيا صار مقهورا ، فيكون الأمر في حق أعداء رسول الله هكذا إلى يوم القيامة [١].

العبرة من قصة عيسى عليه‌السلام

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٢١٧.

﴿(٦٣) إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾

الإعراب :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَرْيَمَ﴾ : ممنوع من الصرف للتعريف (العلمية) والعجمة ، أو للتعريف والتأنيث.

﴿أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ أَمْ﴾ هنا متصلة ، لأنها معادلة لهمزة الاستفهام بمعنى «أي» وتقديره : أيهما خير؟ كقولك : أزيد عندك أم عمرو؟ أي أيهما عندك.

﴿وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً ..﴾ من : إما بمعنى البدل ، أي لو نشاء لجعلنا بدلا منكم ، أو زائدة ، أي لجعلناكم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ : بدل من الساعة ، والمعنى : هل ينظرون إلا إتيان الساعة؟

المفردات اللغوية :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ جعل مثلا ، أي حجة وبرهانا ، حين نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٨] فقال المشركون ـ على لسان ابن الزّبعرى أو غيره ـ : رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى ، لأنه عبد من دون الله ﴿إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي إذا المشركون في قريش من المثل يضحكون ويصيحون ويضجون فرحا بما سمعوا.

﴿وَقالُوا : أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي قال المشركون : هل آلهتنا الأصنام خير عندك أم عيسى ، فإن كان في النار فلتكن آلهتنا معه ، أو هل آلهتنا الملائكة خير أم عيسى؟ فإذا جاز أن يعبد ، ويكون ابن الله ، كانت آلهتنا الملائكة أولى بذلك ﴿ما ضَرَبُوهُ﴾ المثل ﴿إِلَّا جَدَلاً﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والخصومة بالباطل ، لعلمهم أن ﴿ما﴾ لغير العاقل ، فلا يتناول عيسى عليه‌السلام ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شديد والخصومة معتاد واللجاج.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ﴾ أي ما عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة ﴿وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أي جعلناه بإيجاده من غير أب كالمثل السائر في الغرابة ، يستدل به على قدرة الله تعالى على ما يشاء ﴿لَجَعَلْنا مِنْكُمْ﴾ بدلكم ﴿مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ بأن نهلككم ونخلفكم بالملائكة في الأرض. والمعنى : أن حال عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبة ، فالله تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك ، وأن الملائكة مثلكم ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليدا ، ويحتمل خلقها إبداعا ، فمن أين لكم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله تعالى؟

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي وإن عيسى أو نزوله لدليل تعلم الساعة بنزوله ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِها﴾ لا تشكن فيها ، حذف منها نون الرفع للجزم ، وواو الضمير لالتقاء الساكنين ﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ﴾ يصرفكم عن دين الله ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا شرعي وهداي القائم على التوحيد ﴿هذا﴾ الذي آمركم به ﴿صِراطٌ﴾ طريق ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ يوقم ﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ يمنعنكم عن المتابعة ويصرفكم ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بيّن العداوة ثابت عليها.

﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ المعجزات أو بآيات الإنجيل ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشريعة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمر الدين لا من أمر الدنيا ، فإن الأنبياء لم تبعث لبيانه ، ولذلك قال ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أنس وعائشة : «أنتم أعلم بأمور دنياكم». ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغكم عنه ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه ، وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة لمجموع الأمرين ، وهو تتمة كلام عيسى عليه السلام ، أو استئناف من الله يدل على مقتضي الطاعة في ذلك.

﴿الْأَحْزابُ﴾ الفرق المتحزبة ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث هو إليهم في عيسى : أهو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ﴿فَوَيْلٌ﴾ كلمة عذاب أو واد في جهنم ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا بما قالوه في عيسى من المتحزبين ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو للذين ظلموا ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ أي هل ينظرون إلا إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئها لاشتغالهم بأمور الدنيا.

سبب النزول : نزول الآية (٥٧):

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ : أخرج أحمد بسند صحيح والطبراني عن ابن عباس : «أن رسول الله ﷺ قال لقريش : إنه ليس أحد يعبد من دون الله ،

وفيه خير ، فقالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا صالحا ، وقد عبد من دون الله؟ فأنزل الله : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ الآية».

وقد تقدم في آخر سورة الأنبياء عند قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أن عبد الله بن الزّبعري السّهمي قال : خصمت وربّ هذه البنية ، يعني الكعبة ، ألست ـ الخطاب للنبي ﷺ ـ تزعم أن الملائكة عباد صالحون ، وأن عيسى عبد صالح ، وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة ، وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه‌السلام ، وهذه اليهود يعبدون عزيرا؟ قال : فصاح أهل مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى﴾ ـ الملائكة وعزير وعيسى عليهم‌السلام ـ ﴿أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾.

التفسير والبيان :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ هذا لون آخر من تعنت قريش في كفرهم وعنادهم وجدلهم بالباطل ونوع خامس من كفرياتهم المذكورة في هذه السورة [1] ، والمعنى : ولما جعل ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا في مجادلته مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٨] إذا قومك قريش منه يضجون ويصيحون فرحا بذلك المثل المضروب. أو لم يدروا أن ﴿ما﴾ في قوله ﴿وَما تَعْبُدُونَ﴾ لغير العاقل ، وأن المقصود الأصنام والأوثان ، ولا تتناول الآية عيسى والعزير والملائكة ، فهؤلاء كلهم عباد لله موحدون ، قال عيسى في وصية قومه : الربّ إلهنا إله واحد.

---

(١) الأربعة السابقة : هي (١) أنهم جعلوا لله من عباده جزءا (٢) ﴿جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً﴾ (٣) قولهم : لو شاء الرحمن ما عبدنا الأصنام (٤) قولهم : ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَقالُوا : أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي وقال كفار قريش مجادلين بالباطل : آلهتنا ليست خيرا من عيسى ، فإن كان كل من عبد من غير الله في النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة. وما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوك ، فهم قوم شديد والخصومة ، كثير واللّدد والجدل. أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن جرير عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : «قال رسول الله ﷺ : ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾».

ثم أبان الله تعالى أن عيسى عبد من عبيد الله ، فقال :

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ ، وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أي ما عيسى ابن مريم إلا عبد من عبيدنا أكرمناه وأنعمنا عليه بالنبوة والرسالة ، وجعلنا آية وعبرة لبني إسرائيل ، وبرهانا وحجة على قدرتنا على من نشاء ، فإنا خلقناه من غير أب ، وكان يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص وكل مريض بإذن الله ، وخلقه أسهل من خلق آدم من غير أب ولا أم ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٩]. والله قادر على كل شيء ، ومن مظاهر قدرته :

﴿وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي ولو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلا منكم ملائكة في الأرض يعمرونها يخلفونكم فيها. قال بعض النحويين : من : تكون للبدل ، أي لجعلنا بدلكم ملائكة ، مثل قوله تعالى : ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة ٩ / ٣٨] أي بدل الآخرة. والمراد بالآية التهديد والتخويف وبيان عجائب قدرة الله تعالى.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ، فَلا تَمْتَرُنَّ بِها ، وَاتَّبِعُونِ ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي

وإن نزول المسيح وخروجه أمارة ودليل على وقوع الساعة ، لكونه من أشراطها . علاماتها . لأن الله سبحانه ينزّله من السماء قبيل الساعة ، كما أن خروج الدجال قبله من أمارات الساعة ، فلا تشكوا في وقوعها ولا تكذبوا بها فإنها كائنة لا محالة ، قبل من أمارات الساعة ، فلا تشكوا في وقوعها ولا تكذبوا فإنها كائنة لا محالة ، واتبعوا هداي فيما آمركم به من التوحيد وبطلان الشرك ، وهذا المأمور به المدعو إليه طريق قويم موصل إلى النجاة والسعادة.

قال ابن كثير : وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماما عادلا وحكما مسقطا [١].

﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي ولا يصرفنكم الشيطان عن اتباع الحق بوساوسه التي يلقيها في نفوسكم ، إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة من عهد أبيكم آدم عليه السلام .

﴿وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي لما جاء عيسى بالمعجزات والآيات الدالة على صدقه ، وبالشرائع في الإنجيل قال لبني إسرائيل : جئتكم بالشرائع الصالحة التي ترغب في الجميل وتكف عن القبيح ، وبأصول الدين العامة ، من توحيد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر ، وجئتكم أيضا لأوضّح لكم بعض ما تختلفون فيه من أحكام التوراة ، فاتقوا المعاصي ، وأطيعوني فيما آمركم به من توحيد الله وشرائعه وتكاليفه.

ورأس الأمر : التوحيد والعبادة ، فقال مبينا ما أمرهم أن يطيعوه فيه :

﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي إن الله عزّ وجلّ هو ربي وربكم وإلهي وإلهكم ، فأخلصوا العبادة له ، وعبادة الله وحده ، فإن العمل بشرائعه هو الطريق القويم والمنهج الصحيح السليم.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٣٢.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي فاختلفت الفرق المتحزبة من اليهود والنصارى الذين بعث إليهم عيسى ، في شأنه أهو الله أم ابن الله أم ثالث ثلاثة؟ وصاروا فرقا وأحزابا ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله ، وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول : إنه الله ، وقد استقر أمر طوائف النصارى ، الكاثوليك والأرثوذكس على أنه هو الرب والإله ، وكتبوا على الصفحة الأولى من الإنجيل : «هذا كتاب ربّنا وإلهنا يسوع المسيح».

فالويل ثم الويل والعذاب الشديد للذين ظلموا من هؤلاء المختلفين في طبيعة المسيح ، أهي بشرية أم ناسوتية إلهية؟ وهم الذين أشركوا بالله ، ولم يعملوا بشرائعه ، إنه عذاب مؤلم شديد دائم في يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل إلا مجيء القيامة فجأة ، وهم لا يشعرون أو لا يعلمون بمجيئها لانشغالهم بشؤون الدنيا.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ ذكر الله تعالى أنواعا خمسة من كفريات المشركين في هذه السورة :

أولها ـ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً﴾.

ثانيها ـ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً﴾.

ثالثها ـ قوله : ﴿لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾.

رابعها ـ قوله : ﴿وَقالُوا : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

خامسها ـ قوله هنا : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.

٢ ـ يتعلق المشركون عادة بشبه واهية ، فتراهم يسلكون مسلك الغوغائية ، فيضجون ويصيحون إذا وجدوا شبهة يمكن التعلق بها في الظاهر ، فلو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ، لأنه تعالى قال : ﴿وَما تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل : ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة ، وإن كانوا معبودين.

٣ ـ يعتمد المشركون على الجدل السوفسطائي الذي يفقد الموضوعية والهدف ، فهو جدل بالباطل ، لذا قالوا : آلهتنا خير أم عيسى؟ وما ضربوا هذا المثل للنبي ﷺ إلا بقصد إرادة الجدل غير الهادف ، الذي أريد به الغلبة في الكلام ، لا طلب الفرق بين الحق والباطل.

٤ ـ تمسك القائلون بذم الجدل بهذه الآية : ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ..﴾ والحق التفرقة بين نوعين من الجدل : الجدل لتقرير الحق ، وهذا محمود ، والجدل لتقرير الباطل ، وهذا مذموم ، قال تعالى : ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر ٤٠ / ٤].

٥ ـ إن جميع الأنبياء والرسل صرحوا لأقوامهم أنهم بشر عبيد لله تعالى ، فلا يصح رفع أحد عن المنزلة البشرية كسائر الناس ، وعلى هذا فإن عيسى عليه‌السلام ذو طبيعة بشرية ، وليست إلهية كما يزعم النصارى ، وما هو إلا عبد كسائر عبيد الله أنعم الله عليه بالنبوة ، وجعل خلقه من غير أب آية ، وعبرة لبني إسرائيل والنصارى ، يستدل بها على قدرة الله تعالى ، وكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام كلها بإذن الله ، ولم يجعل هذا لغيره في زمانه ، وكان بنو

إسرائيل يومئذ أحبّ الخلق إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، لإيمانهم بالله وتوحيدهم إياه ، فلما كفروا هانوا وغضب الله عليهم.

٦ ـ الله تعالى قادر على كل شيء ، فهو قادر على أن يجعل بدل الإنس ملائكة يكونون خلفاء عنهم في الأرض ، يعمرونها ويشيدون حضارتها ، ويتعاقبون بعضهم إثر بعض في تولي شؤونها كلها.

٧ ـ إن خروج عيسى عليه‌السلام ونزوله من السماء آخر الزمان من أعلام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة. ورد في صحيح مسلم : «فبينما هو ـ يعني المسيح الدجال ـ إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء ، شرقيّ دمشق بين مهرودتين [١] ، واضعا كفّيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحلّ لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه ، حتى يدركه بباب لدّ [٢] ، فيقتله ..».

وثبت في صحيح مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي‌الله‌عنه ، قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «لينزلنّ عيسى ابن مريم حكما عادلا ، فليكسرنّ الصليب ، وليقتلنّ الخنزير ، وليضعنّ الجزية ، ولتتركنّ القلاص [٣] ، فلا يسعى عليها ، ولتذهبنّ الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعونّ إلى المال ، فلا يقبله أحد».

٨ ـ لما جاء عيسى عليه‌السلام بالحكمة وهي أصول الدين كمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وبعض الذي يختلفون فيه وهو فروع الدين ، أمر قومه بني إسرائيل أن يتقوا الشرك ولا يعبدوا إلا الله وحده ، وأن يطيعوه فيما يدعوهم

---

(١) أي شقتين أو حلتين.

(٢) اللّد : بلد معروف قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين.

(٣) القلاص : جمع القلص ، والقلص جمع قلوص : وهي الناقة الشابة من الإبل.

إليه من التوحيد ، وأعلن أن الله ربه وربهم ، وأمرهم بإخلاص العبادة لله ، والتوحيد والعبادة صراط مستقيم ، وما سواه معوّج لا يؤدي إلى الحق.

وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام ، فكيف يجوز أن يكون إلها أو ابن إله؟

٩ ـ اختلفت أحزاب أهل الكتاب من اليهود والنصارى أو الفرق المتحزبة بعد عيسى من النصارى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، اختلفوا في عيسى ، فقالت النسطورية : هو ابن الله ، وقالت اليعاقبة : هو الله ، وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ، فويل للذين كفروا وأشركوا عذاب يوم مؤلم وهو يوم القيامة.

١٠ ـ لا ينتظر الأحزاب إلا مجيء القيامة فجأة ، وهم لا يفطنون بمجيئها ، ولا يشعرون بحدوثها. وفائدة قوله : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بعد قوله : ﴿بَغْتَةً﴾ بيان أنهم لا يعرفون وجودها بسبب من الأسباب التي يشاهدونها.

ألوان نعيم المتقين أهل الجنة

﴿الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾

الإعراب :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صفة ل ﴿عِبادِ﴾.

﴿وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حال من واو ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ أَنْتُمْ﴾ : مبتدأ ، وخبره : ﴿تُحْبَرُونَ﴾.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة :

﴿بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ﴾ بعد الكلمة الأخيرة ما يسمى بحذف الإيجاز ، أي أكواب من ذهب ، وحذف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ عام بعد خاص هو قوله : ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ الأحباء في الدنيا ، جمع خليل : وهو الصاحب والصديق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادون يومئذ ، لأن مودتهم في الدنيا كانت قائمة على المعصية ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ المتحابين في الله على طاعته فإنهم أصدقاء ، لأن الصداقة إذا كانت مبنية على تقوى الله بقيت نافعة إلى الأبد.

﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ هذا ما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صفة أو نعت لكلمة ﴿يا عِبادِ﴾. ﴿بِآياتِنا﴾ القرآن ﴿وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين ، وهذه العبارة آكد من سابقتها ، لأنها عبرت عن الإخلاص ﴿وَأَزْواجُكُمْ﴾ نساؤكم أو زوجاتكم المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرّون وتكرمون ، يقال : حبره الله : سرّه ، والحبور يدل على ظهور أثر السرور على الوجه نضارة وحسنا.

﴿بِصِحافٍ﴾ جمع صحفة : وهي كالقصعة : إناء يوضع فيه الأكل يكفي خمسة. ﴿وَأَكْوابٍ﴾ جمع كوب : وهو إناء لا عروة له يشرب منه الشارب ﴿وَفِيها﴾ في الجنة ﴿ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ تلذذا ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته ﴿وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ الخلود ينبئ بمعنى الاستقرار والأمان ، فإن كل نعيم زائل إلا نعيم الجنة ﴿أُورِثْتُمُوها﴾ شبّه جزاء العمل بالميراث ، لأنه يخلفه ويأتي بعده ﴿مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ تأكلون بعضها لكثرتها ودوام نوعها ، فكل ما يؤكل يخلف بدله.

سبب النزول :

نزول الآية (٦٧):

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ..﴾ : حكى النقّاش أن هذه الآية نزلت في أميّة بن خلف الجمحي وعقبة بن أبي معيط ، كانا خليلين ، وكان عقبة يجالس النبي ﷺ . فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبي معيط ، فقال له أمية : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا ، ولم تتفل في وجهه ، ففعل عقبة ذلك ، فنذر النبي ﷺ قتله ، فقتله يوم بدر صبرا [١] ، وقتل أمية في المعركة ، وفيهم نزلت هذه الآية.

المناسبة :

بعد التهديد بمجيء القيامة بغتة ، ذكر الله تعالى عقيبه بعض أحوال القيامة ، ووصف هنا ألوان نعيم أهل الجنة ، ثم أتبعه ببيان أوصاف عذاب أهل النار ، فذكر هنا تعادي الأخلاء إلا المتقين ، واطمئنان المؤمنين في نعيم الجنة في سرور دائم وتمتعهم بأصناف الترف جزاء عملهم الصالح في الدنيا.

التفسير والبيان :

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاء في الدنيا المتحابون فيها يعادي بعضهم بعضا يوم القيامة إلا المتقين فإن صداقاتهم تستمر في الآخرة ، والمعنى : أن كل صداقة وصحابة لغير الله تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عزّ وجلّ ، فإنه دائم بدوامه ، وهذا كما قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ ، وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٤] وكما قال إبراهيم عليه السلام لقومه :

---

(١) الصبر : نصب الإنسان للقتل.

﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وَمَأْواكُمُ النَّارُ ، وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٥].

ثم وصف الله تعالى أنواع نعيم المتقين ، فقال :

﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله : لا تخافوا من العقاب في الآخرة ، ولا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا ، فإن نعيم الآخرة هو الباقي ، والدنيا فانية.

روى الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة ﷺ قال : قال : رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا في الله ، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، لجمع الله تعالى يوم القيامة بينهما ، يقول : هذا الذي أحببته فيّ».

وبعد أن نفى تعالى عنهم المخاوف والأحزان ، خصص ذلك بالمؤمنين المسلمين بقوله:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي إن القول المتقدم ليس لجميع الناس ، بل للمؤمنين بالقرآن ، المنقادين لأحكام الله ، المخلصين له العبادة والطاعة ، أي آمنت قلوبهم ، وانقادت جوارحهم لشرع الله ، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه : إذا كان يوم القيامة ، فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع ، فينادي مناد : ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم ، فيتبعها : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فييأس الناس منها غير المؤمنين.

ثم بشرهم صراحة بالجنة قائلا :

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات تكرمون وتنعمون وتسعدون غاية الإكرام والسعادة.

وألوان النعيم هي :

﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ ، وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ أي لكم في الجنة أنواع مختلفة من المطاعم والمشارب ، يقدم فيها الطعام والشراب بآنية الذهب ، والكوب : كوز لا عروة له. ولكم فيها من ألوان الأطعمة والأشربة وغيرها من الألبسة والمسموعات كل ما تطلبه النفوس وتهواه كائنا ما كان ، وكل ما يمتع الأعين من المستلذات والمشاهد والمناظر الخلابة ، وأسماها النظر إلى وجه الله الكريم من غير حصر ولا كيف ، وأنتم فيها ماكثون على الدوام ، لا تموتون ولا تخرجون منها ، ولا تبغون عنها تحولا.

وسبب هذا الجزاء عملهم الصالح ، فقال تعالى :

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إن تلك الجنة بما فيها من ألوان النعيم صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث ، بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة ، فيكون له ، فيقول : لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار ، فيقول : وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله ، فيكون له شكرا» ثم قال رسول الله ﷺ : «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾». وبعد ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لإتمام النعمة ، فقال تعالى :

﴿لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ، مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة غير الطعام

والشراب فاكهة كثيرة الأنواع والأصناف ، تأكلون منها مهما اخترتم وأردتم ، كلما قطفتم ثمرة جددت لكم ثمرة أخرى.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات الأحكام التالية من أحكام يوم القيامة :

١ ـ الأصحاب والأصدقاء في الدنيا يكونون يوم القيامة أعداء ، يعادي بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا إلا المتقين ، فإنهم أصدقاء متحابون في الدنيا والآخرة.

وهذا دليل على أن الخلّة أو الصحبة إذا كانت على المعصية والكفر ، صارت عداوة يوم القيامة ، أما الموحدون الذين يخالل بعضهم بعضا على الإيمان والتقوى ، فإن خلتهم لا تصير عداوة.

٢ ـ عباد الله المؤمنون المطيعون المتقون آمنون في الآخرة من الخوف ، متخلصون من الحزن ، قد أزال الله عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ، وأشعرهم بالفرح من نواح أربع هي :

أ ـ خاطبهم تعالى بنفسه من غير واسطة ، بقوله : ﴿**يا عِبادِ ..**﴾.

ب ـ وصفهم تعالى بالعبودية ، وهذا تشريف عظيم ، كما شرف محمدا ﷺ ليلة المعراج ، فقال : ـ ﴿**سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ ...**﴾ [الإسراء ١٧ / ١].

ج ـ أزال عنهم الخوف يوم القيامة بالكلية ، وهذا من أعظم النعم.

د ـ نفى عنهم الحزن عما فاتهم من نعيم الدنيا الماضية [١].

٣ ـ يكرم الله المؤمنين إكراما على سبيل المبالغة ، فيدخلهم الجنة هم

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٢٢٥.

وأزواجهم المؤمنات المسلمات في الدنيا ، بعد أن أمّنهم من الخوف والحزن. وهذا يعني أن حسابهم يمر على أسهل الوجوه وأحسنها.

٤ ـ تقدّم الأطعمة والأشربة لأهل الجنة فيها بآنية الذهب. أما في الدنيا فيحرم استعمال أواني الذهب والفضة ، جاء في الصحيحين عن حذيفة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «لا تلبسوا الحرير ولا الدّيباج ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة».

وروى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبي ﷺ قال : «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة ، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم» وهذان الحديثان يقتضيان التحريم ، بلا خلاف في ذلك.

والنهي عن الأكل والشرب يدل على تحريم الاستعمال والانتفاع بمختلف الأوجه ، لأنه نوع من المتاع ، فلم يجز ، ومن استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

أما الإناء المضبب بالذهب أو الفضة أو المشتمل على حلقة منهما ، كالمرآة ذات الحلقة الفضية ، فلا يشرب فيه ، ولا ينظر في المرآة.

وإذا لم يجز استعمال الإناء لم يجز اقتناؤه ، لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطّنبور [١].

٥ ـ في الجنة كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وأهلها باقون دائمون فيها ، روى الترمذي عن سليمان بن بريدة عن أبيه : «أن رجلا سأل النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هل في الجنة من خيل؟ قال : إن الله أدخلك الجنة ، فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت.

---

(١) الطنبور : من آلات الطرب ، ذو عنق طويل ، وستة أوتار من نحاس.

وسأله رجل ، فقال : يا رسول الله ، هل في الجنة من إبل؟ قال : إن يدخلك الله الجنة ، يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عينك».

٦ ـ إن الظفر بنعيم الجنة يكون بسبب العمل الصالح في الدنيا.

٧ ـ في الجنة ألوان كثيرة من الفواكه المختلفة والثمار الطيبة كلها ، رطبها ويابسها ، سوى الطعام والشراب ، يأكل أهلها منها ، دون انقطاع ولا فناء ، وهذا تعويض لمن حرم منها في الدنيا ، وتكميل للرغبة ، وتقوية لدواعي العمل المؤدي إليها.

عذاب أهل النار وأسبابه

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾

الإعراب :

﴿فِي عَذابِ جَهَنَّمَ ، خالِدُونَ﴾ خبران ل ﴿إِنَ﴾ أو ﴿خالِدُونَ﴾ خبر ، والظرف متعلق به.

البلاغة :

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ التفات من الخطاب في قوله : ﴿لَقَدْ جِئْناكُمْ﴾ إلى الغيبة للإشعار بأن الإبرام أسوأ من كراهتهم للحق.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾ بين السر والنجوى طباق ، أي الخفاء والعلانية.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ ذوي الجريمة الكبرى وهم الكفار الذين هم جعلوا في مقابل المؤمنين بالآيات ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يخفف عنهم ، بجعل العذاب متقطعا على فترات ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة ، حزينون من شدة اليأس ، من الإبلاس وهو الحزن الناشئ من شدة اليأس ، ويصاحبه عادة سكوت.

﴿مالِكُ﴾ خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾ ليمتنا ، أي سل ربك أن يقضي علينا ، من قضى عليه إذا أماته ﴿ماكِثُونَ﴾ مقيمون في العذاب دائما ، لا خلاص لكم بموت ولا غيره ﴿لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِ﴾ قال تعالى : لقد جئناكم يا أهل مكة بالحق الثابت على لسان الرسول ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً﴾ بل أحكموا تدبير أمر في كيد النبي محمد وتكذيب الحق ورده ، ولم يقتصروا على كراهيته ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون كيدنا في إهلاكهم ومجازاتهم.

﴿سِرَّهُمْ﴾ حديث الخفية مع النفس أو الغير في مكان ﴿وَنَجْواهُمْ﴾ تناجيهم فيما بينهم وهو ما يجهرون به بينهم ﴿بَلى﴾ نسمع ذلك ﴿وَرُسُلُنا﴾ والحفظة ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ، ملازمون ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

سبب النزول :

نزول الآية (٧٩):

﴿أَمْ أَبْرَمُوا ..﴾ قال مقاتل : نزلت في تدبيرهم في المكر به ـ بالنبي ﷺ ـ في دار الندوة.

نزول الآية (٨٠):

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ ..﴾ : أخرج ابن جرير الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال : بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها : قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي ، فقال واحد منهم ، ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال آخر : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، فأنزلت : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ...﴾ الآية.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضا ، ليبين فضل المطيع على العاصي ، ولما ذكر تعالى الوعد ، أردفه بالوعيد ، على الترتيب المستمر في القرآن ، فبعد أن ذكر ما أعد لأهل الجنة المتقين من ألوان النعيم ، ذكر ما أعد لأهل النار الكفار من العذاب الأليم وأسبابه وهي الكفر والمعاصي ، مع إحباط مكائدهم ومؤامراتهم لرد الحق المنزل ، وإعلامهم بأن الله عليم بذلك ، والحفظة الملازمون لهم يكتبون كل ما بدر منهم من قول أو فعل ، ليكون عنصر إثبات وحجة عليهم.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ﴾ أي إن الذين ارتكبوا الكفر بالله في دار الدنيا هم معذبون في عذاب النار ، عذابا دائما ، مخلّدون فيه أبدا.

﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ لا يخفف عنهم ذلك العذاب فترة أو لحظة ليستريحوا منه ، وهم آيسون من النجاة ومن كل خير ، حزينون أشد الحزن.

وسببه ما اقترفوا في الدنيا كما قال تعالى :

﴿وَما ظَلَمْناهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي ما عذبناهم بغير ذنب ، ولا زدناهم على ما يستحقونه ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بما ارتكبوا من الذنوب ، وبما عملوا من الأعمال السيئة ، حيث كفروا بالله ربهم ، وكذبوا رسله وعصوا ما جاؤوا به ، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ : إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ أي ونادى المجرمون للتخلص مما هم فيه من العذاب الشديد : يا مالك . وهو خازن النار .

ليمتنا الله أو ليقبض أرواحنا ، فيريحنا مما نحن فيه من العذاب ، فأجابهم بقوله : إنكم مقيمون في العذاب ، لا خروج لكم من النار ، ولا محيد لكم عنها. قال المحققون : سمي خازن النار مالكا ، لأن الملك علقة ، والتعلق من أسباب دخول النار ، كما سمي خازن الجنة رضوانا ، لأن الرضا بحكم الله سبب كل راحة وسعادة ، وصلاح وفلاح.

وذلك كقوله تعالى : ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾ [فاطر ٣٥ / ٣٦] وقوله سبحانه : ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى ، ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ [الأعلى ٨٧ / ١١ ـ ١٣]. وقد روي أن أهل النار استغاثوا بالخزنة ، وسألوهم أن يخفف عنهم ربهم يوما واحدا من العذاب ، فردت الخزنة عليهم أسوأ رد : ﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ : ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ. قالُوا : أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ ، قالُوا : بَلى ، قالُوا فَادْعُوا ، وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [غافر ٤٠ / ٤٩ ـ ٥٠].

ثم ذكر الله تعالى سبب عقابهم قائلا :

﴿لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ أي لقد بينا لكم الحق ووضحناه وفسرناه ، وأرسلنا إليكم الرسل ، وأنزلنا عليهم الكتب ، فدعوكم إلى الصراط المستقيم ، فأبيتم وكذبتم وكفرتم وعاندتم ، وكان أكثركم أي كلكم كارهين للحق وأهله لا يقبلونه.

ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفسادهم في الدنيا ، فقال بطريق الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة لبيان كون تدبيرهم أسوأ من كراهتهم للحق :

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي بل دبّر مشركو مكة بإحكام كيدا للنبي ﷺ في دار الندوة بمكة ليقتلوه أو يحبسوه أو يطردوه ، والمعنى أنهم كلما

أحكموا أمرا في المكر بمحمد ﷺ ، فإنا نحكم أمرا في مجازاتهم ، وإنا محكمون لهم كيدا ، أي نبيّت لهم جزاء وعقابا شديدا ، كما قال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ٥٠] وقال سبحانه : ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور ٥٢ / ٤٢] وكل من الكيد والمكر يراد به العقاب من الله تعالى ، جزاء على تحايلهم في رد الحق بالباطل ، ورد وبال ذلك عليهم ، وإحباطه ، ولهذا قال تعالى:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ، بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي بل أيظنون أننا لا نسمع سرهم وعلانيتهم ، سواء ما يضمرونه من شر وسوء وكيد ، أو ما يتناجون به فيما بينهم علانية لحبك المؤامرة ، والتخطيط لإنفاذها؟ بلى ، نحن نسمع ذلك ونعلم به تماما ، والملائكة الحفظة أيضا يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل ، صغير أو كبير : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ، ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق ٥٠ / ١٧ ـ ١٨].

قال يحيى بن معاذ : من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السموات ، فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من علامات النفاق.

فقه الحياة أو الأحكام :

أبانت الآيات ما يأتي :

١ ـ إن جزاء الكفار الذين لم يؤمنوا بوجود الله ووحدانيته ، ولم يصدقوا بالرسل والكتب الإلهية هو نار جهنم. وقد وصفهم الله تعالى بصفة المجرمين.

٢ ـ وصف تعالى عذاب جهنم بثلاث صفات : هي أولا ـ الخلود وهو في رأي الرازي : عبارة عن طول المكث ، ولا يفيد الدوم ، وثانيا ـ عدم التخفيف من العذاب ، وثالثا ـ الإياس من الرحمة أو السكوت سكوت يأس.

٣ ـ لا ظلم للكفار بالعذاب يوم القيامة ، ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم بالشرك ، وإن أعظم جريمة في حق الله هي الشرك به ، لذا قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء ٤ / ٤٨].

٤ ـ يطلب الكفار من مالك خازن جهنم أن يتخلصوا من العذاب بالموت الأبدي ، وهم بالرغم من أنهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب ، طلبوا ذلك إما على سبيل التمني أو على وجه الاستغاثة ، وكلا الأمرين تعبير عن الحيرة والقلق والاضطراب ونحوها مما يفعله اليائس المتخبط في أحواله كلها ، فأجيبوا بأنهم مقيمون على الدوام في نار جهنم.

ويذكر المفسرون أن بين سؤالهم هذا وبين جوابهم ثمانين سنة ، أو ألف سنة ، أو مائة سنة ، أو أربعين سنة ، الأول قول عبد الله بن المبارك ، والثاني قول الأعمش ، والثالث قول ابن عباس ، والرابع قول عبد الله بن عمرو [١]. وكل ذلك يحتاج لدليل أوثق وأثبت ، ونفوض العلم فيه إلى الله تعالى.

٥ ـ إن سبب عقاب الكفار أن الله تعالى جاءهم بالحق فلم يقبلوا ، وكلهم نافر من محمد ﷺ ومن القرآن ، شديد البغض لقبول الدين الحق ، وهو الإسلام ودين الله تعالى.

٦ ـ أحبط الله كل مؤامرات الكفار على النبي ﷺ ، لأن الله عاصمه من الناس ، قال مقاتل ـ كما تقدم ـ : نزلت آية ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ في تدبيرهم بالمكر بالنبي ﷺ في دار النّدوة ، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ، ليشتركوا في قتله ، فتضعف المطالبة بدمه ، فنزلت الآية [٢].

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ١١٧

(٢) المرجع السابق : ١٦ / ١١٨.

٧ ـ يخطئ الناس وبخاصة الكفار حين يظنون أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم ، والسر : ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال ، والنجوى : ما تكلموا به فيما بينهم ، فإن الله سميع بصير ، يسمع ويعلم كل شيء ، والملائكة الحفظة يكتبون عليهم تلك الأحوال ، وستكون الكتابة في سجل الأعمال يوم القيامة يحاسبون بناء عليها ، وحجة وبرهانا لإثبات معاصيهم ومنكراتهم ، وهذا تأكيد لعلم الله.

تنزيه الله سبحانه عن الولد والشريك

﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (٨١) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾

الإعراب :

﴿إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ إِنْ﴾ : إما شرطية على سبيل الافتراض ، أي إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده ، على أنه لا ولد له ، أو على حد قول الرجل لصاحبه : إن كنت كاتبا فأنا حاسب ، والمعنى : لست بكاتب ، ولا أنا حاسب. أو أن تكون ﴿إِنْ﴾ بمعنى «ما» وتقديره : ما كان للرحمن من ولد.

﴿فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ﴾ كل من الجار والمجرور متعلق بما بعده.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَ﴾ اللام في ﴿لَئِنْ﴾ لام القسم. و ﴿لَيَقُولُنَ﴾ حذف منه نون الرفع وواو الضمير.

﴿وَقِيلِهِ يا رَبِ﴾ بالجر لكلمة ﴿قِيلِهِ﴾ عطفا على ﴿السَّاعَةِ﴾ أي وعنده علم الساعة وعلم قيله ، أو بالرفع عطفا على ﴿عِلْمُ﴾ في قوله : ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي وعلم قيله ، فحذف المضاف ، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، تقديره : وقيله : يا رب ، مسموع ، أو بالنصب على المصدر ، أي ويقول قيله ، أو عطفا على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾ في قوله : ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾ أو عطفا على معنى ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي ويعلم الساعة ويعلم قيله ، أو عطفا على المفعول المحذوف ل ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في قوله : ﴿وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون ذلك ويكتبون قيله.

﴿وَقُلْ : سَلامٌ سَلامٌ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، أي أمري سلام ، أي مسالمة منكم ، وليس من السلام بمعنى التحية.

المفردات اللغوية :

﴿قُلْ : إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ أي إن وجد له ولد على سبيل الفرض والتقدير ، وثبت ذلك بالدليل القاطع ، فأنا ـ أي محمد النبي ﷺ ـ أول العابدين أي المعظمين للولد تعظيما للوالد ، لكن ثبت ألا ولد له تعالى ، فانتفت عبادته وبطلت ﴿سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ ..﴾ أي تنزيها لله عن كونه ذا ولد وعن كل نقص ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ العرش أو الكرسي : مخلوق عظيم أعظم من السموات والأرض ، الله أعلم به ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقولون كذبا بنسبة الولد إليه.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم ﴿يَخُوضُوا﴾ يعبثوا في باطلهم ، ويبطلوا مع المبطلين ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي يوم القيامة الذي يوعدون فيه العذاب ﴿إِلهٌ﴾ أي أنه هو معبود في السماء ومعبود في الأرض ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم ، وهما دليلان على استحقاق العبادة ، والمعنى أن الله في السماء والأرض بالألوهية والربوبية ، وليس الاستقرار.

﴿تَبارَكَ﴾ تعالى وتعاظم ﴿وَما بَيْنَهُما﴾ كالهواء وجميع المخلوقات ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿يَدْعُونَ﴾ يعبدون ، وهم الكفار ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من غير الله ﴿الشَّفاعَةَ﴾ لأحد ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ﴾ أي قال : لا إله إلا الله. والاستثناء إما متصل ، لأن من جملة من يدعونهم الملائكة وعيسى وعزيرا ، أو منقطع ، أي لكن من شهد بالتوحيد عن علم وبصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يتيقنون بقلوبهم مثلما شهدت به ألسنتهم ، وهم عيسى وعزير والملائكة ، فهؤلاء هم الذين يشفعون بإذن الله للمؤمنين ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن عبادة الله.

﴿وَقِيلِهِ﴾ معطوف على ﴿السَّاعَةِ﴾ أي وعنده علم الساعة وعلم قيله ، أي قيل محمد النبي ﷺ ، والقيل والقال والمقالة والقول بمعنى واحد ، أي وقوله ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم ﴿وَقُلْ : سَلامٌ﴾ سلام متاركة وهجران ، لا سلام تحية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يطلعون على ما أعد لهم من عذاب ، وهذا تهديد وتوبيخ لهم أي للكفار.

المناسبة :

بعد بيان أحوال المجرمين الكفار في الآخرة ، أردفه تعالى ببيان استحالة نسبة الولد والشريك له ، وأنه المعبود بحق في السماء والأرض وأنه الحكيم في صنعه العليم بكل شيء ، وأن الله سبحانه مالك السموات والأرض ومالك كل شيء في الكون ، وأن الآلهة المعبودة من دون الله ليس لها أي نفع كالشفاعة في الآخرة ، وأن المشركين متناقضون حين يقرون بأن الخالق للكون هو الله ، ثم يعبدون معه غيره ، وأن حسابهم آت يوم القيامة الذي لا يعلم بميقاته أحد غير الله تعالى.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ أي قل يا محمد : إن ثبت ببرهان صحيح لله تعالى ولد ، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته ، وأول من يعظمه كما يعظّم الرجل ولد الملك لعظم أبيه ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، ويستحيل أن يكون له ولد فهو محال في ذاته ، لأنه يؤدي إلى العجز والحاجة لغيره والنقص ، والإله كامل الصفات. والجملة شرطية لفظا ومعنى ، مركبة من شرط وجزاء ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل ، بقصد المبالغة في نفي الولد ، وهو أبلغ وجوه النفي وأقواها ، كما تقول لمن يجادلك : إن ثبت ما تقول بالدليل فأنا أول من يعتقد به.

وهو مثل قوله تعالى : ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر ٣٩ / ٤] وقوله سبحانه : ﴿لَوْ

﴿كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٢] أي لو كان في السموات والأرض أكثر من إله لفسدت.

ويؤكد نفي الولد قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبِّ الْعَرْشِ ، عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزيها له وتقديسا عما يقولون من الكذب بأن له ولدا ، ويفترون عليه تعالى ما لا يليق بجنابه ، أو تعالى وتنزه وتقدس خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فهو مالك السموات والأرض ، ورب العرش المحيط بالكون ، وهو منزه عما يصفه به المشركون كذبا من نسبة الولد إليه.

ثم أمر الله تعالى نبيه بالإعراض عن المشركين المعاندين قائلا :

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي فاتركهم أيها النبي يخوضوا في جهلهم وباطلهم وضلالهم ، ويلعبوا ويلهوا في دنياهم ، حتى يلقوا يوم القيامة الذي يوعدون به. وفي هذا تهديد ووعيد.

ويزيد الله تعالى تأكيده تنزيه نفسه عن الولد قائلا :

١ . ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو الله المعبود بحق في السماء ، والمعبود بحق في الأرض ، فلا يستحق العبادة سواه ، وهو الحكيم في تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم. والمعنى : كما أنه تعالى ليس له ولد ، ليس له مكان يستقر فيه ، بل له الألوهية والربوبية في الكون كله ، وفي كل مكان ، ويستحيل عليه المكان ، لأنه يكون محدودا محصورا في جهة معينة ، له حجم ونهاية ، وتلك صفات الحوادث ، والله منزه عنها ، فلا يحده زمان ومكان ، والحكمة البالغة والعلم الواسع يتنافيان مع إثبات الولد لله.

ثم أبطل الله تعالى قول الكفرة : إن الأصنام تنفعهم ، فقال :

٢ . ﴿وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تعاظم وتعالى وزادت خيراته وبركاته الله مالك السموات ومالك الأرض ، وما بينهما من الفضاء والهواء وأنواع الحيوان والإنسان وخالق كل شيء ، وهو المختص بعلم الوقت الذي تقوم فيه الساعة ، وإليه مرجع ومصير الخلائق كلها ، فيجازي كل إنسان بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

وهذه صفات تتنافى كلها أيضا مع إثبات ولد لله ، لأنه تعالى غير محتاج لمعونة أحد من خلقه ، كما أن له السلطان المطلق في الحساب والجزاء في عالم القيامة ، ولما نفى الله تعالى الولد أتبعه بنفي الشركاء ، فقال مؤكدا عدم نفع الأصنام :

٣ . ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ ، إِلَّا [١] مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولا تملك . ولا تقدر . الأصنام وكل معبود مدعو من دون الله الشفاعة عند الله كما يزعم عبادها أنهم يشفعون لهم ، لكن من آمن وشهد بالحق على بصيرة ويقين بأن الله واحد لا شريك له ، فإن شفاعته مقبولة عند الله بإذن الله. فقوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه : وهم على علم وبصيرة بما شهدوا به. وهذا دليل على أن إيمان المقلّد وشهادته غير معتبرين.

ثم أبان الله تعالى تناقض المشركين قائلا :

٤ . ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي وتا لله لئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره عمن خلقهم؟ لأجابوا بأنه الله ، فهم يعترفون بأنه الخالق للأشياء ، جميعها ، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئا ، ولا يقدر على شيء ، فكيف يصرفون عن العبادة الحقه عبادة الله إلى عبادة غيره ، مع هذا الاعتراف؟ إنهم في هذا التناقض في غاية الجهل والسفاهة وسخافة

---

(١) استثناء منقطع بمعنى لكن ، ويجوز أن يكون متصلا كما بينا.

العقل ، وهذا مدعاة للعجب من إشراكهم ، والغرض من الآية : التعجيب من حالهم أنهم يعترفون بالصانع ، ثم يجعلون له أندادا.

ثم أعلن الله تعالى علمه بشكوى النبي ﷺ من إعراض قومه قائلا :

٥ ـ ﴿وَقِيلِهِ : يا رَبِّ ، إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ويعلم الله تعالى علم الساعة وقول النبي ﷺ وشكواه إلى ربه من قومه الذين كذبوه : يا ربّ ، إن هؤلاء القوم الذين أرسلتني إليهم قوم لا يؤمنون ولا يصدقون بك ولا برسالتي إليهم ، كما أخبر تعالى في آية أخرى : ﴿وَقالَ الرَّسُولُ : يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٣٠].

ثم أمر الله تعالى نبيه بالإعراض عنهم ونبذهم لإشراكهم قائلا :

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ : سَلامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي اصفح عن المشركين صفح المغاضب لا الموافق المجامل ، وأعرض عما يقولون وما يرمونك به من السحر والكهانة ، واصبر على دعوتهم إلى أن يأتي أمر الله ، وقل : أمري معكم مسالمة ومتاركة إلى حين ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد من الله لهم ، ووعد ضمني بنصر الإسلام والمسلمين عليهم ، وقد أنجز الله وعده ، فأيد رسوله والمؤمنين ، وهزم أركان الشرك والمشركين ، وطهر جزيرة العرب من فلولهم وآثارهم ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وانتشر الإسلام ـ ولله الحمد ـ في المشارق والمغارب.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات البيّنات إلى ما يأتي :

١ ـ إن إنكار وجود الولد لله تعالى ليس عنادا ولا منازعة ، وإنما بدلالة الأدلّة القاطعة على نفي وجود الولد ، فالعبرة للدّليل ، وقد أثبت الدّليل القاطع

عدم وجود الولد لله تعالى ، لأن صفة الألوهية تقتضي الكمال والقدرة والحكمة والعلم ، واتّخاذ الولد دليل العجز والنقص.

وهذا مأخوذ من معنى الآية الأولى : ﴿قُلْ : إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ..﴾ أي لو كان له ولد كنت أول من عبده ، على افتراض أن له ولدا ثابتا بالبرهان ، ولكن لا ينبغي ذلك ، ولم يقم دليل عليه.

٢ ـ نزّه الله نفسه ربّ السموات والأرض عن كلّ ما يقتضي الحدوث ، وأمر النّبيّ ﷺ بالتّنزيه عما يقوله المشركون من الكذب.

٣ ـ أمر الله نبيّه أيضا أن يترك المشركين يخوضون في باطلهم ، ويلعبون في دنياهم ، حتى يأتيهم إما العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

٤ ـ كذب الله المشركين بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ ..﴾ في أن لله شريكا وولدا ، فهو وحده المستحق للعبادة في السماء والأرض.

قال الرّازي : هذه الآية من أدلّ الدّلائل على أنه تعالى غير مستقرّ في السماء ، لأنه تعالى بيّن بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالألوهية كنسبته إلى الأرض ، فلما كان إلها للأرض ، مع أنه غير مستقرّ فيها ، فكذلك يجب أن يكون إلها للسماء ، مع أنه لا يكون مستقرّا فيها [1].

٥ ـ الله تعالى مصدر الخير والبركة ، وهو صاحب العظمة ، مالك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات والموجودات والعناصر ، وهو العالم بوقت قيام القيامة ، وإليه مصير الخلق للحساب والجزاء. وقوله : ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ بعد بيان كمال قدرته : هو التّنبيه على أن من كان كامل الذّات والعلم والقدرة ، امتنع عليه اتّخاذ ولد كعيسى موصوف بالعجز وعدم الاطّلاع على أحوال العالم.

---

(١) تفسير الرّازي : ٢٧ / ٢٣٢

٦ ـ نفى الله تعالى الولد إليه ، ثم نفى الشّركاء بقوله : ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ ..﴾ أي لا يملك عيسى وعزير والملائكة وغيرهم من الأصنام الشّفاعة إلا من شهد بالحقّ وآمن على علم وبصيرة ، وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به.

٧ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على أمرين :

الأول ـ أنّ الشفاعة بالحقّ غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التّقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة.

الثاني ـ أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالما بها ، كما روى البيهقي والحاكم وابن عدي عن ابن عباس ـ وهو ضعيف ـ عن النّبي ﷺ : «إذا رأيت مثل الشمس فاشهد ، وإلا فدع».

٨ ـ المشركون قوم متناقضون كما ثبت في أول السورة وآخرها ، فلما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى ، فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام جامدة لا تضرّ ولا تنفع؟ الواقع أنهم يكذبون على الله حين يقولون : إن الله أمرنا بعبادة الأصنام.

ودلّ قوله تعالى : ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ على أن إفكهم ليس منهم بل من غيرهم.

٩ ـ شكا النّبي ﷺ قومه إلى ربّه بأنّهم لا يؤمنون بالله وحده لا شريك له ، ولا برسالته ولا بالقرآن المنزل عليه. وهذه الشكوى صدرت منه ﷺ بعد أن ضجر منهم ، وعرف إصرارهم على الكفر. وهذا قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال : ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ، وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً﴾ [نوح ٧١ / ٢١].

١٠ ـ أمر الله نبيّه بالصّفح عن المشركين صفح الغاضب النّاقم لا الرّاضى بفعلهم ، وبالمتاركة حتى حين ، فسوف يعلمون ما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة ، وهذا تهديد للمشركين ، ولا حاجة كما ذكر الرّازي إلى القول بأن هذه الآية منسوخة بآية السّيف ، لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة ، فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ ، وأما التّكرار فيكون بدليل آخر ، كما أن اللفظ قد يتقيّد بقرينة العرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الدخان

مكيّة ، وهي تسع وخمسون آية.

تسميتها :

سمّيت (سورة الدّخان) لما فيها من تهديد المشركين في الماضي بالجدب والقحط الذي يجعل الجائع كأنه يرى في الفضاء دخانا من شدة الجوع ، وتهديد الأجيال المقبلة بظهور الدّخان في السماء مدة أربعين يوما والذي يعدّ أمارة من أمارات السّاعة.

مناسبتها لما قبلها :

تتجلّى مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حاميم من وجوه ثلاثة :

١ ـ افتتاح كلتا السّورتين بالقسم بالقرآن العظيم تنويها به ، في قوله تعالى : ﴿**حم ، وَالْكِتابِ الْمُبِينِ**﴾.

٢ ـ تشابه خاتمة السّورة المتقدّمة ومطلع هذه السّورة ، حيث ختمت سورة الزّخرف بالتّهديد والوعيد في قوله تعالى : ﴿**فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ [٨٣] فذكر يوما غير معيّن ولا موصوفا ، ثم أبان وصفه في سورة الدّخان في القسم الأول منها حيث أنذر تعالى المشركين في قوله : ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ**﴾ [١٠].

٣ ـ حكاية ما قاله النّبي ﷺ لقومه وما قاله أخوه موسى عليه السلام لقوم

فرعون ، فقال النّبي ﷺ في السّورة المتقدّمة : ﴿يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [٨٨] ، ثم قال الله له : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ : سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٩] ، وحكى الله عن موسى في هذه السّورة : ﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ [٢٢] ، وقال موسى : ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [٢٠ ـ ٢١] ، والتّشابه واضح في الموقفين.

ما اشتملت عليه السّورة :

موضوع سورة الدّخان المكيّة كسائر موضوعات السّور المكيّة وسور آل حاميم السّبع ، وهو بيان أصول العقيدة الإسلاميّة : التوحيد ، والنّبوة والرّسالة ، والبعث.

بدئت السورة ببيان تاريخ بدء إنزال القرآن في ليلة القدر من رمضان ، رحمة من الله بعباده ، وأن منزله هو مالك الكون كله والمخلوقات جميعها ، وأنه هو الإله الحقّ الواحد الذي لا شريك له ، غير أن المشركين في شكّ وارتياب من أمر القرآن.

ثم أعدتهم بالعذاب الشديد ، وبالدّخان المخيف الذي ينذرهم بأسوأ العواقب ، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا.

وأردفت ما سبق بعظتهم بقصة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ، حيث نجّى الله المؤمنين ، وأغرق الكافرين في البحر.

ثم وصفت مشركي مكة بأنهم قوم منكرون للبعث في قوله تعالى : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى ، وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [٣٥] ، وهدّدتهم بالإهلاك كما أهلك المجرمين الأشدّاء من قبلهم ، مثل قوم تبّع الحميري ، مع إيراد الدّليل على قدرة الله عزّ وجلّ على كلّ شيء.

ثمّ وصفت لهم أهوال يوم القيامة وما فيه من الحساب والعقاب وطعام الزّقوم في نار جهنم وغير ذلك مما يرهب ويرعب ، ويثير المخاوف الشّديدة في النّفوس.

وختمت السّورة بنعت وبيان مصير الأبرار ومصير الفجّار ، لترغيب الفريق الأول وتبشيره بالعاقبة الحميدة ، وترهيب الفريق الثاني وإنذاره بالنّكال والعذاب الشّديد.

فضلها :

ذكر المفسّرون أحاديث في فضل سورة الدّخان ، لكنها لا تخلو من ضعف [١] ، منها ما رواه الدّارميّ في مسنده عن أبي رافع قال : «من قرأ الدّخان في ليلة الجمعة ، أصبح مغفورا له ، وزوّج من الحور العين» ورواه الثّعلبي مرفوعا عن أبي هريرة أنّ النّبيّ ﷺ قال : «من قرأ الدّخان في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له» وفي لفظ آخر للتّرمذي : «من قرأ حم الدّخان في ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» ، وعن أبي أمامة قال : سمعت النّبي ﷺ يقول : «من قرأ حم الدّخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة ، بنى الله له بيتا في الجنة».

إنزال القرآن في ليلة القدر المباركة وصفات منزله

﴿حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

---

(١) وهكذا أغلب الأحاديث الواردة في فضائل السّور ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها ، لذا استبعدت ذكر هذه الأحاديث ، وأوردت بعضها هنا للتّنبيه والبيان.

﴿(٦) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩)﴾

الإعراب :

﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنا أَمْراً﴾ : إما منصوب على الحال بمعنى آمرين ، أو منصوب على المصدريّة ، أو منصوب بفعل مقدّر ، أي أعني أمرا ، وهو قول أبي العباس المبرّد.

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ رَحْمَةً﴾ : إما منصوب على أنه مفعول لأجله ، أي للرّحمة ، وحذف مفعول ﴿مُرْسِلِينَ﴾ ، أو لأنه مفعول ﴿مُرْسِلِينَ﴾ والمراد بالرّحمة حينئذ النّبي ﷺ ، لقوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٧] ، أو منصوب على البدل من قوله : ﴿أَمْراً﴾ ، أو منصوب على المصدر ، أو منصوب على الحال ، وهو قول أبي الحسن الأخفش.

﴿رَبِّ السَّماواتِ﴾ بالجرّ : بدل من ﴿رَبِّكَ﴾ ، وبالرّفع : خبر آخر ، أو صفة ، أو استئناف على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو ربّ السموات.

البلاغة :

﴿حَكِيمِ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة على وزن فعيل.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بينهما طباق.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ حثّ وتحريض على الإيمان والتفكّر والتّبصر.

المفردات اللغوية :

﴿حم﴾ الحروف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن ، والتّنبيه على خطورة ما يلقى من أحكام في هذه السّورة ، كما تقدّم. ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ هذا قسم بالقرآن ، أي والقرآن ذي البيان الواضح لكل حاجات الإنسان في الدّين والدنيا.

﴿لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ هي ليلة القدر ، ابتدئ فيها إنزال القرآن ، أو أنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وبركتها لأن نزول القرآن سبب للمنافع الدّينية والدّنيوية. ﴿مُنْذِرِينَ﴾ مخوّفين به ، وهو استئناف يتبيّن فيه المقتضي للإنزال.

﴿فِيها﴾ في ليلة القدر. ﴿يُفْرَقُ﴾ يفصّل ويبيّن. ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ محكم لا لبس فيه ، من الأمور المحكمة التّشريعية ، والأرزاق والآجال وغيرها على مدار السّنة إلى تلك الليلة. ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنا﴾ أي أعني بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا على مقتضى حكمتنا ، وهو مزيد تفخيم للأمر. ﴿مُرْسِلِينَ﴾ الرّسل : محمد ﷺ ومن قبله عليهم السلام . ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ رأفة بالمرسل إليهم. ﴿السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وأحوالهم ، وهو وما بعده بيان أنّ الرّبوبية لا تحقّ إلا لمن هذه صفاته ، مما ينفي ربوبية غيره. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم وفي أنه تعالى ربّ السموات والأرض ، أو كنتم تطلبون اليقين وتريدونه.

﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ كما تشاهدون. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍ﴾ من البعث ، وهو ردّ لكونهم موقنين. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يعبثون استهزاء بالنّبيّ ﷺ ، لذلك قال : اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف».

التفسير والبيان :

﴿حم ، وَالْكِتابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ أقسم الله سبحانه بالقرآن العظيم الذي هو الكتاب الموضّح لكلّ ما يحتاجه الإنسان من أمور الدّين والدّنيا ، على أنه أنزل القرآن في ليلة كثيرة الخيرات التي هي ليلة القدر ، كما جاء مبيّنا في آية أخرى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر ٩٧ / ١] ، من ليالي شهر رمضان الذي نزل فيه القرآن ، كما قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ﴾ [البقرة ٢ / ١٨٥] ، أي أنه بدئ بإنزاله في ليلة القدر من ليالي رمضان ، واستمرّ نزوله منجّما ثلاثا وعشرين سنة ، أو أنزل القرآن كلّه في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا.

إنّا كنّا بهذا القرآن منذرين الناس من العذاب الأليم في الآخرة إذا اقترفوا الشّرك والمعاصي ، ومعلّمين النّاس ما ينفعهم ويضرّهم شرعا لتقوم حجّة الله على عباده.

قال ابن كثير : ومن قال : إنها ليلة النّصف من شعبان ـ كما روي عن عكرمة ـ فقد أبعد النّجعة ـ أي الطلب ـ فإن نصّ القرآن أنها في رمضان [١] وقال القرطبي بعد حكاية قول عكرمة : إنها ليلة النّصف من شعبان : والأول ـ أي الرأي القائل بأنها ليلة القدر ـ أصح ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢].

وسبب بدء نزوله في ليلة القدر ما قال تعالى :

﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي في ليلة القدر يفصّل ويبيّن الأمر المحكم ، فيكتب فيها ما يكون في السّنة من الآجال والأرزاق ، من خير وشرّ ، وحياة وموت ، وغير ذلك ، أو ما يكون من أمور محكمة لا تبديل فيها ولا تغيير ، بتشريع الأحكام الصالحة لهداية البشر في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، فالحكيم : معناه ذو الحكمة. وإنما أنزل القرآن في هذه الليلة خصوصا ، لأن إنزال القرآن أشرف الأمور الحكمية ، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر ذي حكمة.

والغاية من إنزال القرآن ما قال سبحانه :

﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي أنزل الله القرآن من لدنه متضمنا وحيه وشرعه ، وقد فعلنا ذلك الإنذار ، وأرسلنا الرسول وجميع الأنبياء إلى الناس لتلاوة آيات الله البيّنات ، رحمة ورأفة منا بهم ، لبيان ما ينفعهم وما يضرّهم ، ولئلا يكون للناس حجّة بعد إرسال الرّسل ، فرسالة الرّسل هي الرّحمة المهداة الدّائمة إلى البشر ، وتتمثل الآن بالثّابت القطعي النّزول منها ، وهو القرآن ورسالة النّبي ﷺ. قال أبو حيان في تفسير ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. لما ذكر إنزال القرآن ذكر المرسل ، أي مرسلين

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٣٧

(٢) تفسير القرطبي : ١٦ / ١٢٦

الأنبياء بالكتب للعباد ، فالجملة المؤكّدة مستأنفة ، وقيل : يجوز أن يكون بدلا من : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[1].

وإنما فعل الله ذلك ، لأنه السّميع لأقوال البشر ، العليم بأحوالهم وبما يصلحهم ، فأرسل الرّحمة إليهم رعاية لحاجتهم.

والدّليل على السّمع والعلم وإنزال القرآن ما قاله تعالى :

﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن الله السّميع العليم الذي أنزل القرآن هو ربّ السموات والأرض وما بينهما من سائر المخلوقات ، وخالقها ومالكها وما فيها ، إن كنتم تريدون معرفة ذلك عن يقين تام لا شكّ فيه ، قال أبو مسلم : معنى قوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا.

ثم ذكر الله تعالى صفات أخرى هي الوحدانية والقدرة فقال :

﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي بعد إثبات الرّبوبية لله أثبت الوحدانية ، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره ، وأثبت القدرة فهو المحيي والمميت ، يحيي ما يشاء ، ويميت ما يشاء ، ثم أكّد الرّبوبية على البشر بالذّات ، فهو ربّكم أيها المخاطبون وربّ آبائكم وأجدادكم الأولين ، ومدبّر شؤونهم ، فهو المستحق للعبادة ، دون غيره من الآلهة المزعومة ، ثم ذكر حقيقة المشركين ، فقال :

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي بل هؤلاء المشركون في شكّ من أمر البعث والتّوحيد والإقرار الذي صدر منهم بأن الله هو خالقهم ، وهم في الواقع عابثون لا هون لاعبون ، لا جدّية عندهم في الاعتقاد الصحيح ، والسّلوك المطابق له.

---

(١) البحر المحيط : ٨ / ٣٣.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

أولا ـ عظّم الله تعالى القرآن في هذه الآيات بأمور هي :

١ ـ أقسم به ، والله لا يقسم إلا بشيء عظيم ، ولله أن يقسم بما يشاء على ما يشاء في أي وقت يشاء.

٢ ـ أقسم به على أنه أنزل في ليلة مباركة هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزّة في سماء الدنيا ، ثم أنزله الله على نبيّه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة. ذكر الطبري عن قتادة أنه قال : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، والتوراة لستّ ليال منه ، والزّبور لاثنتي عشرة مضت ، والإنجيل لثمان عشرة منه ، والفرقان لأربع وعشرين مضت.

٣ ـ وصف الله القرآن بكونه كتابا مبينا.

٤ ـ وصف الله ليلة إنزال القرآن بأنه يفرق فيها كل أمر حكيم ، قال ابن عباس وغيره : يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقال ابن عمر : إلا الشّقاء والسّعادة ، فإنهما لا يتغيّران.

٥ ـ الغاية من القرآن إنذار البشر وتخويفهم العذاب ليصلح حالهم في الدنيا.

٦ ـ إن إنزال القرآن كان بأمر الله ومن عنده.

٧ ـ كان إنزاله رحمة من الله بعباده.

٨ ـ كان إنزاله محققا لمصالح الناس وحاجاتهم ، لأن الله هو السّميع العليم ،

ربّ السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ، وهو الواحد القهّار ، يحيي الأموات ويميت الأحياء ، فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء ، ومالك الناس عند نزول القرآن ومالك من تقدّم منهم ومالك من سيوجد إلى يوم القيامة ، فما على الناس إلا اتّقاء تكذيب النّبي محمد ﷺ لئلا ينزل بهم العذاب.

ثانيا ـ أظهر الله تعالى حقيقة اعتقاد المشركين مبيّنا أنهم ليسوا في الواقع على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم : إن الله خالقهم ، وإنما يقولونه تقليدا لآبائهم من غير علم ولا حجة ولا برهان ، فهم في شكّ بيّن ، وإن توهّموا أنهم مؤمنون ، فهم يلعبون في دينهم على وفق أهوائهم من غير حجّة.

تهديد المشركين بالعذاب

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)﴾

الإعراب :

﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ الجملة حالية.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى﴾ : مبتدأ ، و ﴿أَنَّى لَهُمُ﴾ : خبره.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ... يَوْمَ﴾ : منصوب على الظرف ، والعامل فيه : إما فعل مقدر ، يدلّ عليه ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾ أي ننتقم يوم نبطش ، ولا يجوز تعلّقه بقوله : ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ لأن ما بعد (إن) لا يعمل فيما قبلها ، أو يكون العامل فيه ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ ..﴾.

المفردات اللغوية :

﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر. ﴿بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾ بيّن واضح ، والمراد من الدّخان : يوم الشدّة والمجاعة في الماضي ، فإن الجائع يرى ما فوقه إلى السّماء ظلاما من شدّة الجوع ، وضعف البصر ، كهيئة الدّخان ، وفي المستقبل يمكن تفسير الدّخان بالغبار الذّري الذي يهدّد البشرية بالموت ويعقبه ظلام. ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم من كلّ جانب ، وهو صفة للدّخان. ﴿هذا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يقولون : هذا عذاب مؤلم ، ويقولون : ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ ، إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مصدّقون بك وبنبيّك ، وهذا وعد بالإيمان إن كشف العذاب عنهم.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى﴾؟ أي من أين لهم ، وكيف يتذكرون في هذه الحال؟ المعنى : لا ينفعهم الإيمان عند نزول العذاب. ﴿وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بيّن الرّسالة ، بيّن لهم بالآيات والمعجزات ما يوجب الإيمان والتّذكّر. ﴿مُعَلَّمٌ﴾ أي يعلمه غيره القرآن ، قالوا : يعلمه غلام رومي لبعض ثقيف.

﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ﴾ نكشف العذاب بدعاء النّبيّ ﷺ ، فإنه دعا ، فرفع القحط. ﴿قَلِيلاً﴾ كشفا قليلا أو زمنا قليلا ، وهو ما بقي من أعمارهم. ﴿إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾ إلى الكفر ، فعادوا إليه بعد كشف العذاب.

﴿نَبْطِشُ﴾ نأخذ بقوة وشدة ، والبطش : الأخذ الشديد ، والبأس. ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرى﴾ يوم القيامة أو يوم بدر. ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ ننتقم منهم بسبب كفرهم.

سبب النّزول :

نزول الآية (١٠):

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ﴾ : أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : إن قريشا لما استعصوا على النّبي ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسنيّ يوسف ، فأصابهم قحط ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرّجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدّخان من الجهد ، فأنزل الله : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾ فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، استسق الله لمضر ، فإنها قد هلكت ، فاستسقى ، فسقوا ، فنزلت.

نزول الآيتين (١٥ . ١٦):

﴿إِنَّكُمْ عائِدُونَ ، يَوْمَ نَبْطِشُ ...﴾ أخرج البخاري في تتمة الرواية السابقة : فلما أصابتهم الرّفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى ، إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر.

المناسبة :

بعد أن وصف الله تعالى المشركين بأنهم في شكّ من التّوحيد والبعث وقدرة الله ، ذكر تعالى أوصاف يوم العذاب الذي سيحلّ بهم في الدّنيا والآخرة ، تهديدا لهم ، وتسلية لرسوله ، وأنه لا يؤمل اتّعاظهم بالرغم من تهديدهم وإظهار المعجزات والبيّنات على يد رسول الله ، ووصفهم له بأنه معلّم مجنون.

التفسير والبيان :

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾ هذا توعّد من الله وتهديد للمشركين ، يقول الله فيه لنبيّه : فانتظر اليوم الذي تأتي فيه السماء بهيئة كالدّخان الواضح المنتشر في الفضاء ، وهذا الدّخان بالنسبة للماضي هو ما أصاب قريشا من الجدب والقحط مدة سبع سنين ، بدعاء النّبي ﷺ ، حتى كان الرجل يرى من شدّة الجوع ما بين السماء والأرض دخانا ، لضعف البصر وزيغانه ، كما تقدّم في بيان سبب النّزول عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أو هو غبار الحرب يوم بدر.

وأما بالنسبة للمستقبل فهو أمارة وعلامة من أشراط الساعة ، يمكث في الأرض أربعين يوما ، حيث يظهر في الفضاء غبار ذري أو غيره كالدّخان ، يجعل الجو مظلما ، وهذا ما أكّده العلماء في نهاية العالم ، حيث تضعف الطاقة الشمسية. وصفة ذلك الدّخان العموم والشمول ، كما قال تعالى :

﴿يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يشمل الناس ويحيط بهم من كل جانب ، فيقولون : هذا عذاب أليم جدا ، أو يقول الله لهم ذلك توبيخا وتقريعا.

وحينئذ يستغيث الناس بالله قائلين :

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ ، إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي يقولون : يا ربّنا اكشف عنّا عذابك ، إنّا مصدّقون بالله ورسوله ، أو إن كشفت عنّا هذا العذاب أسلمنا وآمنا ، والمراد بالعذاب في الماضي الجوع الذي كان بسببه رؤية ما يشبه الدّخان. روي أن المشركين أتوا النّبي ﷺ وقالوا : «إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا».

وأما في المستقبل فهو عذاب أشدّ يحدث قبيل الساعة ، ويكون من أشراطها وعلاماتها.

وهذا كقوله عزّ وجلّ : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٧] ، وقوله جلّ وعلا : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ ، فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا : رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ، وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤٤].

ثم نفى الله صدقهم في الوعد بالإيمان قائلا :

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى ، وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ، وَقالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أي من أين وكيف لهم التّذكر والاتّعاظ والوفاء بالوعد بالإيمان بعد كشف العذاب؟ وكان قد جاءهم رسول مبين أدلّة الإيمان ، ظاهر الآيات والمعجزات ، ثم أعرض هؤلاء الكفار عنه ، وقالوا عنه : إنما يعلمه القرآن بشر ، وقالوا أيضا : إنه مجنون لا عقل له ، وهذا يدلّ على أنّ الآيات نزلت في قريش ،

أي كيف يتذكر هؤلاء وأنّى لهم الذّكرى؟ وقد سبق ما حدث منهم من الإعراض عن رسول الله وعن القرآن وهديه ، وافتروا على الرّسول بأن معلمه غلام رومي وأنه مجنون.

وهذا كقوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ، وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى﴾؟ [الفجر ٨٩ / ٢٣].

ثم أعلن الله تعالى عودتهم صراحة إلى الكفر ، فقال :

﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً ، إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾ أي إنا سنرفع عنكم العذاب زمانا قليلا ، وسنؤخّره قليلا بعد توافر أسبابه ، وهذا كالحكم الصادر بالعقوبة مع وقف التّنفيذ ، فإنكم راجعون إلى ما كنتم عليه من الشّرك والكفر والعناد ، وقد رجعوا فعلا.

وهذا كقوله تعالى في قوم يونس : ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ [يونس ١٠ / ٩٨].

وتأخير العذاب إلى يوم القيامة كما قال تعالى :

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى ، إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أي إنكم مؤجلون إلى عذاب شديد هو عذاب النار في يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي يكون فيه البأس الأكبر والأخذ الأشد ، وفيه ننتقم أشدّ الانتقام ، أي نعاقب هؤلاء الكفار.

وقيل كما روي عن ابن مسعود : إنه يوم بدر ، لما عادوا إلى التّكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم ، انتقم الله منهم بوقعة بدر ، قال ابن مسعود : البطشة الكبرى : يوم بدر.

والظاهر كما رجّح ابن جرير الطبري وابن كثير أن ذلك يوم القيامة ، وبه قال الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١ ـ هدد الله المشركين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، وطالب نبيّه بأن ينتظر وجود العذاب بهؤلاء الكفار ، أما في الدنيا فيتعرّضون لظلمة في أبصارهم من شدة الجوع ، لأن النّبي ﷺ لما دعا عليهم بقوله : «اللهم اجعل سنيّهم كسنيّ يوسف» ارتفع المطر وأصابت قريشا شدة المجاعة ، حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف ، فكان الرجل ، لما به من الجوع يرى ما بينه وبين السماء كالدّخان ، كما قال ابن عباس وغيره.

وأما في الآخرة فينتقم الله منهم يوم البطشة الكبرى ـ يوم القيامة ـ ويدخلهم النار.

ثم إن من علامات القيامة ظهور دخان في العالم ، أي ظلمة بسبب ضعف الطاقة الشمسية في ذلك الوقت ، وذلك يوم عسير وشديد على الكافرين ، وأما المؤمنون فينجيهم من بأس ذلك اليوم ، ويحميهم من شدته.

روى أبو سعيد الخدري مرفوعا : «أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة ، يأخذ المؤمن منه كالزّكمة (الزّكام) وينفخ الكافر حتى يخرج من كلّ مسمع منه». وعن حذيفة أنّ النّبي ﷺ قال : «أوّل الآيات : الدّخان ، ونزول عيسى ابن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن أبين ، تسوق الناس إلى المحشر» وأبين : اسم رجل بنى هذه البلدة ونزل بها.

٢ ـ شأن الكافر وطبيعته اللجوء إلى الله وقت الشّدة والمحنة ، ثم العودة إلى الكفر بعد الفرج وكشف الضّرّ. وهذا ما حدث لمشركي مكة ، فقد روي : أن قريشا أتوا النّبيّ ﷺ وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هذا القول.

٣ ـ الله سبحانه عليم بما يحدث من الكفار ، ولكن اقتضت رحمته أن يشمل عباده جميعا باللطف المرة تلو المرة ، لعلهم أن يصلحوا أحوالهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، لأنه يمهل ولا يهمل.

وهذا معروف عن قريش ، فمن أين لهم التّذكر والاتّعاظ والاعتبار عند حلول العذاب؟ وقد جاءهم رسول من أنفسهم يبين لهم الحق ، ثم أعرضوا عنه ، بل إنهم اتّهموه زورا وبهتانا بأنه يعلّمه بشر وهو غلام رومي لبعض ثقيف ، أو تعلّمه الكهنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ [الكهف ١٨ / ٥].

٤ ـ مع كلّ هذا ومع علم الله الشامل بما سيكون ، وعد أن يكشف عن قريش ذلك العذاب في زمان قليل ، ليعلم أنهم لا يفون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ، كما قال ابن مسعود ، فلما كشف عنهم باستسقاء النّبي ﷺ لهم ، عادوا إلى تكذيبه.

ومن قال : إن الدّخان منتظر قرب القيامة قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية ، من آيات قيام الساعة ، ثم من أصرّ على كفره استمرّ عليه.

ومن قال : هذا في القيامة قال : أي لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر.

٥ ـ إن يوم القيامة يوم رهيب ، فهو يوم البطشة الإلهية الكبرى ، ويوم الانتقام من الظالمين والمشركين والكافرين ، وذلك بعذاب جهنم.

والخلاصة : تضمّنت الآيات تحليلا دقيقا لطبائع الكفار ، ونبّهت إلى أنهم لا يوفون بعهدهم ، وأنهم في حال العجز يتضرّعون إلى الله تعالى ، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف ، وأخبرت عن تهديدات متكررة ، وتقريعات وتوبيخات متوالية بقصد الرّدع والزّجر وتدارك الأمر قبل فوات الأوان.

ضرورة الاعتبار بقوم فرعون وإنجاء بني إسرائيل

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (٢٧) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (٣٣)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ أَنْ﴾ : في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، أي وجاءهم رسول بأن أدوا ، و ﴿عِبادَ اللهِ﴾ : إما منصوب ب ﴿أَدُّوا﴾ أو منصوب على النداء المضاف ، ومفعول ﴿أَدُّوا﴾ محذوف ، تقديره : أدوا إليّ أمركم يا عباد الله. و ﴿أَنْ﴾ : مفسرة لأن ﴿جاءَهُمْ﴾ تتضمن معنى القول ، لأنه لا يجيئهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله ، أو هي المخففة من الثقيلة ، ومعناه : وجاءهم بأن الشأن والحديث : أدّوا إلي.

﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ﴾ : في موضع نصب بالعطف على ﴿أَنْ﴾ الأولى.

﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، أي : من أن ترجمون.

﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ ...﴾ بفتح ﴿أَنَ﴾ : في موضع نصب ب ﴿فَدَعا﴾ ومن قرأ بالكسر فعلى تقدير : (قال) أي (فقال : إن هؤلاء).

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً رَهْواً﴾ : حال ، أي ساكنا ، حتى يدخلوا فيه من غير نفرة عنه.

﴿كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها﴾ الكاف : إما في موضع رفع ، خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : الأمر كذلك ، وإما في موضع نصب على الوصف لمصدر محذوف ، تقديره : يفعل فعلا كذلك بمن يريد إهلاكه. ﴿وَأَوْرَثْناها﴾ : عطف على الفعل المقدر ، أو على (تركوا).

﴿مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ ، مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ : ﴿مِنْ﴾ : إما بدل من ﴿الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ وتقديره : من عذاب فرعون ، فحذف المضاف ، أو حال من ﴿الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ أي كائنا من فرعون ، فلا يكون فيه حذف مضاف.

﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان أو حال من ضمير ﴿عالِياً﴾.

البلاغة :

﴿فَتَنَّا﴾ استعارة تبعية ، حيث شبه الابتلاء والاختبار بالفتنة.

﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي﴾ إيجاز بحذف كلام ، أي وقلنا له : فأسر.

﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ﴾ استعارة تمثيلية ، أي لم تحزن على هلاكهم السماء والأرض ، وهذا أسلوب عربي يقال للتحقير والتهكم بحالهم.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ﴾ رثاء وتفجع وإظهار الأسى والحسرة للعبرة والعظة للأحياء.

المفردات اللغوية :

﴿فَتَنَّا﴾ بلونا واختبرنا وامتحنا. ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم ، أو بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ، وقرئ بالتشديد للتأكيد أو لكثرة القوم. ﴿وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى ، أو على المؤمنين ، أو في نفسه فهو جامع لخصال الخير والأفعال الحميدة ، وهو موسى عليه السلام . ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ﴾ بأن أدوا إلي حق الله من الإيمان وقبول الدعوة ، اي أظهروا إيمانكم لي يا عباد الله ، أو أطلقوا معي بني إسرائيل وأرسلوهم. ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مؤتمن على ما أرسلت به ، غير متهم ، لدلالة المعجزات على صدقه ، أو لائتمان الله على وحيه ورسالته ، وهو علة الأمر.

﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ﴾ لا تتكبروا على الله بترك طاعته ، والاستهانة بوحيه ورسوله. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي ببرهان بيّن واضح على رسالتي ، وهو علة النهي. ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي التجأت إليه وتوكلت عليه أن ترجموني بالحجارة ، أو تؤذوني ضربا أو شتما ، أو تقتلوني. ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ تصدقوني. ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ فكونوا بمعزل مني ، واتركوا أذاي ، ولا تتعرضوا لي بسوء ، فإن ذلك ليس جزاء من دعاكم إلى الفلاح.

﴿أَنَّ هؤُلاءِ﴾ بأن هؤلاء. ﴿مُجْرِمُونَ﴾ مشركون ، وهو تعريض بسبب الدعاء عليهم. ﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً﴾ أي فقال : أسر ببني إسرائيل ، أي سر بهم ليلا ، وقرئ بوصل الهمزة من (سرى). ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده. ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ ساكنا منفرجا مفتوحا كما هو على هيئته بعد تجاوزه ، ولا تضربه بعصاك ، ولا تغير منه شيئا ، حتى يدخل فيه القبط شعب فرعون. ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ أي لأنهم غارقون.

﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين. ﴿وَعُيُونٍ﴾ ينابيع جارية. ﴿مَقامٍ كَرِيمٍ﴾ مجالس ومنازل حسنة. ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ من النعم ، أي تنعم وحسن ومتعة ونضرة ، والنّعمة : ما ينعم به على الإنسان ، من الإنعام. ﴿فاكِهِينَ﴾ متنعمين أصحاب فاكهة ، وقرئ «فكهين» أي أشرين بطرين مستهزئين. ﴿كَذلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ، أو مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها. ﴿وَأَوْرَثْناها﴾ أي ورثنا أموالهم. ﴿قَوْماً آخَرِينَ﴾ بني إسرائيل.

﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم ، تقول العرب إذا مات رجل خطير في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس ، وفي حديث رسول الله ﷺ : ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

الشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكي عليك ، نجوم الليل والقمرا

أي يا نجوم الليل والقمر.

وقالت الخارجية :

أيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

قال الزمخشري : وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه. والمراد لا أسف على فرعون وقومه ، بخلاف المؤمنين يبكي عليهم بموتهم مصلاهم من الأرض ، ومصعد عملهم من السماء. ﴿مُنْظَرِينَ﴾ ممهلين ومؤخرين التوبة إلى وقت آخر.

﴿مِنَ الْعَذابِ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم واستخدامه نساءهم. ﴿مِنْ

﴿فِرْعَوْنَ﴾ إما على حذف مضاف ، أي عذاب فرعون أو حال من العذاب كما تقدم. ﴿عالِياً﴾ متكبرا جبارا. ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الشر والفساد ، وهو خبر ثان أي كان متكبرا مسرفا ، أو حال من ضمير ﴿عالِياً﴾ أي كان رفيع الطبقة من بينهم.

﴿اخْتَرْناهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيل واصطفيناهم. ﴿عَلى عِلْمٍ﴾ منا بحالهم أي عالمين باستحقاقهم ذلك. ﴿عَلَى الْعالَمِينَ﴾ اخترناهم على عالمي زمانهم. ﴿الْآياتِ﴾ المعجزات ، كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى. ﴿ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ﴾ اختبار ظاهر.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى إصرار مشركي مكة على كفرهم ، بيّن أن كثيرا من المتقدمين كانوا أمثالهم في تكذيب الرسل ، وفي طليعتهم قوم فرعون ، الذين كذبوا رسولهم موسى عليه السلام ، فنصره الله عليهم ، وأغرقهم ، وجعلهم عبرة للمعتبر.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي لقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون ، وهم قبط مصر ، أرسل الله إليهم رسولا كريما جامعا لخصال الخير والأفعال المحمودة ، وهو موسى عليه السلام ، وهو كريم على الله ، وكريم في قومه.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي وجاءهم رسول بأن أرسلوا معي عباد الله وهم بنو إسرائيل ، وأطلقوهم من العذاب ، فإني رسول من الله مؤتمن على الرسالة غير متهم ، وهذا كقوله عز وجل : ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ ، وَلا تُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾ [طه ٢٠ / ٤٧].

ويجوز أيضا أن يكون قوله : ﴿عِبادَ اللهِ﴾ نداء لهم ، والتقدير : أدوا إلي يا عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان ، وقبول دعوتي ، واتباع سبيلي. وعلل

ذلك بأنه ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته ، وهذا هو الظاهر المناسب لأصول دعوة الرسول قومه وللكلام الآتي بعده ، أما إطلاق بني إسرائيل فهو مطلب فرعي ثانوي بالنسبة لأصل الدعوة.

﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ ، إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي لا تتجبروا ولا تتكبروا عن اتباع آيات الله ، والانقياد لبراهينه ، ولا تترفعوا عن طاعته ومتابعة رسله ، كقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي ، سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر ٤٠ / ٦٠] إني آتيكم بحجة ظاهرة واضحة لا سبيل إلى إنكارها ، وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والمعجزات القاطعات كالعصا واليد وسائر الآيات التسع ، فهددوه بالرجم كما قال تعالى :

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي أستعيذ بالله وألتجئ إليه وأتوكل عليه مما تتوعدوني به من القتل بالحجارة أو الإيذاء والشتم.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي وإن لم تصدّقوني وتقرّوا بنبوتي وبما جئتكم به من عند الله ، فاتركوني ، ولا تتعرضوا لي بأذى إلى أن يحكم الله بيننا.

فلما يئس من إيمانهم ، ولمس إصرارهم على الكفر وعنادهم ، دعا عليهم فقال :

﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ أي فدعا موسى ربه حين كذبوه وهمّوا بقتله بأن هؤلاء قوم مكذبون رسلك مشركون بك ، كما جاء في آية أخرى : ﴿وَقالَ مُوسى : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ ، وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ ، فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ ، قالَ : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما ..﴾ [يونس ١٠ / ٨٨ ـ ٨٩].

وحينئذ أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر سرا ليلا :

﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً ، إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ أي أجاب الله سبحانه دعاءه ، فأمره أن يسير بقومه بني إسرائيل ليلا ، لأن فرعون وقومه يتبعونكم إذا علموا بخروجكم. وهذا كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي ، فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً ، لا تَخافُ دَرَكاً ، وَلا تَخْشى﴾ [طه ٢٠ / ٧٧].

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ أي دع يا موسى البحر ساكنا منفرجا مفتوحا ، لا تضربه بعصاك حتى يعود كما كان ، ليدخله فرعون وجنوده ، فإنهم قوم مغرقون في اليم. وهذه بشارة من الله بنجاتهم وإهلاك عدوهم ليسكن قلب موسى عليه السلام ، ويطمئن جأشه.

ثم ذكر تعالى ما خلّفوه وراءهم من عز ومجد ونعيم وثراء ، فقال :

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ﴾ أي كثيرا ما تركوا في مصر وراءهم من بساتين خضراء ، وحدائق غناء ، وأنهار متدفقة وآبار مترعة بالماء ، وزروع نضرة ، ومنازل ومجالس حسنة وثيرة ، وتنعم بالمال والخير الوفير ، كانوا يرفلون بالنعمة ويتنعمون بعيشة هنية ، ويستمتعون بأنواع اللذة ، كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة ، فيأكلون ويلبسون ما شاؤوا.

﴿كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك والسلب والتدمير فعلنا بالذين كذبوا رسلنا ، ونفعل بكل من عصانا ، وأورثنا تلك البلاد بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين في الأرض ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ، وَما كانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٧].

ثم تهكم الله بهم وأبدى عدم الاكتراث بشأنهم قائلا :

﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾ أي لا أسف ولا حزن عليهم من أحد بسبب بغيهم وفسادهم ، بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم وشدة عنادهم ، ولم يمهلوا لتوبة ، لأنها غير منتظرة منهم.

ثم أتبع الله تعالى ما يقابل النقمة بالنعمة للعبرة ، فقال :

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ ، مِنْ فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لقد خلصنا شعب بني إسرائيل بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفهم بالأعمال الشاقة ، من عذاب فرعون الذي كان متعاليا عنيدا ، متكبرا متجبرا ، ومن المسرفين في الكفر بالله ، وارتكاب معاصيه ، ورأس الكفر : ادعاؤه الألوهية والربوبية بقوله : أنا ربكم الأعلى.

وهذا كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ ، إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٢٨ / ٤] وقوله سبحانه : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٤٦].

ويلاحظ أن بيان الإحسان إلى موسى وقومه كان بعد بيان كيفية إهلاك فرعون وقومه ، لأن دفع الضرر مقدم على جلب المصالح والمنافع.

ثم بيّن الله تعالى مدى تكريمه لبني إسرائيل حين ذاك قائلا :

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ ، وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ﴾ أي لقد اختارهم الله على عالمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك ، لكثرة الأنبياء فيهم ، ولصبرهم مع موسى ، وجهادهم في سبيل الله ، فلما بدلوا الإيمان بالكفر ، والصلاح بالفساد غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير.

وأعطيناهم على يد موسى عليه السلام المعجزات الظاهرة والبراهين الواضحة ، وخوارق العادات ، مما فيه اختبار ظاهر ، وامتحان واضح لمن اهتدى به ، ولننظر كيف يعملون. ومنها : إنجاؤهم من الغرق ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المن والسلوى لهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي :

١ ـ لا يغترن أحد بمال أو جاه أو سلطان أو عزّ أو حكم قوي ، فذلك كله للاختبار والامتحان ، فقد ابتلى الله قوم فرعون بالأمر بطاعة الله ورسولهم موسى عليه السلام ، فكذبوا وكفروا ، والمقصود أنه عاملهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم ، فكذبوا فأهلكوا ، وهكذا يفعل بأعداء محمد صلى الله عليه وسلم إن لم يؤمنوا.

٢ ـ طلب موسى عليه السلام من فرعون وقومه أن يتبعوه في رسالته ، كما قال ابن عباس ، أو أن يرسلوا معه بني إسرائيل ويطلقوهم من العذاب ، كما قال مجاهد ، وهو في الحالين أمين على الوحي ، فما عليهم إلا أن يقبلوا نصحه.

٣ ـ اتبع موسى عليه السلام معهم أسلوبا لطيفا ، فنصحهم بألا يتكبروا على الله ولا يترفعوا عن طاعته ، وخاطبهم بما يقنع عقلا ومنطقا ، فذكر لهم أنه يأتيهم بحجة بينة وبرهان واضح على صدقه ، وصحة دعوته ، وإثبات ألوهية الله الواحد الأحد ، وحرص على مسالمتهم قائلا : إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني ، فدعوني واتركوني ، وخلّوا سبيلي وكفّوا عن أذاي.

٤ ـ لم يدع نبي على قومه إلا بعد اليأس من إيمانهم ، وهكذا فعل موسى عليه السلام ، فإنه لما وجد إصرار فرعون وقومه على الكفر دعا ربه بأن هؤلاء قوم مشركون ، امتنعوا من الإيمان ، ومن إطلاق بني إسرائيل.

٥ ـ أجاب الله دعاء موسى عليه السلام ، فأمره بأن يسير بمن آمن بالله من بني إسرائيل ليلا قبل الصباح ، فإن فرعون وقومه سيتبعونهم حينما يعلمون بخروجهم.

وسير الليل في الغالب إنما يكون عن خوف إما من العدو ، وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان.

وأمره ربه أيضا أن يترك البحر الذي فتح لهم أثناء العبور بأمر من الله مفتوحا ساكنا على حاله ، لا يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ، وذلك استدراج لقوم فرعون ليعبروا فيغرقهم الله بعد أن نجى بني إسرائيل.

٦ ـ دلت آية ﴿كَمْ تَرَكُوا ...﴾ على أنه تعالى أغرق قوم فرعون ، ثم ذكر أنهم تركوا أشياء خمسة : هي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والنّعمة بالفتح من التنعيم ، أي حسن العيش ونضارته ، أو سعة العيش والراحة.

أما النّعمة بالكسر من الإنعام : فهي إحسان الله وعطاؤه وأفضاله.

وورث تعالى تلك الديار بما فيها من الخيرات لبني إسرائيل ، بعد أن كانوا مستعبدين فيها ، فصاروا لها وارثين ، كوصول الميراث إلى مستحقيه.

٧ ـ لا أسف ولا حزن على إهلاك فرعون وجنوده ، لأنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم السماء والأرض لأجله ، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح ، فتبكي فقد ذلك.

قال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمنين أربعين صباحا. وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما في المؤمن : إنه يبكي عليه مصلّاه من الأرض ، ومصعد عمله من السماء. وهذا تعبير كنائي يراد به فقد الأعمال الصالحة. قال الواحدي في البسيط : روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما رواه أبو يعلى

وأبو نعيم في الحلية : «ما من عبد مسلم إلا له بابان في السماء : باب ينزل منه رزقه ، وباب يدخل فيه عمله وكلامه ، فإذا فقداه بكيا عليه» وتلا هذه الآية.

٨ ـ امتن الله تعالى بحق على بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون وقومه إذ نجّاهم أولا من بطش فرعون وظلمه واستعباده لهم ، وقتله الأبناء ، واستخدام النساء ، وتكليفهم بالأعمال الشاقة ، لأن فرعون كان جبارا عاليا من المشركين ، وليس هذا علو مدح بل علو إسراف.

٩ ـ ثم ذكر ثانيا أنه تعالى اختارهم على علم منه باستحقاقهم على عالمي زمانهم ، لكثرة الأنبياء منهم ، وإيمانهم بموسى وصلاحهم ، فلما بدّلوا تبدل الحال ، وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنّم وساءت مصيرا.

١٠ ـ ثم أبان ثالثا أنه تعالى أمدهم بالآيات البينات في التوراة ، وبمعجزات موسى التسع ، كإنجائهم من فرعون ، وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المن والسلوى.

١١ ـ لقد تبين الفارق الواضح في هذه القصة بين الكافرين وبين المؤمنين ، فقد أغرق الله الكفار الأشداء ، ونجّى المؤمنين ، وجعل العاقبة للمتقين ، والنصر للصادقين الصابرين المستضعفين ، وهذا عدل من الله تعالى ، إذ لا يعقل التسوية بين الطائعين والعصاة.

فليعتبر بهذا كفار قريش وأمثالهم ، فقد أهلك الله من هم أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، وأعز سلطانا ومجدا ، وأقوى علما وحضارة.

إنكار المشركين البعث وإثباته لهم

﴿إِنَّ هـؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (٣٨) ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾

الإعراب :

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى﴾ : ﴿إِنْ﴾ : بمعنى «ما» مثل قوله تعالى : ﴿إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ و ﴿هِيَ﴾ مبتدأ ، و ﴿مَوْتَتُنَا﴾ : خبره ، ولا يجوز أن تعمل ﴿إِنْ﴾ هنا في لغة من أعملها ، لدخول ﴿إِلَّا﴾ لأن «إلا» إذا دخلت على «ما» بطل عملها ، ومثلها «إن».

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الَّذِينَ﴾ : إما مرفوع على أنه مبتدأ ، و ﴿أَهْلَكْناهُمْ﴾ خبره ، أو على أنه معطوف على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وإما منصوب بفعل مقدر دلّ عليه ﴿أَهْلَكْناهُمْ﴾ وتقديره : وأهلكنا الذين من قبلهم أهلكناهم.

﴿لاعِبِينَ﴾ حال.

البلاغة :

﴿إِنَّ هؤُلاءِ﴾ الإشارة هنا للتحقير.

﴿فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أسلوب التعجيز.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ..﴾ استفهام إنكار ، للتحقير والاستصغار.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ هـؤُلاءِ﴾ كفار قريش ، لأن الكلام فيهم ، قال البيضاوي : وقصة فرعون السابقة.

وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة ، والإنذار عن مثل ما حل بهم. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى﴾ أي ما نهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ، وليس هناك حياة أخرى. ﴿بِمُنْشَرِينَ﴾ بمبعوثين أحياء بعد الموتة الأولى ، يقال : نشر الله الموتى وأنشرهم : أحياهم ﴿فَأْتُوا بِآبائِنا﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور والبعث من الرسل والأنبياء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في وعدكم.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمنعة. ﴿تُبَّعٍ﴾ كل من ملك اليمن والشّحر وحضر موت ، وجمعه التبابعة وهم ملوك اليمن ، وهذا شبيه بفرعون لدى قدماء المصريين ، وهو كل من ملك مصر. ومن التبابعة : ذو القرنين أو إفريقش ويسمى الصعب ، وجاء بعده عمرو زوج بلقيس ، ثم أبو كرب ابنه ، ثم ذو نواس.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كعاد وثمود. ﴿أَهْلَكْناهُمْ﴾ بكفرهم ، والمراد : ليس كفار قريش أقوى منهم ، وأهلكوا ﴿لاعِبِينَ﴾ لاهين عابثين. ﴿ما خَلَقْناهُما﴾ وما بينهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ أي محقين في ذلك ، ليستدل به على قدرتنا على البعث وغيره وعلى وحدانيتنا وغير ذلك. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي كفار مكة لا يعلمون ذلك ، لقلة نظرهم.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ليتعظ بها كفار قريش ، عاد إليهم بعد أن وصفهم أولا بأنهم في شك من البعث والقيامة ، وأنهم في إصرارهم على كفرهم مثل قوم فرعون الذين أهلكهم ونجّى بني إسرائيل ، وذكر هنا صراحة أنهم منكرون للبعث ، ثم رد عليهم بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما قادر على بعثهم ، ثم توعدهم بالهلاك ، كما أهلك قوم تبّع من قحطان ملوك اليمن ، الذين هم أقوى منهم.

وبه تبين أن الله هدد كفار مكة بمصير مشؤوم ، مثل مصير قوم فرعون وقوم تبّع.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ : إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي

إن كفار مكة هؤلاء يقولون : ما هي وما العاقبة إلا الموتة الأولى التي نموتها بعد هذه الحياة الدنيوية ، ولا حياة بعدها ، ولا بعث ، وما نحن بمبعوثين.

وهذا إنكار من الله تعالى على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ما ثمّ إلا هذه الحياة الدنيا ، ولا حياة بعد الممات ، ولا بعث ولا نشور ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَقالُوا : إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا ، وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٩].

ثم احتجوا بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا مخاطبين النبي والمؤمنين :

﴿فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي فإن كان البعث حقا ، فأرجعوا إلينا آباءنا بعد موتهم إلى الدنيا ، إن كنتم صادقين فيما تدعونه من البعث.

يروى أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يعجل الله لهم إحياء الموتى ، فينشر كبيرهم قصيّ بن كلاب ليشاوروه في صحة نبوة محمد ﷺ وصحة البعث ، فلم يجبهم الله إلى ذلك.

وهذه حجة واهية ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لا في الدار الدنيا ، بل بعد انقضائها وذهابها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا.

ثم هددهم تعالى وتوعدهم وأنذرهم بأسه الذي لا يرد ، فقال :

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ، وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أَهْلَكْناهُمْ ، إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي أهم كفار قريش الذين هم عرب من عدنان خير في القوة والمنعة ، أم قوم تبّع الحميري الذين هم عرب من قحطان ، الذين كانوا أقوى جندا وأكثر عددا ، وكان لهم دولة وحضارة عريقة ومجد ، وكذلك الأمم الذين سبقوهم ، كعاد وثمود ونحوهم ، أهلكناهم جميعا لكفرهم وإجرامهم ، فإهلاك من هو دونهم لجرمه وضعفه وعجزه بالأولى ، فهم ليسوا بخير من قوم تبع في العدد والعز والمنعة.

وتبّع : رجل صالح دار في الدنيا بجيوشه وغلب أهلها وقهرهم ، وقد كانت حمير وهم سبأ ، كلما ملك فيهم رجل سموه تبّعا ، كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس ، و (قيصر) لمن ملك الروم ، و (فرعون) لمن ملك مصر كافرا ، و (النجاشي) لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من الألقاب السلطانية.

أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «لا تسبّوا تبّعا فإنه قد أسلم». وكان يكتب إذا كتب : بسم الله الذي ملك برا وبحرا.

ثم أقام تعالى الدليل على قدرته الفائقة ليستدل بذلك على إمكان البعث ، فقال :

﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ أي كيف ينكرون البعث ، وقد شاهدوا أدلة قدرتنا في خلق هذا الكون ، فإنا خلقنا هذه السموات والأرضين وما بينهما من المخلوقات المنظورة وغير المنظورة ، ما خلقنا ذلك عبثا ولعبا ، وباطلا ولهوا ، وإنما بإبداع لا مثيل له ، ولحكمة منقطعة النظير ، كقوله جل وعلا : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ، ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص ٣٨ / ٢٧] وقوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ، فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١١٥ ـ ١١٦] فهذا برهان على صحة البعث. وإنما جمع السموات في قوله. ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ﴾ لموافقة قوله في أول السورة : ﴿رَبِّ السَّماواتِ﴾.

﴿ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما إلا خلقا ملازما للحق ، ولإظهار الحق ، وهو الاستدلال على وجود الخالق ووحدانيته ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك ، لقلة نظرهم ، فصاروا لا يرجون ثوابا ولا يخشون عقابا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ لا يؤمن المشركون بالبعث ، فهم قوم ماديون دهريون كما في آية أخرى : ﴿**وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ، وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾ [الجاثية ٤٥ / ٢٤] وقالوا هنا : ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى في عالم الذر والنطف دون الموتة الثانية.

٢ ـ احتجوا بحجة واهية وهي الإتيان بآبائهم وأجدادهم أحياء ، بعد أن ماتوا ، وتلك مغالطة ، لأن المقصود بالبعث : هو إحياء جميع الخلق بعد فناء الدنيا ، ولأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف مرة أخرى.

قيل : إن قائل هذا من كفار قريش أبو جهل ، قال : يا محمد ، إن كنت صادقا في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما ـ قصيّ بن كلاب ، فإنه كان رجلا صادقا ، لنسأله عما يكون بعد الموت.

٣ ـ إنهم بهذا القول استحقوا العذاب ، إذ ليسوا هم خيرا من قوم تبّع والأمم المهلكة ، وإذا أهلكنا أولئك ، فكذا هؤلاء. وكان من قبلهم أظهر نعمة وأكثر أموالا ، وأعز وأشد وأمنع جانبا ، فأهلكهم الله لكفرهم وإجرامهم.

قال القرطبي : وليس المراد بتبّع رجلا واحدا ، بل المراد به ملوك اليمن ، فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة ، فتبّع لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين ، وكسرى للفرس ، وقيصر للروم.

ثم قال : والظاهر من الآيات أن الله سبحانه إنما أراد واحدا من هؤلاء ، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم اشدّ من معرفة غيره ، ولذلك قال ﷺ : «ولا

أدري أتبّع لعين أم لا؟» ثم قد روي عنه أنه قال فيما رواه أحمد عن سهل بن سعد : «لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم». فهذا يدلك على أنه كان رجلا واحدا بعينه ، وهو ـ والله أعلم ـ أبو كرب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه ، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها ، ثم انصرف عنها لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد [١].

٤ ـ لم يخلق الله السموات والأرض عبثا ولهوا ، وإنما خلقهما بالأمر الحق ، وللحق ، ولإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته ، ولكن أكثر الناس وهم في الماضي مشركو مكة لا يعلمون ذلك.

٥ ـ لم يذكر كفار مكة في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يجاب عنها ، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار ، لذا اقتصر الله تعالى على الوعيد والتهديد بأن يتعرضوا للهلاك مثلما أهلك قوم فرعون وقوم تبّع.

أهوال يوم القيامة التي يتعرض لها الكفار والعصاة

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ١٤٤ وما بعدها.

الإعراب :

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ﴾ : اسم ﴿إِنَ﴾ و ﴿مِيقاتُهُمْ﴾ : خبرها ، و ﴿أَجْمَعِينَ﴾ : توكيد ضمير ﴿مِيقاتُهُمْ﴾.

﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى ... يَوْمَ﴾ : بدل منصوب من ﴿يَوْمَ﴾ الأول.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ مَنْ﴾ : بالنصب على الاستثناء المنقطع ، وبالرفع : إما بدل من ضمير ﴿يُنْصَرُونَ﴾ أي ولا ينصر إلا من رحم الله ، أو بدل من ﴿مَوْلًى﴾ الأول ، أي يوم لا يغني إلا من رحم الله ، أو مبتدأ ، تقديره : إلا من رحم الله فيعفى عنه.

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَالْمُهْلِ﴾ : خبر ثان ، و ﴿يَغْلِي﴾ بالياء : لتذكير المهل ، وهو خبر ثالث ، ويقرأ بالتاء : لتأنيث الجرّة ، وهو حال من المهل.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّكَ﴾ بالكسر : على الابتداء ، وتقرأ بالفتح بتقدير حذف حرف الجر ، أي ذق لأنك العزيز الكريم عند نفسك.

البلاغة :

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿الزَّقُّومِ الْأَثِيمِ الْحَمِيمِ الْجَحِيمِ الْكَرِيمُ﴾ سجع رصين لا تكلف فيه ، فيه جمال.

المفردات اللغوية :

﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم القيامة ، سمي بذلك ، لأنه يفصل فيه بين الناس ، فيفصل المحق عن المبطل بالجزاء ، ويفصل الحق عن الباطل ﴿مِيقاتُهُمْ﴾ وقت موعدهم للعذاب الدائم ﴿لا يُغْنِي﴾ لا يدفع عنه ﴿مَوْلًى﴾ ناصر بقرابة أو صداقة ، ويطلق المولى في الأصل على السيد والعبد وابن العم والناصر والحليف والقريب والصديق ﴿شَيْئاً﴾ من العذاب أو الإغناء ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يمنعون منه.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه ، وهم المؤمنون فإنه يشفع بعضهم لبعض بإذن الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب في انتقامه من الكفار ، فلا ينصر من أراد تعذيبه ﴿الرَّحِيمُ﴾ من أراد أن يرحمه ، وهم المؤمنون.

﴿شَجَرَةَ الزَّقُّومِ﴾ هي شجرة ذات ثمر مرّ ، تنبت بتهامة ، شبهت بها شجرة الجحيم ، وهي

الشجرة الملعونة التي ينبتها الله تعالى في قعر جهنم ﴿الْأَثِيمِ﴾ الكثير الإثم ، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه ، مثل أبي جهل وأصحابه وأمثالهم من الملاحدة ذوي الإثم الكبير في كل عصر. ﴿كَالْمُهْلِ﴾ ما يمهل في النار حتى يذوب أو دردي الزيت الأسود ، أي عكر الزيت والقطران ومذاب النحاس أو غيره من المعادن ﴿الْحَمِيمِ﴾ الماء الساخن الشديد الحرارة.

﴿خُذُوهُ﴾ أي يقال للزبانية : خذوا الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ بكسر التاء وضمها : جرّوه وسوقوه بغلظة وشدة وعنف ، ومنه العتل : الجافي الغليظ ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسط النار ﴿عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي من الحميم الذي لا يفارقه العذاب ، فهو أبلغ من قوله : ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ﴾ لأن المراد : يصب من فوق رؤوسهم عذاب هو الحميم ، للمبالغة ، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف ، وزيدت ﴿مِنْ﴾ للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ﴾ أي يقال له : ذق العذاب ، استهزاء به أو تقريعا على ما كان يزعمه ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ بزعمك وقولك : ما بين جبليها أعز وأكرم مني ﴿إِنَّ هذا﴾ إن هذا العذاب ﴿تَمْتَرُونَ﴾ تشكون فيه أو تمارون.

سبب النزول :

نزول الآية (٤٣) وما بعدها :

﴿إِنَّ شَجَرَةَ﴾ : أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال : إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزّبد ، فيقول : تزقموا ، فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد ، فنزلت : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ..﴾.

نزول الآية (٤٩):

﴿ذُقْ إِنَّكَ ..﴾ : أخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال : «لقي رسول الله ﷺ أبا جهل ، فقال : إن الله أمرني أن أقول لك : «أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى» فنزع يده من يده ، وقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر ، وأذله وعيّره بكلمته ، ونزل فيه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾».

وأخرج ابن جرير الطبري عن قتادة نحوه. قال أبو جهل لرسول الله

ﷺ : ما بين جبليها أعزّ ولا أمنع مني ، فو الله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا ، فنزلت الآية.

المناسبة :

بعد إثبات البعث والقيامة ، أعقبه تعالى بذكر ما يتعرض له الكافر يوم القيامة من أهوال بفقد الأعوان والنصراء ، وتجرع الزقوم ، وشرب المهل عكر الزيت والقطران ، وجره بشدة وعنف إلى جهنم ، وصب الماء الحميم البالغ منتهى السخونة والحرارة فوق رأسه ، وتقريعه والاستهزاء به فيما زعمه من عز وإكرام ، جزاء الشك بيوم البعث والقيامة.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إن يوم القيامة الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق ، فيعذب الكافرين ، ويثيب المؤمنين ، هو ميعاد جميعهم ووقت حسابهم وجزائهم جميعا ، يجمعهم كلهم أو لهم عن آخرهم ، ليميز المحسن من المسيء ، والمحق من المبطل ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً﴾ [النبأ ٧٨ / ١٧]. وسمى يوم القيامة ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ لأنه تعالى يفصل بين عباده في الحكم والقضاء ، أو يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ، أو يفصل بين المؤمنين وبين ما يكرهون ، وبين الكافرين وبين ما يشتهون ، فيفصل بين الوالد وولده ، والرجل وزوجته ، والمرء وخليله.

﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي يوم لا ينفع قريب قريبا ، ولا يدفع عنه شيئا من العذاب أو الإغناء ، ولا هم يمنعون من عذاب الله ، فلا يفيد المؤمن الكافر ولا ينصر القريب قريبه ، كقوله تعالى : ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ٣] وقوله سبحانه : ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ، وَلا يَتَساءَلُونَ﴾

[المؤمنون ٢٣ / ١٠١] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ، يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج ٧٠ / ١٠ ـ ١١] أي لا يسأل أخ له عن حاله ، وهو يراه عيانا ، وقوله جل وعلا : ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ [البقرة ٢ / ٤٨].

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي لكن من رحمه الله فإنه ينتصر وينجو ، ولا يحتاج إلى ناصر غيره ، إن الله هو الغالب الذي لا يفلت أحد من أعدائه من عذابه ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ : ذو الرحمة الواسعة بعباده المؤمنين ، وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعا ، ويجوز أن يكون متصلا ، أي لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين ، فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.

وبعد إقامة الدليل على أن القيامة حق ، ووصف ذلك اليوم ، أردفه تعالى بوعيد الفجار الكفار الجاحدين لقاءه ، قائلا :

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ﴾ أي إن الشجرة التي خلقها الله في جهنم وهي الشجرة الملعونة ، يكون ثمرها طعام أهل النار الكثيري الإثم ، قولا وفعلا ، فإذا جاعوا أكلوا منها ، ويدخل معهم أبو جهل. و ﴿الْأَثِيمِ﴾ : مبالغة الآثم.

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي وذلك الطعام يشبه دردي الزيت ، وعكر القطران ، والنحاس المذاب ، يغلي في بطون الكفار كغلي الماء الشديد الحرارة ، لحرارته ورداءته. شبه ما يصير في البطون منها بالمهل : وهو النحاس المذاب.

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ يقال للملائكة الذين هم خزنة النار : خذوا هذا الأثيم ، فادفعوه وجروه إلى وسط النار بعنف وغلظة.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ﴾ أي ثم صبوا على رأسه الماء الشديد الحرارة المتقدم الوصف ، كقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج ٢٢ / ١٩ ـ ٢٠].

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي : وقولوا له تهكما وتقريعا وتوبيخا : ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم في زعمك في الدنيا.

﴿إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي إن هذا العذاب هو الذي كنتم تشكون فيه ، حين كنتم في الدنيا. وهو كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ، هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور ٥٢ / ١٣ ـ ١٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن يوم القيامة هو يوم الحسم النهائي في مصير الخلائق ، وهو يوم الفصل ، لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه ، فيتميز المسيء من المحسن ، والمبطل من المحق ، ويكون هناك فريقان : فريق في الجنة ، وفريق في السعير. وهذا غاية في التحذير والوعيد.

٢ ـ من خصائص يوم القيامة : فقد النصراء والأعوان والأقارب ، فلا ينصر المؤمن الكافر لقرابته ، لكن من ﷺ فإنه ينجو وينتصر بنصر الله ، ولا يحتاج إلى معونة المخلوقين ، والله سبحانه في ذلك اليوم هو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه ، كما قال : ﴿شَدِيدِ الْعِقابِ ، ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر ٤٠ / ٢] فقرن الوعد بالوعيد.

٣ ـ إن طعام أهل النار وهم الآثمون الفجار هو الثمر الشديد المرارة من شجرة الزقوم التي لا تقبل الاحتراق في النار ، وهو لشدة حرارته ورداءته يغلي في بطون الكفار ، كغلي الماء الشديد السخونة ، فإذا جاع أهل النار أكلوا منها ، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار.

٤ ـ يتعرض أهل النار لأنواع كثيرة من الإهانة والذل ، منها : أنهم بواسطة

الزبانية يدفعون في النار على وجوههم دفعا قويا جدا ، ويساقون إليها سوقا عنيفا ، ويلقون في وسط النار ليذوقوا عذابها الشديد.

ومنها : أنه يقال للأثيم الفاجر توبيخا وتقريعا وتهكما واستهزاء : ذق هذا العذاب فإنك كنت تزعم أنك المتعزز المتكرم ، والمراد : إنك أنت الذليل المهان.

ومنها : أن ملائكة العذاب زبانية جهنم تقول للكفار : إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكون فيه في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر ١٠٢ / ٥ ـ ٧].

ما يلقاه المتقون من ألوان النعيم في الجنان

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (٥٣) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾

الإعراب :

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من ﴿مَقامٍ﴾.

﴿يَلْبَسُونَ﴾ خبر ثان ل ﴿إِنَ﴾ أو حال من الضمير في الجارّ ، أو استئناف.

﴿مُتَقابِلِينَ﴾ حال من واو ﴿يَلْبَسُونَ﴾.

﴿كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ﴾ الكاف : إما في موضع الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، تقديره :

الأمر كذلك ، أو في موضع النصب على أنها وصف لمصدر محذوف ، تقديره : يفعل بالمتقين فعلا كذلك.

﴿يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ يَدْعُونَ﴾ : جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿زَوَّجْناهُمْ﴾ والباء : ليست للتعدية ، لأن ﴿يَدْعُونَ﴾ متعد بنفسه ، وإنما هي للحال ، تقديره : متلبسين بكل فاكهة ، بمنزلة الباء في قولهم : خرج زيد بسلاحه ، أي متلبسا بسلاحه.

﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى﴾ استثناء منقطع ، أي لكن قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا ، والبصريون يقدرون «إلا» في الاستثناء المنقطع ب «لكن» والكوفيون يقدرونه ب «سوى».

﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ فَضْلاً﴾ : إما منصوب على المصدر المؤكد ، وتقديره : ويفضل عليهم فضلا ، أو منصوب بفعل مقدر ، وتقديره : أعطاهم فضلا.

﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ﴾ الهاء تعود على الكتاب ، وقد تقدم ذكره في أول السورة في قوله تعالى : ﴿حم وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿فِي مَقامٍ﴾ مجلس أو مكان ، والمقام والمقام بمعنى واحد ﴿أَمِينٍ﴾ يؤمن فيه من كل خوف وهمّ وحزن ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ ينابيع جارية ﴿سُنْدُسٍ﴾ ما رقّ من الديباج أو الحرير ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه وهما معرّبان ﴿مُتَقابِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض ، فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم.

﴿كَذلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ، أو آتيناهم مثل ذلك ﴿وَزَوَّجْناهُمْ﴾ قرناهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ بنساء بيض حسان واسعات الأعين ﴿يَدْعُونَ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه وغيرها ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ أي في الآخرة ، بل يحيون فيها دائما ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى﴾ الاستثناء منقطع أو متصل ، والمراد به المبالغة في تعميم النفي وامتناع الموت ، فكأنه قال : لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل ﴿وَوَقاهُمْ﴾ حماهم وحفظهم ، وقرئ : «ووقيهم».

﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلا منه ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب ﴿يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ﴾ سهلنا القرآن حيث أنزلناه بلغتك ، لتفهمه العرب منك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتعظون به ، فيؤمنون بك ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر هلاكهم إذا لم يتذكروا ولم يؤمنوا ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون هلاكك وما يحل بك.

المناسبة :

بعد وعيد الكفار الأشقياء وبيان ما يتعرضون له من أهوال الآخرة ، ذكر تعالى وعده للمتقين الأبرار السعداء وما أعده لهم من جنات النعيم ذات المآكل والمشارب والملابس والزوجات الفائقة ، وأنه نعيم أبدي. ثم أتبعه بختام للسورة يناسب مطلعها وهو الامتنان على العرب بنزول القرآن بلغتهم ليعملوا بأحكامه ، فإن كذّبوا انتقم الله منهم.

التفسير والبيان :

ذكر الله تعالى في هذه الآيات خمسة أنواع لنعيم الجنان لبيان وعد الأبرار ، وهي :

١ . ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ أي إن المتقين لله في الدنيا باتقاء الشرك والمعاصي وامتثال الفرائض ، لهم مساكن آمنة من جميع المخاوف ، طيبة المكان والنزهة ، فهي في بساتين غناء وينابيع متدفقة بالماء ، كما قال تعالى : ﴿**إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ ، عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ، خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ ، وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ، عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [المطففين ٨٣ / ٢٢ ـ ٢٨].

وهذا في مقابلة ما للكفار من شجرة الزقوم وشرب الحميم.

٢ ـ ٣ : ﴿**يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ**﴾ أي ملابسهم من الحرير الرقيق والغليظ ، ذي البريق واللمعان والجمال الأخّاذ ، وجلوسهم على صفة التقابل بقصد الاستئناس ونظر بعضهم لبعض ، كقوله تعالى : ﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ**﴾ [الصافات : ٣٧ / ٤٣ ـ ٤٤].

٤ . ﴿كَذلِكَ ، وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي هذا العطاء ، مع تزويجهم أو قرنهم بالزوجات الحسان الحور البيض الواسعات الأعين ، اللاتي ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٥٦ ، ٥٨]. أكثر المفسرين على أنه لا عقود زواج بالحور ، وأن المراد : قرناهم بهم.

٥ . ﴿يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي يطلبون في الجنة ما شاؤوا من أنواع الثمار أو الفاكهة ، وهم آمنون من انقطاعها وامتناعها ، بل يحضر إليهم كلما أرادوا ، وآمنون من الأوجاع والأسقام ، ومن الموت والتعب والشيطان.

وهذا دليل على أنه اجتمعت لهم أنواع اللذة والشهوة المادية والمعنوية ، بهذه الأنواع الخمسة من النعيم في المسكن والملبس والمأكل والزواج والأنس والأمان ، وتلك أعلى أصناف الخيرات والراحات.

ثم بيّن الله تعالى أن حياتهم دائمة ، فقال :

﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى ، وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ أي لا يموتون في الآخرة أبدا ، ولا يذوقون طعم الموت بعدئذ ، لكن الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا قد ذاقوها وانتهى أمرها ، وحماهم الله من عذاب النار ، ونجاهم منه ، وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم. قال الزمخشري : هذا من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل ، فإنهم يذوقونها. وقيل : الاستثناء منقطع ، أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت». وأخرج مسلم وعبد الرزاق عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : «يقال لأهل

الجنة : إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا».

وأخرج أبو بكر بن أبي داود السّجستاني عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «من اتقى الله دخل الجنة ينعم فيها ، ولا يبأس ، ويحيا فيها ، فلا يموت ، ولا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه».

وأخرج أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مردويه عن جابر ﷺ قال : «سئل نبي الله ﷺ : أينام أهل الجنة؟ فقال ﷺ : النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون».

﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ، ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي تفضل الله عليهم وأعطاهم ذلك عطاء فضلا منه وإحسانا إليهم ، أو لأجل إسباغ الفضل منه ، ذلك هو الفوز الأكبر الذي لا يعلوه فوز.

ثبت في الصحيح عند مسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحدا لن يدخله عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ فقال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وبعد أن بيّن الله تعالى دلائل قدرته ، وأوضح الوعد والوعيد ، ووصف القرآن في أول السورة بكونه كتابا مبينا (أي كثير البيان والفائدة) ذكر تعالى في خاتمة السورة ما يؤكد ذلك ، فقال :

﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن وأنزلناه سهلا واضحا بينا جليا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها ، والذي هو لسانهم ولغتهم ، وجعلناه ميسرا للفهم ، كي يفهمه قومك يا محمد ، فيتذكروا ويعتبروا ويعملوا بما فيه ، والمعنى : إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما

أنزلناه عربيا بلغتك ليتذكروا ويتعظوا ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ٢٢].

وبالرغم من هذا الوضوح والبيان ، كفر بعضهم وعاند وخالف ، فسلّى الله رسوله ووعده بالنصر ، وتوعد من كذبه بالهلاك ، فقال :

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أي انتظر أيها النبي ما وعدناك من النصر عليهم وإهلاكهم وما يحل بهم إن استمروا على الكفر ، فإنهم منتظرون ما يحل وما ينزل بك من موت أو غيره ، وسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١] وقال سبحانه : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر ٤٠ / ٥١ ـ ٥٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ يفيض الله على عباده المتقين الأبرار في الجنة أنواع النعم الحسية والمعنوية ، ذكر منها هنا خمسة أنواع تشمل المساكن ، والملابس ، والتقابل في الجلسات واستئناس البعض بالبعض ، والأزواج ، والمآكل الدائمة. قال مجاهد : إنما سميت الحور حورا لأنهن يحار الطرف في حسنهنّ وبياضهن وصفاء لونهنّ.

وهل الحور العين أفضل أو نساء الآدميات؟ اختلفوا في ذلك ، فقال حبّان بن أبي جبلة ـ فيما ذكره ابن المبارك ـ : إن نساء الآدميات من دخل منهن الجنة فضّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وروى ابن المبارك مرفوعا : إن «الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف».

وقال آخرون : إن الحور العين أفضل ، لقوله ﷺ في دعائه فيما رواه مسلم عن عوف بن مالك : «وأبدله أهلا خيرا من أهله».

وأما مهورهن فروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «مهور الحور العين قبضات التمر ، وفلق الخبز» وعن أبي قرصافة : سمعت النبي ﷺ يقول : «إخراج القمامة من المسجد مهور الحور العين» وذكر الثعلبي عن أنس أن النبي ﷺ قال : «كنس المساجد مهور الحور العين».

٢ ـ إن تلك النعم في الجنان لها صفة الدوام والاستمرار ، دون أن يطرأ عليها انقطاع ، ولا ينشأ عنها أذى أو مكروه.

٣ ـ أهل الجنة وأهل النار في خلود دائم ، فكل منهم خالد إما في النعيم وإما في العذاب الأليم ، ولا يطرأ عليهم موت ، لكن الموتة الأولى في الدنيا قد ذاقوها. قال المحققون : إن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس ، وفرحها بمعرفة الله وبمحبته ، فالإنسان الكامل هو في الدنيا في الجنة ، وفي الآخرة أيضا في الجنة ، فقد صح أنه لم يذق في الجنة إلا الموتة الأولى.

واكتفى الله تعالى هنا ببشارة أهل الجنة بالخلود مع أن أهل النار يشاركونهم فيه ، للدلالة على أن دوام الحياة مقرون مع ما ذكر سابقا من حصول الخيرات والسعادات.

٤ ـ أكرم الله المتقين بألوان النعيم ، وحفظهم من عذاب الجحيم ، تفضلا منه عليهم ، وتلك هي السعادة ، والربح العظيم ، والنجاة العظيمة ، والفوز الأكبر الذي لا مثيل له على الإطلاق. ودل قوله : ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ على أن التفضيل أعلى درجة من الثواب المستحق ، لوصفه بأنه فضل من الله ، وكونه فوزا عظيما ، أي إن المنحة الإلهية أفضل من الأجر والأجرة.

٥ ـ إنما أنزل الله القرآن الكريم بلغة النبي ﷺ ولغة قومه العرب ، وسهله عليهم وعلى كل من يقرؤه ولو من غير العرب ، ليتعظوا وينزجروا. وهذا في ختام السورة حث على اتباع القرآن ، ودليل على أنه تعالى أراد من كل الناس الإيمان والمعرفة ، وأنه ما أراد من أحد الكفر.

٦ ـ هدد الله تعالى المخالفين المكذبين للقرآن ورسول الله بالهلاك والدمار ، ووعد نبيه بالنصر عليهم ، وسلاه عن مكابدته المشاق معهم ، وأمره بانتظار ما وعده به من النصر عليهم ، فإنهم منتظرون له الموت والهلاك.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية

مكيّة ، وهي سبع وثلاثون آية.

تسميتها :

سميت (سورة الجاثية) أخذا من الآية المذكورة فيها : ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٨] أي كل أمة باركة على الرّكب لشدة الأهوال التي يشاهدها الناس يوم القيامة ، انتظارا للحساب ، قبل قسمة الخلائق فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين :

١ ـ ابتدأت هذه السورة بالكلام عن تنزيل القرآن من الله تعالى ، والذي هو مكمّل لما ختمت به السورة المتقدمة من جعل القرآن بلغة النبي ﷺ ولغة قومه العرب ، فهو عربي اللسان نصا وفحوى ، ومعنى وأسلوبا ، وفي ذلك حث على اتباعه والإيمان به.

٢ ـ تشابه السورتين في الغايات الكبرى التي يستهدفها القرآن : وهي إثبات وحدانية الله من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية في خلق السموات والأرض ، ومناقشة المشركين في عقائدهم الفاسدة ، وضرب الأمثال من مصائر الأمم الغابرة التي أهلكها الله لتكذيبهم الرسل.

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السور المكية ، وبخاصة آل حم السور السبعة ، وهو تأصيل عقيدة الإسلام الأساسية وإثبات عناصرها وأركانها الثلاثة : وهي الإيمان بالله تعالى وتوحيده ، والاعتقاد بنزول القرآن من عند الله ، وبنبوة محمد ﷺ ورسالته ، والتصديق باليوم الآخر والحساب والبعث والجزاء.

ابتدأت السورة ببيان مصدر القرآن الكريم وهو الله تعالى ، وإثبات وجود الخالق ووحدانيته بخلق السموات والأرض ، وخلق البشر والدواب ، وتعاقب الليل والنهار ، وإنزال المطر سبب الحياة ، وتسخير الرياح.

ثم هددت وأوعدت كل من كذّب بآيات الله ، واستكبر عنها ، واتخذها هزوا بعذاب جهنم.

وأخبرت عن نعم الله العظمى وأولها كون القرآن هدى للناس ، ثم تسخير البحر لجريان السفن فيه والابتجار بين الأقطار ، وتسخير جميع ما في الكون لعباد الله تعالى.

وأردفت ذلك بمبادئ خلقية واجتماعية إنسانية سلمية هي عفو المؤمنين وترفعهم عن زلات الكافرين ، فالعمل الصالح أو الفاسد يعود أثره على صاحبه ، وتذكير بني إسرائيل بما امتن الله عليهم من نعم روحية ومادية هي التوراة ، والحكمة والفقه وفصل الخصومات بين الناس ، والنبوة ، ورزق الطيبات ، والتفضيل على العالمين في عصرهم ، والإتيان بالبينات وهي الآيات والمعجزات ، وأمر الرسول بعدم إطاعة المشركين واتباع أهوائهم ، والتعجب من حالهم ، وتجرؤهم على إنكار البعث ، واتخاذهم الهوى إلها ومعبودا.

وفي مقابل ذلك بيان استقلال الشريعة الإسلامية وإثبات ذاتيتها ، وأمر الرسول والمؤمنين باتباعها وحدها دون ما عداها ، والاعتزاز والثقة بالله الذي يمدّ

نبيه بالعون وأنه ولي المتقين ، والتزام منهج الله وهدايته ورحمته وهو القرآن العظيم ، ومعرفة قانون الله وعدله وحكمته في التفرقة بين المؤمنين الأبرار والمجرمين الأشرار ، وبين المتبصرين بآيات الله ، ومن أغلق على نفسه منافذ الهداية ، فحجب السمع والبصر والقلب عن نور الله.

ثم رد الله تعالى على المشركين منكري البعث بأن الله هو المحيي والمميت وجامع الناس ليوم القيامة ، فهو صاحب القدرة العجيبة ومالك السموات والأرض ، والمتفرد بالسلطان الأعظم في الآخرة ذات الأهوال الرهيبة في العرض والحساب وشهادة صحف الأعمال على أصحابها.

وختمت السورة ببيان الجزاء الحق العادل ، وقسمة الناس فريقين : فريق الجنة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وفريق النار الذين كفروا بالله ورسوله ، واقترفوا السيئات والمعاصي ، وهزئوا بآيات الله ، واغتروا بالحياة الدنيا.

وذلك كله يستوجب الحمد لله رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله وحده الكبرياء في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم.

سبب نزولها :

ذكر المهدوي والنحاس عن ابن عباس : أنها نزلت في عمر رضي الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عز وجل : ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ**﴾ [١٤] ثم نسخت بقوله : ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾ [التوبة ٩ / ٥]. فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهي سبع وثلاثون آية.

مصدر القرآن وإثبات الخالق ووحدانيته

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾

الإعراب :

﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ تَنْزِيلُ﴾ : مبتدأ ، وخبره ﴿مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ ..﴾.

﴿آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (آيات) بالضم : مرفوع بالابتداء ، ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ : خبره ، أو بالعطف على موضع إن واسمها وخبرها ، أو مرفوع بالظرف. ومن قرأ بالكسر : جعله منصوبا بالعطف على لفظ اسم ﴿إِنَ﴾ ، أو بالعطف بالجر على ﴿السَّماواتِ﴾ أو منصوب على البدل من ﴿آياتٌ﴾ الأولى. وكذا قوله ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ يقرأ بالكسر وبالضم بالأوجه السابقة.

﴿نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِ﴾ متعلق ب «نتلو» و ﴿نَتْلُوها﴾ : حال ، عاملها معنى الإشارة.

البلاغة :

﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ﴾ فيها تأكيد ب ﴿إِنَ﴾ واللام للرد على المخاطبين منكري وحدانية الله.

﴿وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي مطر ، مجاز مرسل علاقته المسببية ، لأن المطر النازل من السماء هو سبب الرزق والنبات ، أما الرزق فلا ينزل من السماء.

المفردات اللغوية :

﴿حم﴾ هذه الحروف للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى أهمية ما يتلى بعدها ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ﴾ أي تنزيل القرآن من الله تعالى ﴿الْعَزِيزِ﴾ القوي الغالب في ملكه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في صنعه ، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة للعباد.

﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن في خلق السموات والأرض ، بدليل قوله ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ آياتٍ﴾ لدلائل دالة على قدرة الله ووحدانيته تعالى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بهذه الدلائل ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي في خلق كل واحد منكم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة إلى أن يصبح إنسانا ﴿وَما يَبُثُ﴾ أي وخلق ما ينشر ويفرق في الأرض ﴿مِنْ دابَّةٍ﴾ هي ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم ﴿يُوقِنُونَ﴾ يصدقون عن يقين وإذعان بقدرة الله على البعث وغيره.

﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي وفي تعاقبهما ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ مطر يكون سبب الرزق ﴿تَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾ تقليبها وتحويلها جنوبا وشمالا ، حارة وباردة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ يفكرون ويتدبرون الدليل ، فيؤمنون ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المذكورة ﴿آياتُ اللهِ﴾ حججه ودلائله الدالة على وحدانيته ﴿نَتْلُوها﴾ نقصها ﴿بِالْحَقِ﴾ أي متلازمة ملتبسة بالحق الواضح الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ﴾ أي بعد حديث الله وهو القرآن ، وتقديم اسم الله للمبالغة والتعظيم ، كقول الله : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٣] ﴿وَآياتِهِ﴾ حججه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون ، وهم كفار مكة ، وقرئ «تؤمنون».

قال الصاوي على الجلالين : ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستة في ثلاث آيات ، ختم الأولى ب ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والثانية ب ﴿يُوقِنُونَ﴾ والثالثة ب ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير : أن الإنسان إذا تأمل في السموات والأرض ، وأنه لا بد لهما من صانع آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيمانا فأيقن ، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه. وهذا مأخوذ من كلام الزمخشري [١].

وقال البيضاوي : لعل اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور.

التفسير والبيان :

﴿حم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ حم﴾ : تقدم شرحها

---

(١) الكشاف : ٣ / ١١٢

إن هذا القرآن منزل من عند الله القوي الغالب الذي لا يقهر ، الحكيم في كل شيء بتدبيره ووضعه في المكان المناسب له ، وتحقيقه المصلحة لعباده. ويقتضي إثبات هاتين الصفتين لله عَزَّوَجَلَّ : كونه قادرا على جميع الممكنات ، عالما بجميع المعلومات ، غنيا عن كل الحاجات ، فلا يصدر منه العبث والباطل.

ثم ذكر الله تعالى ما تقتضيه العزة والحكمة ، فقال :

﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن في خلق السموات وخلق الأرض لدلائل قاطعة على وجوده ووحدانيته وقدرته العظيمة ، وهذا دليل من الكون ، ثم ذكر تعالى دليلا من الأنفس ، فقال :

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وإن في خلقكم دون وجود سابق ، ومروركم في أطوار مختلفة من الخلق ، من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، إلى أن يصير الواحد منكم إنسانا كامل الذات والصفات البشرية ، وفي خلق ما يفرق وينشر من دابة في نواحي الأرض المختلفة ، وأقاليمها المتفاوتة حرارة وبرودة واعتدالا ، وأراضيها الرطبة والجافة ، وأنواع حيواناتها الإنسية والوحشية ، البرية والبحرية والجوية ، آيات ودلائل أخرى شديدة الوضوح ، تدل على قدرة الصانع العظيم وحكمته ، التي يعتبر بها أهل اليقين ، الذين آمنوا ثم قبلوا الحق ، ثم ازدادوا إيمانا وأذعنوا ورسخ الإيمان في قلوبهم كالجبال الثوابت ، فأيقنوا يقينا تاما لا يخالطه أي شك.

﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ ، فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ ، آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي وإن في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ، وتفاوتهما في الطول والقصر ، والحرارة والبرودة ، والضياء والظلمة ، وفيما أنزل الله من السحاب من مطر يكون سببا لرزق العباد وإحياء الأرض بإخراج النبات ، وفي تقليب الرياح وتغييرها من

جهة إلى جهة ، ومن حال إلى حال ، مرة من الجنوب ومرة من الشمال ، وتارة تكون حارّة ، وتارة تكون باردة ، وأحيانا نافعة ، وأحيانا ضارة ، كل ذلك أيضا لأدلة عظيمة وحجج باهرة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته ، التي ينتفع بها عادة أهل العقول الراجحة ، المتأملون بها ، الفاهمون لحقائقها ، ولا ينتفع بها أهل الجهل والعناد.

وهكذا يترقى المتأملون في تلك الآيات من إثبات أصل الإيمان في قلوبهم ، إلى اليقين ، إلى اكتمال العقل والنظر ، وهو ترقّ من حال إلى ما هو أعلى منها ، وهذه سمة المؤمنين الكمّل الذين استخدموا طاقاتهم الفكرية والنظرية للوصول إلى أسمى الغايات وأمثل الحالات.

وهذه الآيات شبيهة بقوله تعالى : ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ ، فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ ، وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة ٢ / ١٦٤].

ثم أوجز الله تعالى العبرة من تلك الآيات بقوله :

﴿**تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾ أي هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه وبيناته نتلوها عليك أيها النبي متضمنة الحق المبين ، ونحن محقون صادقون فيما ننزله عليك من القرآن المتلو ، ليستفيد منها البشر قاطبة ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ، ولا ينقادون لها ، فبأي حديث أو كلام بعد حديث الله وكلامه وآياته وهو القرآن يؤمنون ويصدقون؟! وعبّر ب ﴿**تِلْكَ**﴾ إشارة إلى علو مرتبة الآيات.

والخلاصة : من لم يؤمن بكلام الله فلن يؤمن بحديث بعده.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ كون مصدر القرآن الكريم هو الله عَزَّوَجَلَّ ، وليس له أي مصدر آخر سواه.

٢ ـ إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته بأدلة ستة في ثلاث آيات :

الدليل الأول من الكون ـ خلق السموات والأرض فهو يدل على وجود الإله ـ كما ذكر الرازي من ستة وجوه [١] :

أولا ـ أنها أجسام حادثة ، وكل حادث له محدث.

ثانيا ـ أنها مركبة من أجزاء متماثلة في مواضع متفاوتة عمقا وسطحا ، مما يدل على أن وقوع كل جزء في موضعه لا بد له من مرجح ومخصص.

ثالثا ـ أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في ماهيتها الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة ، واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية ، وذلك لا بد له من مرجح.

رابعا ـ أن أجرام الكواكب مختلفة في الألوان مثل كمودة زحل ، وبياض المشتري ، وحمرة المريخ ، والضوء الباهر للشمس ، ودرية الزهرة ، وصفرة عطارد ، ونور القمر ومحوه ، واختلافها في تلك الصفات دليل على أن الإله القادر المختار هو الذي خصص كل واحد منها بصفته المعينة.

خامسا ـ أن كل فلك مختص بحركة إلى جهة معينة ، ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء ، وذلك دليل على مخصص فاعل مختار وهو الله وحده.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٢٥٧ ـ ٢٥٨

سادسا ـ أن كل فلك مختص بمهمة معينة ، فلا بد من مخصص فاعل مختار. الدليل الثاني والثالث من الأنفس ـ وهما خلق الإنسان والدواب بتركيب عضوي عجيب ، وخواص وطاقات مادية ومعنوية مذهلة ، يدلنا ذلك على أن هناك خالقا مبدعا لتلك الأنفس وهو الله تعالى.

الدليل الرابع والخامس والسادس من الظواهر الكونية ـ وهي تعاقب الليل والنهار بنحو دائم وتفاوتهما ، وإنزال الأمطار والثلوج لإحياء الأرض بالنبات وتغذية الينابيع والأنهار ، وتقليب الرياح وتغييرها ، كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر القاهر ، الحكيم الصنع ، البديع الخلق والإتقان.

٣ ـ هذه آيات الله ، أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته ، أنزلها الله في قرآنه بيانا متلوا إلى يوم القيامة ، مشتملا على الحق الذي لا ريب فيه ، والصدق الذي لا باطل ولا كذب فيه ، فإذا لم يؤمن الناس بها ، ولم يصدقوا بالقرآن وآياته البينات ، فلن يجدوا سواها طريقا للإيمان وتصحيح العقيدة.

ولقد قال الله تعالى في هذه الآيات عبارات ثلاثا أولها ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وثانيها ﴿يُوقِنُونَ﴾ وثالثها ﴿يَعْقِلُونَ﴾ والمقصود بها كما قال الرازي : إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين ، فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين ، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

أو أن الآيات النفسية تحتاج إلى الإيقان ، لقربها من الإنسان ، وأما الآيات الخارجية الفلكية فيكفي فيها التصديق لبعدها عن الإنسان ، وأما العلوية فتحتاج إلى النظر والاستدلال.

وهذا دليل قاطع على أن القرآن اشتمل على أصول العقيدة والإيمان ودلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة ، كما اشتمل في مواضع أخرى على الأحكام الفقهية الجزئية في العبادات ، والمعاملات ، وأحكام الأسرة ، والدولة ، والأخلاق ، والاجتماع ، والسياسة ، والحكم ، وغير ذلك.

وعيد المكذبين بآيات الله وجزاؤهم

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠) هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾

الإعراب :

﴿لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ أَلِيمٌ﴾ بالرفع : صفة ﴿عَذابٌ﴾ ويقرأ بالجر : صفة ﴿رِجْزٍ﴾.

البلاغة :

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ من صيغ المبالغة على وزن فعّال وفعيل.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب تهكمي ، لأن استعمال البشارة التي تكون عادة بالخير في الشر تهكم.

﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها﴾ تشبيه مرسل ، أي كأنه لم يسمع آيات القرآن.

﴿هذا هُدىً﴾ وصف القرآن بالمصدر الذي هو هدى للمبالغة ، كأنه لوضوح حجته عين الهدى.

المفردات اللغوية :

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذاب ، أي كثير الكذب والإفك ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم والمعصية ﴿آياتِ اللهِ﴾ القرآن ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره ، والإصرار على الشيء : ملازمته ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ متكبرا متعاظما عن الإيمان بالآيات ، و ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات.

﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها﴾ أي كأنه لم يسمعها ، فخففت وحذف ضمير الشأن ، والجملة في موقع الحال ، أي يصرّ مثل غير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره ، والبشارة للتهكم ﴿مِنْ آياتِنا﴾ القرآن ﴿اتَّخَذَها هُزُواً﴾ أي مهزوءا بها ﴿أُولئِكَ﴾ أي الأفاكون ﴿لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ ذو إهانة ، أي عذاب مخز مذل.

﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أمامهم وقدامهم ، لأنهم متوجهون إليها ، أو من خلفهم ، لأنه بعد آجالهم ﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ لا يدفع عنهم ﴿ما كَسَبُوا﴾ من المال والأولاد والفعال ﴿شَيْئاً﴾ من عذاب الله ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي الأصنام ﴿أَوْلِياءَ﴾ نصراء وأعوان ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحملونه.

﴿هذا هُدىً﴾ أي هذا القرآن هاد من الضلالة ﴿لَهُمْ عَذابٌ﴾ لهم حظ من العذاب ﴿مِنْ رِجْزٍ﴾ الرجز : أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ موجع.

سبب النزول :

نزول الآية (٨):

﴿يَسْمَعُ آياتِ اللهِ﴾ : نزلت في النضر بن الحارث الذي كان يشتري أحاديث الأعاجم ، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن. والآية عامة في كل من صد عن الدين وتكبر عن هديه.

المناسبة :

بعد بيان الآيات للكفار ، وبيان أنهم إن لم يؤمنوا بها مع ظهورها ، فلا يؤمنوا بعدها بشيء ، أتبعه تعالى بوعيد عظيم بالعذاب الشديد لكل من كذب بتلك الآيات ، ثم أصر على كفره بها ، ثم ذكر أن جزاءهم جهنم ، دون أن تنفعهم أصنامهم شيئا ، وأن القرآن العظيم هو الهدى فقط من الضلالة.

التفسير والبيان :

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي الهلاك وأشد العذاب لكل كذاب بآيات الله ، كثير الإثم والمعاصي ، ولهذا الأفاك حالتان :

الأولى ـ الإصرار والاستكبار : ﴿يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن هذا الأفاك إذا سمع آيات القرآن تتلى على مسامعه ، وفيها الدلالة الواضحة على وحدانية الله وقدرته ، ووعده ووعيده ، بقي مصرا على كفره ، وأقام على ما كان عليه إقامة بقوة وشدة ، ولم يتعظ بما يسمع من كلام الله ، وتكبر وتعاظم عن الإيمان بالآيات ، معجبا بنفسه ، وكأنه لم يسمعها ، مشبها حاله بحال غير السامع في عدم الالتفات إليها ، فأخبره بأن له عند الله عذابا شديد الإيلام ، جزاء إصراره واستكباره وعدم استماعه إلى الآيات.

والتعبير عن هذا الخبر المحزن بالبشرى تهكم شديد واحتقار لهم.

ونظير الآية : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ١].

الحال الثانية ـ الاستهزاء بالآيات : ﴿وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ أي وإذا علم هذا الأفاك من آيات الله شيئا ، اتخذ ذلك الشيء هزوا ، أي موضوعا للسخرية والتندر مما حوته من المعاني ، أولئك الأفاكون الذين سبقت صفاتهم لهم عذاب موصوف بالإهانة والذل والخزي بسبب إصرارهم واستكبارهم عن سماع آيات الله واتخاذها موضوع استهزاء واستهانة بالقرآن. والعذاب المهين : هو المشتمل على الإذلال والفضيحة.

روي ـ كما تقدم ـ أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ﴾ دعا بتمر وزبد وقال لأصحابه : تزقموا من هذا ، ما يعدكم محمد إلا

شهدا ـ عسلا ـ وحين سمع قوله تعالى ﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي على النار قال : إن كانوا تسعة عشر ، فأنا ألقاهم وحدي.

ثم وصف تعالى كيفية ذلك العذاب المهين ، فقال :

﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً ، وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ ، وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن أمام أولئك الأفاكين جهنم يوم القيامة ، لأنهم متوجهون إليها مثل قوله تعالى : ﴿مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ ، وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم ١٤ / ١٦] أي من أمامه ، أو إن وراء تعززهم بالدنيا وتكبرهم عن الحق جهنم ، فإنها خلفهم وستدركهم ، ولا يدفع شيئا من العذاب عنهم ما كسبوا في الدنيا من الأولاد والأموال : ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ [آل عمران ٣ / ١٠ ، ١١٦] ، ولا ينفعهم أي نفع ، ولا تنفعهم أيضا الأصنام التي اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله ، يرجون منها النفع ، ودفع الضرر ، ولهم عذاب عظيم دائم مؤلم في جهنم التي هي من ورائهم. وكل ما توارى عنك فهو وراء ، تقدّم أو تأخر ، كما ذكر في غرائب القرآن.

وسبب التفرقة بين قوله ﴿لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ وقوله ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ أن الوصف الأول يدل على حصول الإهانة مع العذاب ، والوصف الثاني يدل على كونه بالغا أقصى المراتب في كونه ضررا.

ثم وصف الله تعالى القرآن بقوله :

﴿هذا هُدىً ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ ، لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي هذا القرآن والآيات المتقدمة في هذه السورة هي هادية إلى الحق ، ومرشدة إلى الصواب ، وموجهة إلى النور من الظلمة والضلال ، والذين كفروا بآيات الله القرآنية لهم أشد العذاب يوم القيامة.

فقوله ﴿هذا هُدىً﴾ أي كامل في كونه هدى ، والرجز : أشد العذاب

لقوله تعالى : ﴿فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾ [البقرة ٢ / ٥٩] وقوله سبحانه : ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ توعد الله تعالى بوعيد شديد كل من ترك الاستدلال بآيات الله بالرغم من وضوحها التام ، ثم كفر بها وكذب بما جاءت به ، وتمادى في كفره ، متعظما في نفسه عن الانقياد لها ، وجحد بها استكبارا وعنادا.

والآية عامة في مثل هؤلاء ، وإن كان سبب نزولها الخاص هو النضر بن الحارث ، أو الحارث بن كلدة ، أو أبو جهل وأصحابه.

٢ ـ يتضمن الوعيد أيضا حال كل من استهزأ بآيات الله ، وتحدى قدرة الله ، فوصف الزقوم بأنه الزبد والتمر ، وقال في خزنة جهنم : إن كانوا تسعة عشر ، فأنا ألقاهم وحدي.

٣ ـ وصف الله تعالى نوع عذاب هؤلاء (لأفاكين الكذابين الآثمين الكفرة المعاندين بأوصاف أربعة هي : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ، مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

٤ ـ احتاط الله تعالى لحرمة كتابه القرآن ، فلم يعرضه للاستهانة والاستهزاء به ، ولهذا روى مسلم في صحيحة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو».

٥ ـ لن يغني ولن يفيد هؤلاء الكافرين في تخليصهم من ذلك العذاب كل

ما كسبوه في الدنيا من المال والولد ، ولا الأصنام التي اتخذوها آلهة وعبدوها من دون الله.

٦ ـ القرآن الكريم هدى للبشرية من الضلالة ، ثم أكد تعالى وعيده للذين جحدوا دلائله بأن لهم عذابا هو أشد العذاب.

والخلاصة : إن الله تعالى جعل مؤيدات جزائية صارمة وشديدة لكل من كفر بالقرآن ، ولم يتفكر بآيات الله ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته ، وذلك إنذار دائم شديد التأثير لكل من حاد عن منهج القرآن وعقيدة الإسلام.

من نعم الله تعالى على عباده

﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)﴾

الإعراب :

﴿مِنْهُ﴾ متعلق بحال ، أي كائنة منه تعالى.

﴿يَغْفِرُوا﴾ مجزوم ، لأن تقديره : قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا ، وحقيقة جزمه بتقدير حرف شرط مقدر.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً﴾ أي ليجزي الله ، وهو فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، و ﴿قَوْماً﴾ : مفعول به. وقرئ : «ليجزين» بفتح الياء وكسر الزاي ، و «ليجزي» بضم الياء وفتح الزاي ، و «لتجزي» بفتح التاء ، ومن قرأ «ليجزي» بالبناء للمجهول ، نصب قوما على تقدير : ليجزي الجزاء قوما ، وهذا جائز على مذهب الأخفش والكوفيين ، وغير جائز على مذهب البصريين ، لأن المصدر لا يجوز إقامته مقام الفاعل مع مفعول صحيح. وقرئ : «لنجزي» بالنون على التعظيم.

البلاغة :

﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ ..﴾ إطناب لإظهار الامتنان.

﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿سَخَّرَ﴾ هيأ وذلل ﴿الْفُلْكُ﴾ السفن ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتطلبوا بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وماء وغيره ﴿وَما فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر ونبات وأنهار وغيرها ، والمراد : خلق ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعاً﴾ تأكيد ﴿مِنْهُ﴾ حال ، أي سخرها كائنة منه تعالى ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنائعه.

﴿يَغْفِرُوا﴾ يعفوا ويصفحوا ، وقد حذف المقول لدلالة الجواب عليه ، والمعنى : قل لهم : اغفروا للكفار أذاهم لكم يغفروا ﴿لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ لا يخافون وقائعه بأعدائه ، يقال : أيام العرب ، أي وقائعهم ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أي الله ﴿قَوْماً﴾ هم المؤمنون ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المغفرة للكفار أذاهم ، أو الإساءة.

﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ أي لها ثواب العمل ، وعليها عقابه ، والمراد : فلنفسه عمل ، وعليها أساء ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ تصيرون ، فيجازيكم على أعمالكم ، يجازي المصلح والمسيء.

سبب النزول :

نزول الآية (١٤):

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ : ذكر الواحدي النيسابوري والقشيري عن ابن عباس : أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب وعبد الله بن أبيّ وجماعتهما ، وذلك أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بئر يقال لها : المريسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء ، فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال : ما حبسك؟ قال : غلام عمر قعد على قفّ ـ فم ـ البئر ، فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي وقرب أبي بكر وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمّن كلبك يأكلك ، فبلغ عمر رضي الله عنه ، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ..﴾.

وذكر الواحدي والثعالبي عن ابن عباس وميمون بن مهران سببا آخر قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قال يهودي بالمدينة يقال له : فنحاص بن عازوراء : احتاج رب محمد ، فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه ، فجاء جبريل عليه الإسلام إلى النبي ﷺ ، فقال : إن ربك يقول : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾. فبعث رسول الله ﷺ في طلب عمر ، فلما جاء قال : يا عمر ضع سيفك ، قال : صدقت يا رسول الله ، أشهد أنك أرسلت بالحق ، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية ، فقال عمر : لا جرم ـ حقا ـ والذي بعثك بالحق ، ولا يرى الغضب في وجهي [(١)].

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ٢١٥ ، غرائب القرآن للحسن بن محمد النيسابوري : ٢٥ / ٧٦

المناسبة :

بعد إيراد أدلة وجود الله ووحدانيته ، أورد الله تعالى بعض نعمه الدالة أيضا على قدرته وهي تسخير السفن في البحار لحمل التجارات والركاب ، وتسخير ما في السموات والأرض ، ثم أمر المؤمنين بالعفو عن الكفار ، وأبان أن جزاء العمل الصالح والسيء يعود على نفس العامل خيرا أو شرا.

التفسير والبيان :

يذكر الله تعالى نعمه على عباده وهي :

١ . ﴿**اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ أي إن الله الذي ثبت لكم وجوده ووحدانيته بالأدلة السابقة هو الذي ذلل لكم البحر لجريان السفن فيه بإذنه ، والاتجار بين الأقطار ، والغوص للدرّ ، وصيد الأسماك وغير ذلك ، أي للمتاجر والمكاسب ، ولتشكروا نعم الله الحاصلة لكم بسبب هذا التسخير ، ومنافعه المجلوبة لكم من البلاد النائية.

وتسخير البحر بثلاثة أشياء : هي أولا . الرياح المساعدة على مسيرة السفن في الماضي وثانيا . قدرة تحمل الماء لآلاف الاطنان بل أكثر من خمس مائة الف طن ، وثالثا . وجعل الخشب طافيا على وجه الماء دون غوص فيه.

٢ . ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ أي وذلل لكم أيضا جميع ما في السموات من كواكب وغيرها ، وجميع ما في الأرض من جبال وبحار وأنهار ورياح وأمطار ومنافع أخرى فضلا منه ورحمة ، إن في ذلك التسخير لدلائل واضحة على قدرة الله وتوحيده ، لقوم يتفكرون فيها ويستدلون بها على التوحيد.

وهذا كقوله تعالى : ﴿**وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ، فَإِلَيْهِ**

﴿تَجْئَرُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٥٣].

وبعد بيان أدلة التوحيد والقدرة الإلهية أمر الله تعالى بمحاسن الأخلاق ، فقال :

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾

أي قل أيها النبي للمؤمنين المصدقين بالله ورسوله : اعفوا واصفحوا وتحملوا أذى هؤلاء المشركين الذين لا يخافون وقائع الله وأنواع عذابه ، ليجزي الله أولئك المؤمنين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي منها الصبر على أذى الكفار وكظم الغيظ واحتمال المكروه. وتنكير ﴿قَوْماً﴾ لتعظيم شأن المؤمنين المذكورين في قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقوله : ﴿لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ معناه : لا يخشون مثل عذاب الأمم الخالية.

ثم أوضح الله تعالى أن الإحسان والإساءة يعودان على المحسن والمسيء ، فقال ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي من عمل الأعمال الصالحة التي أمر الله بها وانتهى عما نهى عنه ، فلنفسه عمل ، ومن اقترف السيئات والمعاصي ، فعلى نفسه جنى ، ثم تعودون إلى الله يوم القيامة ، فتعرضون بأعمالكم عليه ، فيجزيكم عليها خيرها وشرها.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ امتن الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم من تسخير البحر لجريان السفن فيه بإذنه ومشيئته ، ولتحقيق المكاسب ومنافع المتاجر ، والغوص على اللؤلؤ والمرجان ، واصطياد الأسماك ، لكي يشكروه على نعمه.

٢ ـ وكذلك امتن الله تعالى على العباد بتسخير جميع ما في السموات وما في

الأرض من شمس وقمر ونجوم وكواكب ، وجبال وسهول وأنهار ومعادن وزروع وأشجار ونباتات وغيرها ، ففي ذلك كله دلائل واضحة على توحيد الله وقدرته.

٣ ـ الأخلاق الحسنة تابعة للعقيدة الصالحة ، لذا بعد أن علّم تعالى عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، علمهم محاسن الأخلاق وفضائل الأفعال ، فأمر بالعفو والصفح عن المشركين والمنافقين واليهود ، ليكون ذلك سببا لجزاء المؤمنين على ما كسبوا في الدنيا من الأعمال الطيبة. والآية ليست منسوخة بناء على أنها نزلت بالمدينة ، أو في غزوة بني المصطلق.

٤ ـ إن ثواب العمل الصالح ، وعقاب العمل السيء يرجع إلى صاحبه ، فينفعه أو يضره في آخرته ، وإن جميع الخلائق عائدون إلى ربهم للحساب والجزاء ، فالعمل الصالح يعود بالنفع على فاعله ، والعمل الرديء يعود بالضرر على فاعله ، وأنه تعالى أمر بهذا ، ونهى عن ذلك ، لحظّ العبد ، لا لنفع يرجع إليه.

وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح ، وزجر عن العمل الباطل.

نعم الدين وإنزال الشرائع

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٦) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ

أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)﴾

الإعراب :

﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة :

﴿فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ بين الفعلين الأول والثاني ما يسمى بطباق السلب.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ﴾ أي التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي والحكمة النظرية والعملية ، أو الفهم والقضاء والفصل في الخصومات بين الناس ، لأنهم كانوا ملوكا وحكاما ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ النبوة لموسى وهارون وكثير من الأنبياء ، إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ المباحات اللذائذ كالمن والسلوى ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم البشر ، حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم.

﴿بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ دلائل واضحات في أمر الدين ، ومنها المعجزات ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر الديني ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ العلم بحقيقة الحال عداوة وحسدا ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ..﴾ بالمؤاخذة والمجازاة.

﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ﴾ يا محمد ﴿عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ طريقة ومنهج من أمر الدين ، وأصل الشريعة : مورد الماء ، ثم أستعير للدين ، لأن الناس يردون فيه ما تحيا به نفوسهم ﴿فَاتَّبِعْها﴾ اتبع شريعتك الثابتة بالحجج ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ آراء الجهال التابعة للشهوات.

﴿لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ﴾ لن يدفعوا عنك ﴿مِنَ اللهِ﴾ من عذابه ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ أي إن جنس الظلم علة موالاة بعضهم بعضا ، فلا توالهم باتباع أهوائهم ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ نصير المؤمنين ﴿هذا﴾ القرآن ﴿بَصائِرُ لِلنَّاسِ﴾ معالم للدين يتبصرون بها وجه الفلاح في الأحكام والحدود ﴿وَهُدىً﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمة من الله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقين.

المناسبة :

بعد بيان بعض نعم الله في الدنيا على الناس جميعا فهي نعم عامة ، ذكر تعالى نعم الدين والدنيا على بني إسرائيل فهي نعم خاصة ، وبما أن نعم الدين أفضل من نعم الدنيا ، بدأ تعالى بتعداد نعمه الدينية عليهم ، وأتبعها بالنعمة العظمى على الإنسانية وهي الشريعة الإسلامية التي لم يبق في الوجود دليل آخر سواها على صحة مصدريتها من الله سبحانه ، فكانت هي البصائر والهدى والرحمة.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ، وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ. وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ ...﴾ أي تا لله لقد أعطينا بني إسرائيل نعما خاصة ، أذكر منها هنا ستا وهي :

١ ـ إنزال التوراة على موسى عليه السلام التي فيها هدى ونور.

٢ ـ الفهم والفقه لفصل القضاء والخصومات بين الناس ، لأنهم جمعوا بين حكم الدين وحكم الدنيا ، فجعل الملك فيهم.

٣ ـ إرسال الرسل إليهم ، كموسى وهارون عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء الكثيرين.

٤ ـ إمدادهم بطيبات الرزق المباحة المستلذة من المآكل والمشارب كالمن والسلوى.

٥ ـ تفضيلهم على عالمي زمانهم من الناس ، حيث كثر فيهم الأنبياء ، وجمعوا بين الملك والنبوة ، وأوتوا من المعجزات العامة المادية الباهرة ، كفلق البحر وتظليل الغمام ، والإنجاء من ظلم فرعون وجنوده ، فكانوا أرفع درجة وأعلى منقبة بين الشعوب في عصرهم.

٦ ـ إيتاؤهم الحجج والبراهين والمعجزات والأدلة القاطعة ، والأحكام والمواعظ والشرائع الواضحة في الحلال والحرام.

ومع كل هذا لم يشكروا تلك النعم ، بل اختلفوا في أمر الدين ، كما قال تعالى :

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ أي فما وقع الاختلاف بينهم في أمر الدين إلا بعد العلم بحقيقة الحال ، وبعد قيام الحجة عليهم ، حبا للرئاسة ، وعداوة وحسدا وعنادا ، وبغيا منهم على بعضهم بعضا.

والخلاف في الأشياء يستتبع القضاء ، لذا قال تعالى :

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن الله سيفصل بينهم بحكمه العدل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ويبيّن المحقّ من المبطل.

وفي هذا تحذير للأمة الإسلامية أن تختلف مثل اختلاف بني إسرائيل ، لذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي ثم جعلناك يا محمد على طريقة ومنهاج من أمر الدين يوصلك إلى الحق ، فاتبع ما أوحي إليك من ربك ، واعمل بأحكام شريعتك المؤيدة بالأدلة الواضحة في أمتك ، ولا تتبع ما لا حجة فيه من أهواء الجهال المشركين الذين

لا يعلمون توحيد الله وشرائعه لعباده ، وهم كفار قريش ومن وافقهم. قال الكلبي : إن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ وهو بمكة : ارجع إلى ملة آبائك ، وهم كانوا أفضل منك وأسنّ ، فزجره الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿وَلا تَتَّبِعْ﴾ الآية ، أي لو ملت إلى أديانهم الباطلة لصرت مستحقا للعذاب ، وهم لا يقدرون على دفعه عنك.

وعلة النهي عن اتباع أهوائهم هي ما قال تعالى :

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ أي إن هؤلاء المشركين الجهلة لن يدفعوا عنك من الله شيئا أراده بك إن اتبعت أهواءهم وخالفت شريعتك.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هؤلاء الكافرين ينصر بعضهم بعضا ، فالمنافقون أولياء اليهود في الدنيا ، ولكن تناصرهم لا يفيدهم شيئا في الآخرة ، ولا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا ، والله ناصر المؤمنين الذين اتقوا الشرك والمعاصي ، فيخرجهم من الظلمات إلى النور ، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. وهذه تفرقة واضحة بين ولاية الله للمتقين ، وولاية الظالمين لبعضهم.

ثم بيّن الله تعالى فضل القرآن الدائم الخالد ، قائلا :

﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ ، وَهُدىً ، وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هذا القرآن المشتمل على شرائع الله الخالدة إلى يوم القيامة هو دلائل وبراهين للناس جميعا فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين ، وهاد إلى الجنة من عمل به ، ورحمة من الله وعذابه في الدنيا والآخرة لقوم من شأنهم الإيقان وعدم الشك بصحته وتعظيم ما فيه.

وإنما خص الموقنين بذلك ، لأنهم المنتفعون به.

فقه الحياة أو الأحكام :

اشتملت الآيات على ما يأتي :

١ ـ امتن الله تعالى على بني إسرائيل بنعم ست هي التوراة ، وفهم الكتاب أو الحكم بين الناس والقضاء في الخصومات ، وإرسال كثير من الأنبياء فيهم وهم من عهد يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام ، ورزقهم من طيبات الحلال من الأقوات والثمار وأطعمة الشام ، وتفضيلهم على عالمي زمانهم ، وإيتاؤهم بيّنات الأمر ، أي دلائل الحق الواضحة ، وشرائع الحلال والحرام ، والمعجزات الداعية إلى الصدق والإيمان.

٢ ـ لم يقع الخلاف بين بني إسرائيل بإيمان بعضهم وكفر بعضهم إلا بعد قيام الحجة عليهم ، وتعريفهم بحقيقة الحال ، وإدراكهم صحة نبوة النبي ﷺ بوثائقهم الدينية وإخبار كتبهم وبشائرها بنبي آخر الزمان.

وكان خلافهم نابعا من الأغراض الذاتية ، كالحسد والعداوة وحب الرياسة ، لا من أجل المصلحة العامة.

وتحذيرا من هذا الخلاف توعدهم الله بقضائه الحاسم وحكمه العادل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين في الدنيا.

٣ ـ وبما أن الأمر المختلف فيه عقيدة وشريعة لا يصلح للبقاء والاستمرار ، أوصى الله نبيه محمدا ﷺ وأمته والبشرية كلها باتباع شريعة القرآن. والشريعة : ما شرع الله لعباده من أمر الدين. وتلك الشريعة منهاج واضح يؤدي إلى الحق والسعادة والنجاة في الآخرة ، لأنها تتضمن أوامر الله ونواهيه وحدوده وفرائضه الثابتة ثبوتا قطعيا لا شك فيه ، أما ما قبلها فلم يقم دليل واحد على صحة ما يتناقله أهلها منها ، أو ثبوته ثبوتا صحيحا من عند الله تعالى ، لضياع

التوراة ، وكتابة الإنجيل كتابة متأخرة عن تاريخ نزوله على السيد المسيح عليه السلام . فإن فرض ثبوت شيء من شرائع من قبلنا ، فلا خلاف في أن الله تعالى جعل الشريعة واحدة في أصولها في التوحيد ومكارم الأخلاق ومصالح الناس ، وإنما خالف بينها في الفروع الجزئية لا في الأصول حسبما تقتضي المصلحة في علم الله تعالى.

٤ ـ قال ابن العربي المالكي الذي يرى كغيره من المالكية أن شرع من قبلنا شرع لنا : ظن بعض من يتكلم في العلم [١] أن هذه الآية : ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ﴾ دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ، لأن الله تعالى أفراد النبي ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة ، ولا ننكر أن النبي ﷺ وأمته منفردان بشريعة ، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي ﷺ عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء ، هل يلزم اتباعه أم لا؟ ولا إشكال في لزوم ذلك [٢].

٥ ـ إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على قلب نبيه براهين ودلائل ومعالم للناس في الحدود والأحكام ، بمنزلة البصائر في القلوب ، كما جعل في سائر الآيات روحا وحياة ، وهو هدى من الضلالة ، ورشد وطريق يؤدي إلى الجنة ، ورحمة من العذاب في الآخرة لمن آمن واتقى.

جعلنا الله تعالى من القائمين بشرعه ، المهتدين بهديه ، المخلصين في اتباع أمره ونهيه ، الظافرين بفضل الله ورحمته في الآخرة والدنيا.

---

(١) وهو رد على الشافعية الذين يرون أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا لقوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ ولهذه الآية.

(٢) أحكام القرآن : ٤ / ١٦٨٢

الفارق بين المحسنين والمسيئين في المحيا والممات

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾

الإعراب :

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ ... أَنْ﴾ وصلتها : سدت مسد مفعول ﴿حَسِبَ﴾. و ﴿سَواءً﴾ : حال من ضمير ﴿نَجْعَلَهُمْ﴾ و ﴿مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ﴾ : مرفوعان بسواء ، لأنه بمعنى مستو ، ويقرأ بالرفع «سواء» على أنه خبر مقدم ، و ﴿مَحْياهُمْ﴾ : مبتدأ مؤخر ، و ﴿مَماتُهُمْ﴾ : عطف عليه. و ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ إن كانت ﴿ما﴾ معرفة ، كانت في موضع رفع ب ﴿ساءَ﴾ وإن كانت نكرة ، كانت في موضع نصب على التمييز.

﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ : في موضع نصب على الحال ، وليست باؤه للتعدية.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يقدر له مفعول ثان بعد قوله ﴿غِشاوَةً﴾ أي لرأيت أيهتدي.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ أي من بعد هداية الله.

البلاغة :

﴿مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ﴾ بينهما طباق. وكذا بين ﴿السَّيِّئاتِ﴾ و ﴿الصَّالِحاتِ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿أَمْ﴾ الهمزة : همزة الإنكار ، وأم منقطعة عما قبلها ، أي أبل ، والمراد إنكار الحسبان.

﴿اجْتَرَحُوا﴾ اكتسبوا ومنه الجارحة : أعضاء الإنسان. ﴿السَّيِّئاتِ﴾ الكفر والمعاصي. ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ هذا الضمير وما قبله في ﴿اجْتَرَحُوا﴾ للكفار ، والمعنى : إنكار أن يستوي الفريقان بعد الممات في الكرامة ، أو ترك المؤاخذة ، كما استووا في الرزق والصحة في الحياة. ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك ، فهم في الآخرة في العذاب على خلاف عيشهم وحالهم في الدنيا ، أي ساء حكمهم هذا ، أو بئس شيئا وحكما حكمهم هذا ، و ﴿ما﴾ مصدرية.

﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ كأنه دليل على الحكم السابق ، لأن الخلق بالحق يستدعي العدل والتفاوت بين المسيء والمحسن. ﴿وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ من المعاصي والطاعات ، فلا يساوي الكافر المؤمن ، وهي عطف على ﴿بِالْحَقِ﴾ لأنه في معنى العلة لما سبق ، أي ليستدل بذلك على قدرته ، وليعدل ويجزي.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أخبرني. ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى من عبادة الحجر ، لأنه كان يعبده ، فإذا رأى أحسن منه رفضه وعبد الآخر ، والهوى : ما تهواه نفسه. ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾ خذله عالما بضلاله ، وفساد استعداده وحاله قبل خلقه. ﴿وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ طبع عليهما بالخاتم بعد كفره ، فلم يسمع الهدى والمواعظ ، ولم يتفكر في الآيات. ﴿وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً﴾ ظلمة ، فلم ينظر بعين الاستبصار والاعتبار ، ولم يبصر الهدى.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ من بعد هداية الله وإضلاله إياه ، أي لا يهتدي. ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون. وقرئ «تتذكرون».

سبب النزول :

نزول الآية (٢١):

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ..﴾ : قال الكلبي : نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ ، وفي ثلاثة من المشركين : عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة ، كما أنّا أفضل حالا منكم في الدنيا ، فأنكر الله عليهم هذا الكلام ، وبيّن أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساويا لحال الكافر العاصي في درجات الثواب ، ومنازل السعادات [١].

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٢٦٦

نزول الآية (٢٣):

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ : أخرج ابن المنذر وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش تعبد الحجر حينا من الدهر ، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه ، طرحوا الأول وعبدوا الآخر ، فأنزل الله : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ الآية ، وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين ، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه.

نزول بقية الآية (٢٣):

﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ...﴾ قال مقاتل : نزلت في أبي جهل ، ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ، ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا في شأن النبي ﷺ ، فقال أبو جهل : والله إني لأعلم أنه صادق ، فقال له : مه ، وما دلّك على ذلك؟ قال : يا أبا عبد شمس كنا نسمّيه في صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكمل رشده نسمّيه الكذاب الخائن ، والله إني لأعلم أنه صادق ، قال : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال : تتحدث عني بنات قريش أني اتّبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة ، واللّات والعزّى إن اتبعته أبدا ، فنزلت : ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾[1].

المناسبة :

بعد بيان الفرق بين الظالمين الكافرين وبين المتقين في الولاية ، بيّن الفرق بينهما من وجه آخر وهو الرحمة والثواب في الآخرة ، ثم ذكر تعالى دليل التفاوت بين المحسنين والمسيئين وهو خلق الكون بالحق المقتضي للعدل ، وجعل الجزاء منوطا بالكسب والعمل ، ثم أخبر تعالى عن المسيء المتبع هواه بأنه موضع تعجب ، وأنه لا سبيل إلى هدايته بعد هدايته الله تعالى.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ١٧٠

التفسير والبيان :

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ أي بل أظن هؤلاء الذين اقترفوا الإثم والشرك والمعاصي في الدنيا ، فكفروا بالله ورسله ، وعبدوا غيره ، أن نجعلهم كالذين صدقوا بالله ورسله ، وعملوا الأعمال الصالحة من إقامة الفرائض واجتناب المحارم ، بأن نسوّي بينهم في الجزاء والثواب والرحمة في دار الدنيا والآخرة ، كلا لا يستوون ، فإن حال أهل السعادة في الآخرة غير حال أهل الشقاوة ، لقد ساء ما ظنوا ، وبئس ما حكموا أن نسوي بين الأبرار الطائعين وبين الفجار العاصين في الدنيا والآخرة. والمعنى : إنكار أن يستوي الفريقان حياة وموتا ، لأن المحسنين عاشوا على الطاعة ، وإنهم عاشوا على المعصية ، ومات أولئك على البشرى والرحمة ومات هؤلاء على الضدّ. وقيل : معناه إنكار أن يستويا في الممات ، كما استووا في الحياة من حيث الصحة والرزق ، بل قد يكون أحسن حالا من المؤمن ، فالفرق المقتضي لسعادة المؤمن وشقاوة الكافر إنما يظهر بعد الوفاة.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ [الحشر ٥٩ / ٢٠] وقوله سبحانه : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم ٦٨ / ٣٥ ـ ٣٦] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص ٣٨ / ٢٨].

وهذا دليل واضح أيضا على التفرقة في مصير المؤمن الطائع والمؤمن العاصي.

أخرج الطبراني عن مسروق أن تميما الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾.

وبعد بيان التفاوت بين المؤمن والكافر في الآخرة والدنيا ، أقام الدليل على صحة هذا المبدأ وحكمته ، فقال تعالى :

١ . ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ أي أوجد الله وأبدع السموات والأرض بالحق المقتضي للعدل بين العباد ، فلو لم يوجد البعث والحساب والجزاء ، لما كان ذلك الخلق بالحق بل كان بالباطل ، ومن العدل : اختلاف الجزاء بين المحسن والمسيء ٢ . ﴿وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي خلق الله السموات والأرض بالحق ، ليدل بهما على قدرته ، ولكي تجزي كل نفس بما قدمت من عمل صالح أو سيء ، وهم أي المخلوقون لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب ، فلو ترك الظالم الذي ظلم غيره في الدنيا ، ولم يقتص منه في الآخرة ، لما كان خلق السموات والأرض بالحق.

فيكون قوله ﴿وَلِتُجْزى﴾ معطوفا على قوله : ﴿بِالْحَقِ﴾ والتقدير : وخلق الله السموات والأرض لأجل إظهار الحق ، ولتجزي كل نفس ، والمعنى أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة ، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة ، وحصل التفاوت في الجزاء والدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين.

ثم أبان الله تعالى أحوال الكفار وقبائحهم وسوء جناياتهم ، فقال :

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ ، وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أخبرني عن حال ذلك الكافر الذي أطاع هواه ، وترك الهدى ، واتخذ دينه ما يهواه ، فكأنه جعل الهوى إلهه يعبده من دون الله ، فلا يهوى شيئا إلا تبعه ، دون مراعاة لما يحبه الله ويرضاه ، فهذا مما يدعو إلى العجب ، وكان الحارث بن قيس لا يهوى

شيئا إلا فعله ، والعبرة بعموم لفظ الآية ، لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله.

وقد أضله الله وخذله مع علمه بالحق ، ومعرفته الهدى من الضلال ، وقيام الحجة عليه ، وطبع على سمعه ، حتى لا يسمع الوعظ ، وعلى قلبه ، حتى لا يفقه الهدى ، وجعل غطاء على بصره وبصيرته ، حتى لا يبصر الرشد ويدرك آيات الله في الكون التي تدل على وحدانية الله تعالى.

فمن يوفقه للصواب والحق من بعد إضلال الله له بسبب انحرافه واتباعه هواه ، أفلا تتذكرون تذكر اعتبار ، وتتعظون حتى تعلموا حقيقة الحال؟!

ونظير مطلع الآية قوله تعالى : ﴿**وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى**﴾ [النازعات ٧٩ / ٤٠ ـ ٤١].

ونظير وسط الآية قوله سبحانه : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**﴾ [البقرة ٢ / ٦ ـ ٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ كما أن هناك فرقا في الولاية بين المتقين والظالمين ، هناك فرق آخر بين المحسنين والمسيئين في الجزاء في الدنيا والآخرة ، فالله ولي المتقين وناصرهم في الدنيا والآخرة ، والظالمون الكافرون يوالي بعضهم بعضا في الدنيا ، وتنقطع ولاياتهم في الآخرة ، والمحسنون المؤمنون سعداء الدنيا والآخرة ، والمسيؤون الكفار أشقياء في الآخرة ، وإن تساووا في الدنيا مع المؤمنين في الصحة والرزق والكفاية ، أو كانوا أحسن حالا من المؤمنين فيها.

٢ ـ لا بد من التفاوت في الجزاء والدرجات والدركات بين المحسنين والمسيئين ، عدلا من الله ، لأنه بالعدل قامت السموات والأرض ، ولكي تجزى كل نفس في الآخرة بما كسبت في الدنيا ، وهم لا يظلمون فيها بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

٣ ـ إن اتباع أهواء النفس مذموم دائما ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمّه ، قال الله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٦] وقال تعالى : ﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف ١٨ / ٢٨] وقال تعالى : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٩] وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٠] وقال: ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص ٣٨ / ٢٦].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره النووي في كتاب الحجة للمقدسي عن عبد الله بن عمرو : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» وقال أبو أمامة رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى». وقال شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن شداد بن أوس : «الكيّس : من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والفاجر : من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على الله» وقال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني : «إذا رأيت شحّا مطاعا ، وهوى متّبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة» وقال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر ، وهو ضعيف : «ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، فالمهلكات : شحّ مطاع ، وهوى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، والمنجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر : والعدل في الرضا والغضب».

٤ ـ لا يضلّ الله قوما إلا بعد أن هداهم وبعد أن أعلمهم وعلمهم ، ولا يمنع عنهم فضله ورحمته إلا بسبب جحودهم وظلمهم وكفرهم ، ولا يحجب عنهم منافذ الهداية من الاستبصار بنور البصيرة والقلب ، والنظر في أسباب الرشد ، وسماع المواعظ ليفقه الهدى إلا بعد إعراضهم وعنادهم وغيهم.

قال المفسرون : هذه الآية رد على القدرية الذين يقولون : إن الإنسان يخلق أفعال نفسه من الاعتقاد وفعل الخير وارتكاب الشر ، لأن الله تعالى صرح بمنعه إياهم عن الهدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره ، أي فالله هو الخالق لأفعال الإنسان ، وليس العبد خالقا لها ، وإنما هو كاسب وآخذ ومختار أيّ الطريقين من الخير أو الشر.

٥ ـ إن أسباب ضلال المضلين إما اتباع الإنسان ما تدعو إليه نفسه الأمّارة بالسوء : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ﴾ وإما تجاهل الحقائق بعد العلم بوجوه الهداية : ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾ وإما العناد : ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ وإما إنكار البعث باعتقاد ألا حياة إلا هذه : ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ [٢٤] وإنكار المبدأ قائلين : ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [٢٤].

وقد أجاب الله على شبهتهم بقوله فيما يأتي من الآيات : ﴿وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ليس لهم على ما قالوه دليل ، وإنما ذكروا ذلك ظنا وتخمينا واستبعادا ، فلا ينبغي لعاقل أن يلتفت إلى قولهم ، لأن الحجة قامت على نقيض ذلك ، وهي دليل المبدأ والمعاد المذكور مرارا ، وليس قولهم : ﴿ائْتُوا بِآبائِنا﴾ [٢٤] من الحجة في شيء ، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال ، فإنه يمتنع حصوله في الاستقبال [١].

---

(١) غرائب القرآن : ٢٥ / ٧٨ ـ ٧٩

الدهرية وإنكار البعث وأهوال القيامة

﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)﴾

الإعراب :

﴿بَيِّناتٍ﴾ حال.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ﴾ الأول : منصوب ب ﴿يَخْسَرُ﴾ و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ : للتأكيد.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا كُلَ﴾ بالرفع : مبتدأ ، وخبره : ﴿تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ ويقرأ بالنصب على أنه بدل من ﴿كُلَ﴾ الأولى ، و ﴿تُدْعى﴾ في موضع نصب على الحال ، إن جعلت ﴿تَرى﴾ من رؤية العين ، أو في موضع المفعول الثاني إذا جعلته من رؤية القلب.

﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿يَنْطِقُ﴾ حال من (الكتاب) أو من (ذا) ويجوز جعله خبرا ثانيا ل (ذا). ويجوز جعل ﴿كِتابُنا﴾ بدلا من ﴿هذا﴾ و ﴿يَنْطِقُ﴾: خبر المبتدأ.

البلاغة :

﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ بينهما طباق.

﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ يَنْطِقُ﴾ : استعارة تصريحية ، أي يشهد عليكم بالحق ، وهذا أبلغ من شهادة اللسان ، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالُوا﴾ : أي المشركون منكر والبعث. ﴿ما هِيَ﴾ أي الحياة. ﴿إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا﴾ أي إلا حياتنا التي في الدنيا. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا بأن يولدوا. ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي إلا مرور الزمان ، والدهر في الأصل : مدة بقاء العالم ، مأخوذ من دهره : غلبه. ﴿وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ليس لهم بذلك المقول من دليل علمي. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا يظنون ، إذ لا دليل لهم عليه ، وإنما قالوه بناء على التقليد.

﴿آياتُنا﴾ من القرآن الدالة على قدرتنا على البعث. ﴿بَيِّناتٍ﴾ واضحات. ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ متشبث. ﴿ائْتُوا بِآبائِنا﴾ أحياء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في أننا سنبعث ، وإنما سماه حجة على حسبانهم. ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بناء على ما هو معروف من الحجج. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أحياء. ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ، فإن من قدر على الابتداء في الخلق قادر على الإعادة ، لحكمة معروفة هي إقامة العدل التام والجزاء. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة تفكرهم وقصور نظرهم على المحسوسات أمامهم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعميم أو إعمام للقدرة بعد تخصيصها. ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الكافرون. ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين. ﴿جاثِيَةً﴾ باركة على الرّكب ، أو مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة ، وقرئ «جاذية» أي جالسة على أطراف الأصابع. ﴿إِلى كِتابِهَا﴾ صحيفة أعمالها. ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك.

﴿هذا كِتابُنا﴾ ديوان الحفظة الذي كتبناه عليكم ، وأضافه إلى نفسه لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم. ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ﴾ يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان. ﴿نَسْتَنْسِخُ﴾ نستكتب الملائكة ، ونثبت ونحفظ ﴿ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالكم.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٤):

﴿وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا ..﴾ : أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة رضي

الله عنه قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، فأنزل الله : ﴿وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

المناسبة :

بعد بيان حجب المشركين عن الوصول إلى الحق والخير ، بسبب كفرهم وعنادهم ، ذكر الله تعالى بعض مفاسد اعتقاداتهم وهي إنكار البعث ، وإنكار الإله القادر ، معتمدين على مجرد الظنون والأوهام والتخمينات ، والتقليد ، مطالبين بإعادة إحياء آبائهم للدلالة على البعث ، وتلك شبهة ضعيفة جدا.

فرد الله عليهم بالتنبيه على ما هو الدليل القاطع في الواقع ونفس الأمر ، وليس مجرد إثبات الإله بقول الإله ، وهو قدرة الله على الإعادة بناء على ثبوت قدرته على الإحياء الأول ، ثم عمم تعالى الدليل ببيان قدرته على جميع الممكنات في السموات والأرض. ثم ذكر تعالى بعض أهوال يوم القيامة من الجثو على الركب بسبب المخاوف ، والاحتكام إلى صحائف الأعمال المسجلة في الدنيا ، والشاهدة على أصحابها.

التفسير والبيان :

﴿وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ، وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ هذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب وأمثالهم في إنكار المعاد أو القيامة ، فقال منكر والبعث هؤلاء المشركون : ما الحياة الحاصلة إلا الحياة التي نحن فيها في الدنيا ، فليس ثم دار إلا هذه الدار ، يموت قوم ، ويعيش آخرون ، ولا معاد ولا قيامة ، وليس وراء ذلك حياة. وهذا تكذيب واضح للبعث ، وإنكار صريح للقيامة. وما يميتنا إلا مرور الأيام والليالي ، فمرورها هو المفني والمهلك للأنفس ، أي بالطبيعة. وهذا إنكار بيّن للإله الفاعل المختار.

وكان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الدهر هو الفاعل ، فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضيم أو مكروه ، نسبوا ذلك إلى الدهر ، فقيل لهم : لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر ، أي إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تنسبونها إلى الدهر ، فيرجع السب إليه سبحانه.

أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلّب الليل والنهار». وفي رواية : «لا تسبوا الدهر ، فإن الله تعالى هو الدهر» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : «كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، فقال الله في كتابه : ﴿**وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا ..**﴾ الآية.

وذكر محمد بن إسحاق عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : استقرضت عبدي ، فلم يعطني ، وسبني عبدي ، يقول : ووا دهراه ، وأنا الدهر». وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر».

وفسر الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة قوله ﷺ : «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» بقولهم : كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سبوا الله عَزَّوَجَلَّ ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ، ويسندون إليه تلك الأفعال [1].

ثم فنّد الله تعالى قولهم مبينا عدم اعتماده على دليل ، فقال :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ١٥١

﴿وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما قالوا هذه المقالة ، إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة ، فلا دليل لهم من نقل أو عقل ، وما مستندهم إلا الظن والتخمين من غير حجة أصلا.

قال الرازي : وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد ، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى [١].

ثم ذكر تعالى شبهتهم ودليلهم على إنكار البعث قائلا :

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا : ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي إذا تليت عليهم بعض آيات القرآن واضحات الدلالة على قدرة الله والبعث ، واستدل عليهم ، وبيّن لهم الحق ، وأن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إلى الأنفس بعد فنائها ، لم يكن لهم حجة إلا طلب إعادة إحياء آبائهم الذين ماتوا ، إن كنتم أيها المؤمنون صادقين في إمكان البعث ، وأحيوهم إن كان ما تقولونه حقا ، ليشهدوا لنا بصحة البعث.

وهذا كلام ساقط ، فإن البعث يكون بعد نهاية الدنيا ، ولا يلزم من عدم حصول الشيء في الحال امتناع حصوله في المستقبل يوم القيامة.

ثم ذكر الله تعالى دليل إمكان البعث قائلا :

﴿قُلِ : اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين منكري البعث : إن الله أحياكم في الدنيا ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يجمعكم جميعا يوم القيامة جمعا لا شك فيه ، فإن الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ، كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٧].

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ٢٧٠

وهذا إشارة إلى الآية المتقدمة : وهو أن كونه تعالى عادلا منزها عن الجور والظلم ، يقتضي صحة البعث والقيامة.

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس وهم مشركو العرب حينذاك ينكرون البعث ، من غير تأمل وتدبر وروية ، ولا يدركون الحقيقة العلمية ، ويقصرون نظرهم على المحسوسات ، دون تفكر بالغيبيات ، فاستبعدوا قيام الأجساد أحياء ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ، وَنَراهُ قَرِيباً﴾ [المعارج ٧٠ / ٦ ـ ٧]. كذلك لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم.

ثم ذكر الله تعالى دليلا أعم على قدرته بعد التخصيص ، فقال :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي إن الله مالك السموات والأرض ، والحاكم فيهما والمتصرف بهما وحده في الدنيا والآخرة ، من غير مشاركة أحد من عباده ، ولا من الأصنام المعبودة.

وبعد بيان إمكان القول بالحشر والنشر ، بدأ تعالى بذكر أحوال القيامة ، وأولها ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ..﴾ أي ويوم تقوم القيامة يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، بدخول جهنم ، يظهر خسرانهم في ذلك اليوم ، لصيرورتهم إلى النار.

ثم أبان الله تعالى أهوال يوم القيامة قائلا :

١ ـ ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً﴾ أي وتنظر أصحاب كل ملة ودين واحد جاثين على الركب من شدة الخوف والرعب ، فالناس لشدة الأمر يجثون بين يدي الله عند الحساب.

٢ ـ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ أي كل أمة تدعى إلى كتابها المنزل على

رسلهم ، أو إلى صحيفة أعمالها ، كما قال تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦٩].

٣ . ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في يوم القيامة يجزيكم الله بما عملتم في الدنيا من خير وشر ، تجازون بها من غير زيادة ولا نقص.

٤ . ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هذه صحيفة الأعمال التي أمرنا الملائكة الحفظة بكتابتها ، تشهد عليكم ، وتذكر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص ، كقوله تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ : يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها ، وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف ١٨ / ٤٩].

إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم وتثبتها وتحفظها عليكم. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ، ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابلون الملائكة الذين هم في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة ، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة في القدم على العباد ، قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا ، ثم قرأ : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ . هذا خبر صريح يتضمن إنكار المشركين والدّهرية للآخرة ، وتكذيبهم للبعث ، وإبطالهم للجزاء ، مأخوذ من قولهم : ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، أو نموت نحن ، وتحيا أولادنا ، وما يفنينا إلا السنون والأيام.

٢ ـ ليس لهم دليل نقلي أو عقلي على إنكار الآخرة ، فما هم قوم إلا يتكلمون بالظن والتخمين.

قال القرطبي : وكان المشركون أصنافا ، منهم هؤلاء منكر والبعث ، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث ، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين ، فيتأولون ويرون القيامة موت البدن ، ويرون الثواب والعقاب خيالات تقع للأرواح بزعمهم ، فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار ، لأن هؤلاء يلبسون على الحق ، ويغترّ بتلبيسهم الظاهر ، والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم [١].

٣ ـ إذا قرئت على المشركين آيات الله المنزلة في جواز البعث لم يكن لهم دفع وحجة أو شبهة إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون.

فرد الله عليهم بأن الله يحييكم بعد أن كنتم نطفا أمواتا ، ثم يميتكم ، ثم يجمعكم يوم القيامة كما أحياكم في الدنيا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله يعيدهم كما بدأهم ، ومن كان قادرا على ذلك ، كان قادرا على الإتيان بآبائهم ، وكان أهون شيء عليه.

وسمي قولهم حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في حسبانهم وتقدير هم حجة ، أو لأنه أسلوب يراد به : ما كان حجتهم إلا ما ليس حجة. والمراد نفي أن تكون لهم حجة أصلا.

٤ ـ ومن أدلته تعالى على قدرته الفائقة وإمكان البعث خلق السموات والأرض وملكها والتصرف بها ، ويوم تقوم القيامة يظهر خسران الكافرين الجاحدين.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٦ / ١٧٢

٥ ـ ليوم القيامة أهوال عظام ومخاوف جسام منها :

أن كل أهل ملة يجثون على الركب خوفا من شدة الأمر ، قال سلمان الفارسي : إن في يوم القيامة لساعة هي عشر سنين ، يخرّ الناس فيها جثاة على ركبهم ، حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي : «لا أسألك اليوم إلا نفسي».

ومنها : أن كل أمة تدعى إلى حسابها وكتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر.

ومنها : أن الجزاء على قدر العمل ونوعه من خير أو شر.

ومنها : قطعية الإثبات للأقوال والأفعال ، فإن صحائف الأعمال التي تسجلها الملائكة الحفظة على كل إنسان في الدنيا تشهد على أصحابها.

ومنها : المفاجأة بالحقيقة والواقع وهو أن الله كان يأمر ملائكته بنسخ ما يعمله بنو آدم في الدنيا ، قال علي رضي الله عنه : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم.

جزاء المؤمنين المطيعين وجزاء الكافرين العصاة

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما

نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٤) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾

الإعراب :

﴿وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها السَّاعَةُ﴾ بالرفع : مبتدأ ومعطوف على موضع ﴿إِنَ﴾ وما عملت فيه ، وقرئ بالنصب عطفا على لفظ اسم إن ، وهو ﴿وَعْدَ اللهِ﴾.

﴿قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا السَّاعَةُ﴾ بالرفع : مبتدأ ، و ﴿ما﴾ : خبره ، وقرئ بالنصب على أنه مفعول ﴿نَدْرِي﴾ و ﴿ما﴾ : زائدة. و ﴿إِنْ نَظُنُ﴾ إلا ظنا تقديره : إن نظن إلا ظنا لا يؤدي إلى العلم واليقين. وإنما افتقر إلى هذا التقدير ، لأنه لا يجوز أن يقتصر على أن يقال : ما قمت إلا قياما ، لأنه بمنزلة : ما قمت إلا قمت ، وذلك لا فائدة فيه.

﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ بدل من ﴿رَبِ﴾ الأول.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِياءُ ، فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَهُ الْكِبْرِياءُ﴾ : مبتدأ وخبر مقدم ، ﴿فِي السَّماواتِ﴾ : حال ، أي كائنة.

البلاغة :

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي﴾ استفهام توبيخ.

﴿وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ استعارة تمثيلية ، مثّل تركهم في العذاب بمن سجن في مكان ثم نسيه السجّان من غير طعام ولا شراب ، ووجه الشبه منتزع من متعدد. والمراد : نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي ، لأن الله تعالى لا ينسى.

﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لإهمالهم وعدم العناية بشأنهم.

المفردات اللغوية :

﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جنته ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الظفر البين الظاهر ، لخلوصه عن الشوائب ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي﴾ أي يقال لهم ذلك ، وآياتي : آيات القرآن وما قبله من الكتب المنزلة الثابتة المتضمنة شرائع الله ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن الإيمان بها ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ كافرين ، فالمجرم : ضد المسلم ، فهو المذنب بالكفر.

﴿وَإِذا قِيلَ﴾ أي قيل للكفار ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي وعده بالبعث وبأنه محيي الموتى من القبور ، و ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ : إما الموعود أو المصدر ، و ﴿حَقٌّ﴾ : ثابت كائن لا محالة ﴿لا رَيْبَ﴾ لا شك ﴿إِنْ نَظُنُّ﴾ ما نظن أو إن نحن إلا نظن ظنا ، دخل حرفا النفي والاستثناء لإثبات الظن ونفي ما عداه ﴿وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ بمتحققين أن الساعة آتية.

﴿وَبَدا﴾ ظهر ﴿لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا﴾ ظهر لهم في الآخرة جزاء أو عقوبات أعمالهم ، أو عرفوا مدى قبح أعمالهم ﴿وَحاقَ بِهِمْ﴾ نزل أو حل وأحاط بهم ﴿ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي الجزاء والعذاب ﴿نَنْساكُمْ﴾ نترككم في النار ﴿كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ تركتم العمل للقاء هذا اليوم ، وإضافة اللقاء إلى اليوم : إضافة المصدر إلى ظرفه ﴿وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ مانعين منه يخلصونكم من أهواله.

﴿اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً﴾ استهزأتم بها ولم تتفكروا فيها ، و ﴿آياتِ اللهِ﴾ : القرآن ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ خدعتكم ﴿الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ أي زينتها ، حتى قلتم : لا بعث ولا حساب ﴿لا يُخْرَجُونَ مِنْها﴾ الفعل مبني للمجهول ، وقرئ بالبناء للمعلوم ، ومنها أي من النار ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم بأن يرضوه بالتوبة والطاعة ، لفوات الأوان ، وعدم النفع يومئذ.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ الشكر والثناء بالجميل على وفاء وعده في المكذبين ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ خالق هذه الأشياء ، والعالم : كل ما سوى الله ، وجمع لاختلاف أنواعه. وهذه الأشياء نعمة من الله ودالة على كمال قدرته ﴿الْكِبْرِياءُ﴾ العظمة والسلطان ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قدّر وقضى.

المناسبة :

بعد بيان أحوال القيامة وأهوالها ، أبان الله تعالى أحوال المؤمنين الطائعين وما أعد لهم من الرحمة أي الثواب ، وأحوال الكافرين وما أعد لهم من العقاب ، والتوبيخ على تفريطهم في الدنيا ، وما حل بهم جزاء استهزائهم بالعذاب

وانخداعهم بالدنيا ، ومعاملتهم معاملة المنسي بتركهم في النار ، دون انتظار الخروج منها أو التوبة واسترضاء الله عن الذنوب السالفة.

التفسير والبيان :

هذه الآيات تبين حكم الله في خلقه يوم القيامة ، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين ، فقال تعالى مبينا حكم الفريق الأول :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي فأما المصدقون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والذين عملوا الأعمال الصالحة وهي الخالصة الموافقة للشرع ، فيدخلهم ربهم الجنة ، وذلك أي الإدخال فيها هو الظفر بالمطلوب ، وهو الفلاح والنجاح الظاهر الواضح.

وسمى الثواب رحمة ، والرحمة جنة ، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح : «إن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء».

ثم قال تعالى مبينا حكم الفريق الثاني وموبخا إياهم :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ ، فَاسْتَكْبَرْتُمْ ، وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ أي وأما الذين أنكروا وحدانية الله والبعث ، فيقال لهم تقريعا وتوبيخا : أما قرئت عليكم آيات الله تعالى ، فاستكبرتم وأبيتم الإيمان بها ، وأعرضتم عن سماعها واتباعها ، وكنتم قوما مجرمين في أفعالكم ، ترتكبون الآثام والمعاصي ، وتكذبون في قلوبكم بالمعاد والثواب والعقاب؟ لذا أردف ذلك بقوله :

﴿وَإِذا قِيلَ : إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها ، قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ، وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار من طريق الرسول ﷺ والمؤمنين : إن وعد الله بالبعث والحساب ، وبجميع

الأمور المستقبلة في الآخرة حق ثابت ، وواقع لا محالة ، والقيامة لا شك في وقوعها ، فآمنوا بذلك ، واعملوا لما ينجيكم من العذاب ، قلتم : لا نعرف ما القيامة ، إن نتوهم وقوعها إلا توهما مرجوحا أو ظنا لا يقين فيه ولا علم ، وما نحن بمتحققين ولا موقنين أن القيامة آتية ، أي كأنهم نفوا كل الظنون إلا الذي لا ثبوت علم فيه ، وأكدوا هذا المعنى بقوله : ﴿وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

وبعد هذا التوبيخ والنقاش ، ذكر الله تعالى ما يفاجؤون به من العذاب :

﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي وظهر لهم قبائح أعمالهم وعقوبة أفعالهم السيئة ، وأحاط بهم ، ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار ، وعوقبوا بما كانوا يهزؤون به في دار الدنيا من العذاب والنكال ، ويقولون : إنه أوهام وخرافات.

ثم أيأسهم تعالى من النجاة قائلا :

﴿وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ، وَمَأْواكُمُ النَّارُ ، وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ أي ويقال لهم : اليوم نعاملكم معاملة الناسي لكم وكالشيء المنسي الملقى غير المبالى به ، فنتركك في العذاب ، كما تركتم العمل لهذا اليوم ، وتجاهلتم ما جاء عنه في كتب الله ، لأنكم لم تصدقوا باليوم الآخر ، ومسكنكم ومستقركم الذي تأوون إليه هو النار ، وليس لكم من أنصار ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب.

وبذلك جمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة ألوان هي :

الأول ـ أنه قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية.

الثاني ـ أنه جعل مأواهم النار.

الثالث ـ فقدان الأعوان والأنصار.

ثبت في الصحيح : «أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : ألم أزوجك ، الم أكرمك ، ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني».

ثم ذكر الله تعالى أسباب هذا العقاب أو الجزاء ، فقال :

﴿ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً ، وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ذلك العذاب الذي وقع بكم بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا ولعبا ، وخدعتكم الدنيا بزخارفها وزينتها ، فاطمأننتم إليها ، وظننتم ألا دار غيرها ، ولا بعث ولا نشور ، فاليوم لا يخرجون من النار ، ولا يطلب منهم العتبى بالرجوع إلى طاعة الله ، واسترضائه ، لأنه يوم لا تقبل فيه التوبة ، ولا تنفع فيه المعذرة.

وبعد أن أثبت تعالى قدرته على البعث بدلائل الآفاق والأنفس ، وذكر حكمه في المؤمنين والكافرين ، أثنى على نفسه بما هو أهل له تعليما لنا ، فقال :

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ ، وَرَبِّ الْأَرْضِ ، رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي الحمد الخالص والشكر الكامل على النعم الكثيرة لله خالق ومالك السموات ، ومالك الأرض ، ومالك ما فيهما من العوالم المختلفة المخلوقة من إنس وجن وحيوان ، وأجسام وأرواح ، وذوات وصفات.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي ولله العظمة والجلال والسلطان في أرجاء السموات والأرض ، وهو سبحانه القوي القاهر في سلطانه فلا يغالبه أحد ، الحكيم في كل أقواله وأفعاله وشرعه وجميع أقضيته في هذا العالم.

ورد في الحديث القدسي الصحيح عند أحمد ومسلم وأبي داود وابن ماجه عن

أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «يقول الله تعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحدا منهما ، أسكنته ناري».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي :

١ ـ إن ثواب المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال ، فأدوا الفرائض ، واجتنبوا المعاصي والمنكرات هو دخول جنات الخلد والنعيم.

٢ ـ إن جزاء الكافرين الذين أشركوا بالله إلها آخر ، واقترفوا المعاصي ، وتكبروا عن طاعة الله وقبول أحكامه واتباع شرائعه هو دخول نار جهنم.

وهذا يدل على أن استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع.

٣ ـ يوبخ الكفار ويقرّعون على تركهم اتباع آيات الله في قرآنه وكتبه المنزلة على رسله والاستماع إليها.

٤ ـ إذا قام المؤمنون بتذكير الكفار بوعد الله بالثواب والعقاب وتأكيد أن الساعة آتية لا ريب فيها ، أنكروا ذلك وكذبوه ، وأجابوا بأنا لا ندري هل الساعة (القيامة) حق أم باطل؟ وإن نحن إلا نظن ظنا لا يؤدي إلى العلم واليقين ، ولسنا متحققين ولا واثقين بأن القيامة آتية ، وهؤلاء من المشركين هم الفريق الشاكون بالبعث والقيامة ، وهم غير أولئك الفريق المذكورين سابقا القاطعين بنفي البعث في قوله تعالى : ﴿**وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ..**﴾.

٥ ـ في الآخرة تنكشف الحقائق وتنجلي الأمور بنحو قاطع ، ويظهر لهؤلاء الكفار جزاء سيئات ما عملوا ، وقبح جرم ما ارتكبوا ، ويحيط بهم إحاطة تامة ما كانوا يستهزئون به من عذاب الله.

٦ ـ للعذاب ألوان ثلاثة : قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية ، وصيرورة مسكنهم ومستقرهم النار ، وفقدانهم الأعوان والأنصار.

٧ ـ يقال لهم : استحقاقهم ألوان العذاب الثلاثة المذكورة بسبب إتيانكم ثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة : وهي الإصرار على إنكار الدين الحق ، والاستهزاء به والسخرية منه ، والاستغراق في حب الدنيا ، والإعراض بالكلية عن الآخرة والوجهان الأول والثاني داخلان في قوله تعالى : ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً﴾ والوجه الثالث هو المراد من قوله تعالى : ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾.

٨ ـ لا خروج إلى الأبد من النار ، ولا أمل في استرضاء الله والتوبة والإنابة إليه والاعتذار منه ، كما قال تعالى : ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها﴾ [السجدة ٣٢ / ٢٠].

٩ ـ الحمد والثناء بالجميل كله على الله تعالى الخالق والمالك لكل الكون سمائه وأرضه ، وعوالمه ، والمتفرد بالعظمة والجلال ، والبقاء والسلطان ، والقدرة والكمال ، والحكمة الباهرة والرحمة والفضل والكرم ، وذلك يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا محسن ولا متفضل إلا هو.

فهرس

الجزء الخامس والعشرين

الموضوع	الصفحة
اختصاص علم الساعة بالله تعالى وانتهاء أسطورة الشرك فيها	١
تبدل أحوال الإنسان وتغير أطواره	٩
ضرورة التأمل في الآيات والأنفس	١٤
سورة الشورى	٢٠
تسميّتها ومناسبتها لما قبلها	٢٠
ما اشتملت عليه السورة	٢١
إنزال الوحي وعظمة الله ورقابته أحوال المشركين	٢٣
مقاصد الوحي الإلهي	٢٨
وحدة الأديان في أصولها	٣٧
الأمر بالدعوة والاستقامة على المتفق عليه ودحض حجة المجادلين فيه	٤٢
حتمية الجزاء للمؤمنين والظالمين وقبول التوبة	٥١
من مظاهر حكمة الله في خلقه وآياته على قدرته	٦٦
صفات المؤمنين الكمّل أهل الجنة	٧٨
أحوال الكفار أمام النار	٩٣
الاستجابة لنداء الله مالك السموات والأرض	٩٧
أنواع الوحي	١٠٣
سورة الزخرف	١١٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها ومشتلاتها	١١٢

القرآن كلام الله بلغة العرب وعقاب المستهزئين بالأنبياء ١١٤
من مصنوعات الله تعالى وصفاته ١٢١
عبادة المشركين الملائكة..... ١٢٧
الرّد على تقليد الآباء ، واختيار الأنبياء وبيان حال الدنيا ١٣٩
حال المعرض عن ذكر الله وتثبيت النّبي ﷺ على دعوته ١٥٢
العبرة من قصة موسى عليه السلام وفرعون ١٦٢
العبرة من قصة عيسى عليه السلام ١٧١
ألوان نعيم المتقين أهل الجنة..... ١٨٠
عذاب أهل النار وأسبابه ١٨٧
تنزيه الله سبحانه عن الولد والشريك..... ١٩٣
سورة الدخان ٢٠٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها..... ٢٠٢
ما اشتملت عليه السّورة..... ٢٠٣
فضلها ٢٠٤
إنزال القرآن في ليلة القدر المباركة وصفات منزله..... ٢٠٤
تهديد المشركين بالعذاب..... ٢١٠
ضرورة الاعتبار بقوم فرعون وإنجاء بني إسرائيل..... ٢١٧
إنكار المشركين البعث وإثباته لهم..... ٢٢٧
أهوال يوم القيامة التي يتعرض لها الكفار والعصاة ٢٣٢
ما يلقاه المتقون من ألوان النعيم في الجنان..... ٢٣٨
سورة الجاثية..... ٢٤٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها..... ٢٤٦
ما اشتملت عليه السورة..... ٢٤٧

مصدر القرآن وإثبات الخالق ووحدانيته..... ٢٤٩
وعيد المكذبين بآيات الله وجزاؤهم..... ٢٥٥
من نعم الله تعالى على عباده..... ٢٦٠
نعم الدين وإنزال الشرائع ٢٦٥
الفارق بين المحسنين والمسيئين في المحيا والممات ٢٧٢
الدهرية وإنكار البعث وأهوال القيامة ٢٨٠
جزاء المؤمنين المطيعين وجزاء الكافرين العصاة..... ٢٨٨